سياسةُ العقل

(دراسة في ميزان الحكمة عند

الإمام الحسن بن علي عليه السلام)

السيد زهير طالب الأعرجي

2022 م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في كتابه الكريم : (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[1]

عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) قال لابنه الإمام الحسن (ع): (إن أغنى الغنى العقل)[2] ، وعلى أساس ذلك كان اسم الكتاب .

---

[1] سورة الأحزاب : الآية 33 .

[2] معدن الجواهر ورياضة الخواطر ص 42.

عنوان الكتاب :
سياسةُ العقل
(دراسة في ميزان الحكمة عند الإمام
الحسن بن علي عليه السلام)
المؤلف : السيد زهير طالب الأعرجي
الطبعة الأولى 2022 م
عدد الصفحات : 410 صفحة

Book Title : Politics of Rationalism
(Imam Hassan Bin Ali Philosophy)
Author : Dr. Zuhair T. Araji
First Edition : 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ زنة عرشه ومداد كلماته ، وما أحصاه كتابه ، وأحاطه به علمه ، والصلاة والسلام على نبيه (ص) الذي أرسله رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى أهل بيته الطاهرين (ع) .

يختزل هذا الكتاب أفكار الكثير مما كُتب عن سيرة الإمام الحسن بن علي (ع) ، السبط المُجتبى ، ويحاول سبر أغوار الأحداث التي سبقت توقيع معاهدة الهدنة وما بعدها .

الإمام الحسن (ع) هو أيقونة العلم والحكمة ، ومصباح الهدى، وسفينةُ النجاة ، وحياته (ع) ليست منحصرة بالهدنة مع من تمردَ على الخلافة الشرعية ، بل لابد من فهم شخصيته العلمية المتصلة برسول الله (ص) ، وبأمير المتقين علي بن أبي طالب (ع) .

حاول الإمام الحسن (ع) بناء الإنسان عبر منهج العقل والدين . وحاول (ع) شرح القيود التكوينية التي تكبل الأمة كالغفلة ، وحب الحياة ، وحب الغرائز والشهوات ، وعدم الإلتفات إلى الموت . وكان شعاره (ع) الاعتصام بالله تعالى ، وعدم بيع الآخرة بالدنيا ، وعدم التورط في الشبهات ومقدماتها.

ميزان الحكمة عند الإمام الحسن (ع) يتلخص في فكرة أساسية هي أن الله عز وجل اصطفى مجموعة من الأتقياء الأطهار الذين لم

يعصوا الله أبداً ليكونوا بمنزلة حفظة الرسالة بعد رحيل رسول الله (ص) إلى عالم الخلود . كان (ع) هو أحد هؤلاء الأطهار الذين دعوا الناس لإجابته، والجهاد معه في سبيل الله تعالى ، ومنازلة أهل الباطل معه .

وهذا الكتاب يتضمن شرحاً لفضائل الإمام الحسن (ع) ، وحكمته ، وصبره ، ومعاناته مع الناس ، وبلاغته في وصف الخالق سبحانه وتعالى، ووصف كمال رسول الله (ص) وجماليته، ووصف عترته الطاهرة (ع) ، بأبلغ الصفات وأعمقها وأجملها .

اللهم أجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم واجعله في صحيفة أعمالنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المؤلف

11 أيلول 2022 م

14 صفر 1444 هـ

محتويات الكتاب

مقدمة
الفصل الأول : أصول المنهج العقلي
الفصل الثاني : مصاديق المنهج العقلي
الفصل الثالث : النهي عن ركوب الأهوال
الفصل الرابع: حكمة الإمام الحسن(ع) : أصول الدين
الفصل الخامس: حكمة الإمام الحسن (ع) : الإنسان والحياة الدنيا
الفصل السادس : النتائج المستخلصة

الفصل الأول

أصول المنهج العقلي
عند الإمام الحسن (ع)

بناء شخصية الإنسان. منهج العقل في الحياة. مبادئ الحياة الدنيوية. المراحل العقلية: مرحلة التكوين. مرحلة التمرين. مرحلة مواجهة الحياة .

بناء شخصية الإنسان

(معالم وصية الإمام علي عليه السلام)

من خلال وصيته المفصَّلة لابنه الحسن (ع) صممَّ الإمام علي بن أبي طالب (ع) شخصية الإنسان، الذي أراده الله تعالى أن يكون نموذج المخلوق العاقل المتكامل بين الكائنات. فالإنسان يملك العقل، ومن خلاله يملك الإرادة والتصميم في فعل الشيء أو تركه، ومن خلاله يدرك العلّة الحقيقية لعبادة خالقه العظيم، والإلتزام بأوامره ونواهيه. وما هذه الحياة إلا مختبراً للإنسان في السعادة أو الشقاء، وساحة عقلية لإختبار أفضليته على باقي من خلق سبحانه. ما ستقرأه في الوريقات القادمة هو عرضٌ ملخصٌ لوصية الإمام أمير المؤمنين (ع) لابنه الحسن (ع). وهي أنسب مقدمة لفهم أصول المنهج العقلي عند الإمام الحسن (ع).

الإنسان وقيود الدنيا:

لاشك أننا نشعر أن هناك قيوداً تقيّدنا في هذه الدنيا، وتجعلنا ندرك حجمنا الحقيقي في هذا الكون الواسع الفسيح. فبعض تلك القيود كونية، وبعضها جسدية خاصة بأجسامنا، وبعضها فكرية ونفسية خاصة بعقولنا ونفوسنا . وفيما يلي نعرض لستة قيود تقيّد معصمنا في الحياة الدنيا ، وهي :

القيد الأول : الزمن : وهو قيدٌ يحكمُ حياتنا، ولا أحد من البشر يستطيع أن يكسر ذلك القيد أو يتحرر منه. فنحن محكومون بدقائقه وساعاته وأيامه وشهوره. فما أن ننظر إلى الأمس بأحداثه حتى يفاجئنا الغد بما سيحمله من مفاجآت. وكلما مرَّ الزمن وفشل الإنسان في أداء تكليفه العبادي أو الإنساني تجاه خالقه تعالى ثقُلت عليه صحيفة أعماله بقائمة تخلفه. فالزمن يمضي والإنسان في الدنيا تابعٌ لحكمه وشروطه .

القيد الثاني : الموت : فهو يعبّر عن أمر محتوم في طبيعة الخلق والوجود، فـ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...) [3] ، و(... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...) [4] ، ووجه الله هو الدين السماوي المبعوث لنا، وبعبارة أدق هو التوحيد، أي أن كل شيء يفنى ويبقى مبدأ التوحيد، وهو وجود الخالق الواحد الذي لا نظير له. فحتمية الموت هو آخر قيدٍ في حياتنا، ولا يمكن الإفلات منها بأي حال من الأحوال، فلكلِ إنسان أجلٌ محتوم، ومصيرٌ معلوم .

فالإنسان إنما خُلِقَ للآخرة، فهي الحياة الأبدية، وما الدنيا إلا دار امتحان واختبار. وبكلمة فإن الدنيا هي دارُ تحولٍ وإرتحالٍ. فلذلك كان التذكير بالموت هو تذكيرٌ بالتهيؤ للرحيل إلى العالم الأبدي الذي لا موت فيه ولا فناء.

---

[3] سورة آل عمران : الآية 185 .

[4] سورة القصص: الآية 88 .

القيد الثالث : شدائد الدنيا : وأولها الأمراض التي تنزل بالإنسان فتوجعه بالألم والمعاناة، وربما تنتهي به إلى الموت. ثم تأتي الشدائد الأخرى كالفقر والعوز، والجنايات والإعتداءات، والظلم والقسوة، ومشاكل الناس في الغِيبَة والنميمة والشك. والدنيا بؤرة الهموم النفسية، فهناك همومٌ دنيويةٌ تتبلور في همّ طلب الرزق، وهمّ إحراز العيشة الكريمة، وهمّ التعامل مع الناس، وهمّ تأدية الواجبات . وبكلمة فالإنسان حليفُ الهموم، وقرين الأحزان ، لأن الهموم إذا لم تنجلِ تتحول إلى حزنٍ وكآبة.

القيد الرابع : الغفلة : وهي صفة تجعل الإنسان ينسى حقيقة وضعه في الدنيا، فتأخذه الحياة نحو البهجة الظاهرية، والوهم، والخيال، فيتصور أنه يعيش حياةً خالدةً فيها جميع الملذات. وما أن يلتفت إلى واقعه الحقيقي، يدرك كم ذهبَ بعيداً في أحلامه، وغفلَ عن حقيقة وجوده. ومن أهم مساوئ الغفلة عند الإنسان هو الإنصراف عن واجباته تجاه الله عز وجل، وإهمالها .

القيد الخامس : الشهوة : فالفرد صريع الشهوات، فلا يصمد أمام جموحها وزينتها ، إلا من أمتلك الإرادة واليقين . وأهمها شهوات الدنيا ، وهي : جمع المال، والنساء، واقتناء الذهب والأشياء الثمينة، والتسلط على الآخرين. وطالما امتلك الإنسان غريزة حب التملك طغت الشهوة على مقدراته. ولما كانت الشهوة بوابة المعصية والإنحراف، كان لابد من

تهذيبها، وتقليمها حتى تُنظَّم بالشكل الذي أراده الله تعالى. إنَّ أهمَّ علاجٍ لطغيان الشهوة هو تقليل مستوى الطموحات الدنيوية، أو كما يقول الإمام (ع) بتخفيض الطلب والإجمال في المكتسب .

القيد السادس : الرزق : هو كل ما يُنتفع به، قيل أن الرزق الحسن هو ما يصل إلى صاحبه بلا كدّ في طلبه. والرازق هو الله المفيضُ على عباده، والمنعم عليهم بإيصال ما يحتاجونه إليهم. يحدد الله تعالى الرزق ويدبره لعباده، وإلى ذلك قال الإمام علي (ع): ليس كلُ طالبٍ بمرزوق، ولا كلُ مجملٍ بمحروم. أي أن الله تعالى يقدّر الرزق ويبعثه إلى الإنسان.

وقد تعارف بين أهل العلم والمعرفة أن البركة في الرزق القليل، وإلى ذلك قال الإمام أمير المؤمنين (ع): رُبَّ يسيرٍ أنمى من كثير. وقال (ع) أيضاً: الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزقٌ يطلبك. إذن الرزق هو لونٌ من ألوان التدبير الآلهي للإنسان، ولذلك ينهمرُ الرزقُ أحياناً عليه، وينصرم عنه في أحيان أُخر. كل ذلك لتدبيرٍ يعلمه الله ولا يعمله الإنسان. وحجم الثروة عند الناس لا علاقة لها بمكانة المرزوق، بل هو تدبيرٌ آلهي خفي لا يطلع الإنسان على حكمته.

الإنسان في مراحل الدنيا:

ومن أجل بناء الإنسان بناء فكرياً سليماً لابد من ملاحظة المراحل العقلية التي يمرُّ بها، وملاحظة نوعية العلم الذي ينبغي أن يتلقاه في كل

مرحلة. فهنا بحثٌ في مراحل الاكتساب في الدنيا، كما رآها الإمام علي (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع) :

في مرحلة التكوين : ينتقل العلم في الصغر إلى ذهن اليافع البكر الذي لم تلوثه مسحة من الفكر الموضوع بعد. فيكون عليه، حسب نص الإمام أمير المؤمنين (ع)، أن يستلم وفي تلك المرحلة من حياته، علماً آلهياً نقياً، كالقرآن الكريم مثلاً.

فالقرآن هو أول ما يتعلمه الصبي قراءة وتفسيراً وتأويلاً. ثم يتعلم شرائع الإسلام وأحكامه. تلك المقدمات تصبح جزءً من شخصيته في حياته اللاحقة، عندها لا تستطيع أي فكرة غريبة لاحقة زعزعة تلك المقدمات. وعندما يتفتح ذهن الصغير رويداً رويداً، يبدأ بتعلم معالم التوحيد، يتعلم بأن الله واحد لا شريك له، ويتعلم صفاته تعالى كما وصف نفسه بها عزوجل، وكما ذُكرت في القرآن الكريم. ثم يؤمن بمحمدٍ (ص) رسولاً خاتماً من الله تعالى. وبالإقرار بهما يدخل دائرة الإسلام. تلك هي مرحلة التكوين الفكري والعقلي.

في مرحلة التمرين : وهي المرحلة الثانية من مراحل النمو العقلي في الدنيا، وبعد أن ينتهي من التدبر في فهم القرآن الكريم وحفظه، يبدأ في التفقه في الدين أي دراسة أحكام الحلال والحرام ومدلولاتها، حتى يتجنب الوقوع في الشبهات عندما يكبر، ويبلغ مبلغ الرجال. ومرحلة التمرين تحتاج إلى ممارسة الأمور التالية :

الأول : تعمير القلب بذكر الله : فالسبب القلبي أو العقلي بين العبد وربه هو أوثق الأسباب وأكملها. ولا يحيا القلب إلا بالزهد واليقين والحكمة. فقلّة النظر إلى مفاتن الدنيا تجعل القلب غنياً بالله تعالى، وذلك هو الزهد. والقطع برحمة الله وثوابه يجعل العقل قاطعاً بوجود الله، وذلك هو اليقين. وإحياء الصلة والسبب العقلي بين الخالق والمخلوق تجعلنا أقرب إلى الله تعالى، وتلك هي الحكمة .

الثاني : تمرين النفس على التصبر على الحق : أي تكلّفُ الصبر وتحملُهُ في سبيل الحق إلى النهاية، وبتعبير آخر هو أن يقف الإنسان مع الحق طوال حياته، لا ينثني ولا ينكسر. وقوة الصبر على الحق يؤدي قهراً إلى قوة الصبر على المكروه. وبذلك فإن تمرين النفس على تحمل الصبر يؤدي إلى تعايشها مع الأمور المُكره عليها، والتي لا تحتمل عادةً من قبل الآخرين .

الثالث : طلب العلم النافع : لابد من التركيز على تحديد ماهية العلم الذي يطلبه طالب العلوم. أي لابد أن يكون للعلم ذاك منفعة فكرية تخدم الطالب في مراحل لاحقة من حياته، وإلا ما فائدة تحصيل العلم الذي لا ينفع؟ والعلم النافع يحدد شخصية الإنسان المستقبلية، ويحرك مكامن الإبداع والموهبة في شخصيته عندما يتطور في حياته اللاحقة .

الرابع : قراءة التاريخ : دراسة التاريخ وفهمه قضية أساسية في تكوين الإطار الفكري، وبناء شخصية الإنسان. ففي التاريخ الكثير من الأحداث والمنعطفات والكوارث التي يستفيد منها الطالب لتفادي الأخطاء التي أُرتكبت. والمهم في التاريخ هو التفكر في أعمال الماضين من الناس، واستخلاص العبر من سلوكهم وأخطائهم.

في مرحلة مواجهة ما يُحيط به : ومرحلة مواجهة ما يحيط بالإنسان تتم إما على الصعيد الشخصي أو على الصعيد الإجتماعي .

على الصعيد الشخصي : تُلحظ فيه العناصر التالية :

الأول : الإعتصام بالله وعدم بيع الآخرة بالدنيا : أي فهم الدور الآلهي في هذه الحياة، وهو أن الموت والحياة بيد الله تعالى، وكذلك الفناء والنشور، والنعمة والإبتلاء. فلذلك كان على العاقل أن يعتصم بالله تعالى، ويتوكل عليه ، ويطلب المعونة منه . خصوصاً بعد أن ينكشف جهل الإنسان بما يدور من حوله ، فلم يبقَ له إلا التمسك بما أنزله الله له من حكمة وكتاب.

الثاني : عدم سلوك طريق مضلّ وعدم ركوب الأهوال : وهو الإمساك عن سلوك طريق يخشى الإنسان ضلالته. فبمجرد أن يشك الإنسان أن طريقه محفوفٌ بالضلال أو يمكن أن يؤدي إلى الإنحراف عن الجادة فعليه التوقف عن ذلك الطريق. وبذلك يكون الأمر بعدم ركوب الأهوال أمراً

جازماً إذا علم أن في الأمر حيرة الضلال. أي أن عليه أن يتوقف في نقطة ما إذا واجه أمراً عظيماً من أصحابه أو شيعته. وقد فعل الإمام الحسن (ع) عين ذلك، عندما غدر به شيعته واصطفوا مع معاوية خلسة.

الثالث : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : إنَّ الكفَّ عن ركوب الأهوال وقت ضلال الناس لا يعني بالضرورة التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هما أمران منفصلان. وقد ترك الإمام الحسن (ع) أهوال الحرب مع معاوية عندما رأى من الناس إنحرافاً عن الإسلام وتباطؤً في الجهاد، لكنه بقي آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مجاهداً في سبيل الله بلسانه وأفعاله .

الرابع : عدم التورط في الشبهات ومقدماتها : يعني عدم الوقوع في مأزق الإشتباه بين الحق والباطل. فبعد أن نظرَ الحسن (ع) إلى ما عمله الأولون من واجبات، خصوصاً رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع)، وأراد التعامل مع معاوية، وقد خذله اتباعه وشيعته ، إلتزم بعدم التورط في الشبهات . وتركَ الشائبة أو الشيء الغريب الدخيل على الدين الذي يوصل الناس إلى الشبهة، كما أوصاه أمير المؤمنين (ع). وبذلك كان حذراً من كل شائبة تتعارض مع الدين بحيث يمكن أن تدخله في شبهة يختلط فيها الحق مع الباطل .

الخامس : التفكر السليم : وهو وضع الفكر على ميزان الحكمة ومناقشته، ثم الأخذ بأجود البدائل. فالتفكر الصحيح يؤدي إلى التبصر، أي أن التأمل الذهني، مع الاعتقاد بعون الله ومساعدته، يؤدي إلى التبصر بخفايا الحكمة، وأسرار المعرفة. والتقدير السليم يؤدي إلى عدم إلتباس الحق بالباطل.

وطالما كان العقل مستودع التجارب، كان العاقل أكثر استفادة في تجاربه من غيره، فلا يكرر الخطأ الذي وقع فيه مرة أخرى. والعاقل يتعظ بالحوادث والأشياء من أول وقوعها، فلا يتوانى غفلةً وإهمالاً، وإلاّ فإن المكاره ستتضاعف، وتصبح أكثر إيلاماً. فكان لابد من عزيمة الصبر وحُسن اليقين، فبهما يستطيع طرد أمراض المجتمع عن نفسه، وصدّ محاربة الناس له .

السادس : الطريق بين الإنسان وربه : الإنسان في تعامله مع الحياة الإجتماعية يحتاج إلى خارطة طريق مكونة من ركائز ثلاث:

1 – استدامة الدعاء وطلب الخير من الله تعالى : فطالما أَذِنَ اللهُ في الدعاء، وتكفل الإجابة، سهل على الإنسان الإتصال بخالقه والطلب منه، في كل وقت .

2 – الستر من الله : فالله سبحانه يستر على الإنسان عيوبه وزلاته، ولا يكشفها للآخرين. لقد فتح طريقاً بينه وبين عبده سماه التوبة، فما إن يندم الإنسان على معصيةٍ ويتوب توبةً نصوحاً، ويقول لن أعود، قَبِلَ اللهُ منه توبته، وغفر له ما مضى .

3 – الحسنات المقبولة : وضع تعالى نظاماً لمساعدة الناس، فالحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، والحسنات يُذهبن السيئات. وبذلك فُتحت للإنسان كل أبواب الرحمة والمغفرة، من أجل أن يتحقق الهدف الذي خُلقت من أجله الحياة الدنيوية.

على الصعيد الإجتماعي: تُلحظ فيه العناصر التالية :

الأول : مساعدة الفقراء : والإحسان إلى تلك الطبقة، من أيتام، وأرامل، ومرضى، ومعاقين، وقاصرين كله يصبُّ في مصلحة المجتمع. والدين يشجع على التكافل الإجتماعي بين الناس، إلى درجة أن الإسلام جعل الفقراء الذين يستلمون الصدقات هم أهل العطاء، لأنهم هم الذين يحملون للمُحسِن حسناته يوم القيامة. فإن استطاع الإنسان أن يهب المال إلى المحتاج، فذاك عملٌ صالحٌ تامٌ، وإن لم يستطع وكان بإمكانه أن يُقرِض المال للغير، فعليه بالإقراض. وما الحياة الدنيا إلا قرضاً في يوم، وإقتراضاً في آخر. قرضاً وقت غناك، وإقتراضاً وقت فقرك .

الثاني : عدم الطلب من الناس : فإن كان الإنسان مُحسناً وقت غناه، فذاك الكمال والجمال. أما إذا احتاج إلى غيره فالأولى عدم الطلب من الناس، كما يقول الإمام علي (ع). والأفضل أن يذوق الإنسان مرارة اليأس والحرمان على أن يطلب من الناس شيئاً. لأن الطلب من فتات الناس يذلّ صاحب الحاجة، ويضعه في المرتبة الدنيا. والأفضل من كل ذلك هو

التدبير فيما حازَ أو ملكَ، وإلى ذلك قوله (ع): حفظُ ما في الوعاءِ بشدِّ الوكاء. أي احتفظ بما عندك ودبر أمرك أفضل لك من أن تطلب من الناس ما في أيديهم .

الثالث : حرية الإنسان : خُلِقَ الإنسانُ حراً، فلا ينبغي أن يكون عبداً لمخلوق، هذا هو شعار الإسلام. والعبودية لها أشكال مختلفة، تبدأ من عبودية الرق إلى عبودية العمل إلى عبودية الفقر. وفي جميع الحالات ينبغي على الإنسان كما يقول الإمام (ع) أن يكون حراً: ولا تكُنْ عبدَ غيرك وقد جعلك اللهُ حراً. والعقل يدعو إلى عبودية الخالق عز وجل فقط لأنه أهلٌ لذلك. ويضيفُ الإمام (ع) إلى ذلك، أن يكون مصدر رزق الإنسان متصلاً بالله تعالى بدون واسطة رب عمل، أو مدير، أو رئيس. لأن الرزق مقسومٌ لك ومقدَّر من قبل الرازق عز وجل .

الرابع : العلاقة مع الآخر : يعتبر الإمام (ع) أن الصداقة الحقيقية هي انعكاس للأخوة الإنسانية، بل هي أفضل العلاقات الإجتماعية بين الناس. فلابد من صياغة علاقة مثالية مع آخر يمتاز بالأخوة الصحيحة لك، ويمتاز بالإيمان الصادق بالله. فتلك العلاقة تخضع لموازين الأخوة الحقيقية. فعندئذٍ عليك بمراعاة تلك الصداقة، والبذل في تنميتها، والمحافظة عليها. ومن موازين الصداقة مراعاة الثقة والصدق والمودة، وتلك هي شروطها. فلابد لك أن تتجرع الغيظ من صديقك، فلا تنفلت كلمةٌ جارحة تجاهه. وأن تُبقي لأخيك حبلاً يرجع به إليك إن أراد إعتذاراً، وأن لا ترغب

في صداقة الزاهد في صداقتك. بمعنى إجمالي لابد أن تكون علاقة الصداقة متوازية، حكيمة، وليكن طرفك فيها عقلائياً، صادقاً في تثبيت تلك الأخوة .

منهج العقل في الحياة الدنيوية

ما لخصناه وأوجزناه في الصفحات الماضية، نعرضه بتفصيل في الصفحات القادمة. فلو حللنا المنهج العقلي في حياة الإمام الحسن (ع)، خصوصاً عند تقلده الإمامة بعد استشهاد أبيه (ع)، لوجدنا أن وصية أبيه الإمام علي بن أبي طالب (ع) عند إنصرافه (ع) من صفين إلى الكوفة لعبت دوراً في تحديد المسارين العلمي والعملي في حياته (ع)، حيث أوصاه بوصايا الحكمة والعلم. وكانت وصيته الخالدة، والتي لم تتجاوز جملة واحدة، جامعة مانعة حيث قال: (إنَّ أغنى الغنى العقل)[5]. فجعل العقل أعظم ثروة يستطيع الإنسان أن يتملكها، ويتصرف من خلالها، لأن بها معرفة الخالق عزوجل، وبها حسن تدبير الحياة.

نستخلص من وصيته (ع) منهجاً عقلياً للحياة الدنيوية. فبعد أن يعرض المبادئ العامة للحياة، يقوم بتشخيص مراحل الحياة في الدنيا، فيبدأ بمرحلة التكوين (الفكري)، ثم مرحلة التمرين على الوسائل العقلية، ثم مرحلة مواجهة الحياة. فهناك ثلاث مراحل في حياة الإنسان، نبحثها هنا بتفصيلٍ :

---

[5] معدن الجواهر ورياضة الخواطر ص 42 .

الأولى: مرحلة التكوين.

الثانية: مرحلة التمرين.

الثالثة: مرحلة مواجهة الحياة.

وقبل ذلك نشرح مبادئ الحياة الدنيوية، في ضوء وصية الإمام أمير المؤمنين (ع).

مبادئ الحياة الدنيوية

المبادئ العامة في الحياة على الأرض هي المبادئ التي تكشف طبيعة الإنسان فيما يقاسيه من هموم وأوجاع، وما تعتريه من شهوات وآفات ، وما تواجهه من كوابيس المرض والموت ؛ فما الحياة الدنيا إلا لعب وشغب، وإدبار وإقفال، وشقاء وفناء. تلك هي حقيقتها. أما السعادة والإبتهاج، والغنى بالمال والأولاد، فهي مجرد غشاء وهمي يغطي حقيقتها.

يدعونا الإمام (ع) في وصيته إلى النظر لطبيعة الإنسان، وطبيعة الدنيا من حوله بما فيها من فرحٍ، وحزنٍ، ومشاغل للنفس والبال لن تنتهي أبداً.

1- طبيعة الإنسان في الدنيا :

يشرح الإمام علي (ع) طبيعة الإنسان اليافع الشاب الذي يواجه الحياة وهو لا يعلم مستقبل المصاعب والمشاق التي ستواجهه. فلو افترضنا أن الله سبحانه وتعالى صمم لمعيشة الإنسان على الأرض فترة زمنية قدرها ستة عقود قبل أن يأتيه أجله، لكان العقد الأول مستوعباً لمرحلة التكوين

الفكري والجسدي. في ذلك العقد يتعلم الإنسان مبادئ العلم، ويكتشف طبيعة الأجواء الإجتماعية والفكرية المحيطة به، ثم يتعلم أصول الدين ومبادئ العبادة. وفي العقد الثاني يدخل مرحلة التمرين في كل شيء من العمل إلى العلم إلى الجهاد إلى المصاهرة إلى الأبوة. وما أن يدخل في العقد الثالث من عمره حتى تبدأ مرحلة المواجهة مع الفكر والمجتمع والناس، فيكون حينئذٍ مسلّحاً بالمعارف والخبرات التي تعينه على السير في حياته العملية.

حياة الإنسان على هذه الأرض :

يقول الإمام علي (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع): (... إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لا يُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأَسْقَامِ، ورَهِينَةِ الأَيَّامِ، ورَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وعَبْدِ الدُّنْيَا، وتَاجِرِ الْغُرُورِ، وغَرِيمِ الْمَنَايَا، وأَسِيرِ الْمَوْتِ، وحَلِيفِ الْهُمُومِ، وقَرِينِ الأَحْزَانِ، ونُصُبِ الآفَاتِ، وصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ) [6].

في البداية يضع (ع) للإنسان عموماً ولإبنه الحسن (ع) خصوصاً مجموعة من الصفات التي يختبرها كل فرد في حياته الدنيا، ويوصيه (ع) بأن لا يغفل عنها، بل لابد أن يضعها نصب عينيه في مراحل حياته، حتى يفهم طبيعة التجارب التي يمرُّ بها، وهي :

---

[6] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37 – 57.

الأولى : الأملُ الذي لا يُدرَك : فالإنسان في طبيعة نشأته، وفي مقتبل حياته يكونُ محمّلاً بالآمال والطموحات، ويتصور أن بإمكانه تحقيق الكثير من الأهداف التي يسعى لتحقيقها، ولكن الآمال شيء وتحقيقها في الواقع شيء آخر. وما أن يتقدم الإنسان في العمر حتى تتبين له حقيقة الحياة، فليس كلُ أملٍ يمكن تحقيقه، وليس كلُ رغبةٍ يمكن الوصول إليها، وربما سارت الأمور إلى وجهة لم يخطط لها الإنسان، بل لم تكن تلك من طموحاته. فالحياة تسيرُ به أحياناً إلى مناحي لا يريدها لنفسه .

الثانية : السيرُ إلى الأمر المحتوم : الأمر المحتوم هو الهلاك، والفناء. فكلٌ منا يسيرُ بهذا الإتجاه، إلا أن المرء وفي فوران شبابه لا يتخيل أنه سائرٌ إلى فناء، حتى لو فكر به فهو لا يستوعبه، إلى أن تصل لحظة الموت حينئذٍ يقابل الأمر المحتوم وجهاً لوجه، وفيها يدرك أن الحياة كانت رحلةً عابرةً سريعةً مرت أمام عينيه كلمح البصر، وكأن كل ما جمع في حياته من ثروات إنما ذاهبٌ إلى آخرين، ربما من ذريته أو من أحبائه وربما من أعدائه !

الثالثة : غرضُ الأسقام : أي أن الأمراض أو الأسقام لها هدفٌ واحدٌ وهو الوصول إلى الإنسان لإنزال الألم والموت به. فقد خلق اللهُ سبحانه الإنسانَ من طينٍ ثم من لحمٍ وعظمٍ ودمٍ تنهشه كائنات في منتهى الصغر فتسبب له أسقاماً وأمراضاً لا نهاية لها. وتلك آفةُ الحياة الدنيا تتمثل بأن الإنسان يواجه المرض فيسبب له ألماً ومعاناةً، وفي النهاية يكون عاملاً من عوامل

الموت. فالأمراض هي أحد الوسائل التكوينية المصمَّمة لإفناء الناس .

الرابعة : رهينةُ الأيام : حياتنا رهينةُ الزمن. فالزمن، أو الأيام في اصطلاح الإمام (ع)، هو قيدٌ لا يمكننا الإنفكاك عنه، فنحن محكومون باليوم من ليله حتى نهاره، ومن صباحه حتى مسائه، ولا نستطيع أن نكسر ذلك القيد التكويني الذي قيّدنا الله به. فالإنسان لا يمكنه التحرر من قيود الزمن، فنحن رهائن الأيام، وفي بحر الأيام لنا وظائف وواجبات علينا تأديتها في العبادة والتفكر والعمل الحياتي.

وإذا مرَّ الزمن بدون أداء الأعمال والواجبات، فتلك هي الخسارة الكبرى لأن الإنسان لا يستطيع توقيف عجلة الزمن عن دورانها، أو إرجاعها إلى الخلف كي يؤدي ما فاته من وظائف !

الخامسة : رميَّة المصائب : لا تقتصر قضايا الدنيا على الموت والمرض، بل هناك مصائب تواجه الإنسان في حياته، كالفقر والعوز، وتمرد الأبناء، وتمزق الأرحام، ومشاكل الناس في الغيبة والنميمة والشك، ومشاكل الجنايات والإعتداء والظلم، فتلك كلها مصائب دنيوية تصيب الإنسان في صميم حياته، فتجعلها غصّةً إلى آخر الزمان .

السادسة : العبودية للدنيا : قد تنحرف الحياة بالإنسان فتجعله عبداً من عبيدها، فيمسي إنساناً يكدح في نهاره وربما في ليله من أجل جمع المال وتكديسه، فتنمو عنده غريزة حب المال، وهو لا يعي أن ما يجمعه هو

لغيره، ولا يدري أن أجله قد دنا، ولكن تراكم الثروات في الدنيا تعميه عن رؤية الحقيقة الحتمية التي تواجهه، وهي الفناء .

السابعة : تجارة الغرور : والتجارة في هذه الدنيا على نوعين:
أولهما: تجارةٌ مع الله تعالى، وهي تجارةٌ لن تبور لأنها تجارةٌ باقيةٌ، لا يبليها الدهر، ولا يندم عليها الإنسان. بل يجازى عليها في الحياة الآخرة.
وثانيهما: تجارة الدنيا، وهي تجارةٌ أشبه بسراب الصحراء، لأن منافعها كالسراب الذي يحسبه الضمآنُ ماءً، لكنه سرعان ما يكتشف أنها خدعة بصر، فلا يجد عندئذٍ شيئاً. فقد يجمع الإنسان أرباحاً طائلة في تجارة الدنيا، لكنه ربما لا يتمتع بها بل تذهب إلى من يرثه. لقد بذل فيها جهده، وأحرق مهجته، وصبَّ فيها عرقه، وتحمل حسابها، لكنها في النهاية ذهبت وراثةً إلى من لم يُتعِب نفسه فيها، ولم يشقَ في كسبها، فحصل الثاني على ثمرتها، وتحمّل الأول حسابها. فتلك هي تجارة الغرور .

الثامنة : غريمُ المنايا : معنى الغريم هو الخصم، وغريمُ المنايا هو خصم الموت. ومعنى آخر للغريم هو المَدين العاجز عن دفع دينه، ولنفترض أنه كان مديناً لواجباته الدينية، فهو إنسانٌ اشتغلت ذمته بتبعة الأعمال التي لم يؤدها. إذن غريمُ المنايا هو ليس خصيم الموت فحسب، بل هو من اشتغلت ذمته بديون العباد وربهم سبحانه، فهو لا يريد الاقتراب من الموت، بل هو لا يفكر بالموت إبتداءً. لأن الموت عنده كابوس يتمنى أن لا يرِد أبداً، ففيه انتهاء لعبة الحياة، والبدأ في الحساب والمسآءلة !

التاسعة : أسيرُ الموت : والإنسان وإن كان يفكر دوماً بالبقاء في الحياة الدنيا، إلا أنه مكبّلٌ بحتمية أخرى وهي حتمية الموت، ومجيءُ الأجل، فهو أسيرٌ لمصيره المحتوم، وهو مأسورٌ لحقيقةٍ لا يمكنه الهروب منها. نعم يستطيع أن يشغل باله بأمرٍ جميلٍ يلهو به كي يستطيع أن ينسى الموت، إلا أن ذلك التلهي أو الإشتغال لا يستمر طويلاً. فلحظة الحقيقة تلك قادمةٌ لا محالة .

العاشرة : حليفُ الهموم : تلك الدنيا كثيرة الهموم، فمن همّ طلب الرزق، إلى همّ شفاء المرض، إلى همّ صلاح الأولاد، إلى همّ إحراز المعيشة، إلى همّ التعامل مع الناس، إلى همّ تأدية الواجبات. فالدنيا كلها همومٌ متصلةٌ بعضُها ببعض، فما أن ينتهي همٌّ حتى يأتي همٌّ جديدٌ. هكذا هي الدنيا، والإنسان فيها تتحالفُ عليه الهموم، وهو عاجزٌ عن طردها أو إقصائها عن محيطه !

الحادية عشرة : قرينُ الأحزان : ما يميز الطبيعة الدنيوية هو أحزانها، ففي المرض حزنٌ، وفي قلّة الرزق حزنٌ، وفي عدم التوفيق حزنٌ، وفي الخسارة المالية حزنٌ، وفي عدم تحقيق الأماني حزنٌ، وفي الموت حزنٌ، وهكذا. وحياةٌ بتلك الشاكلة هي قرينةُ الأحزان .

الثانية عشرة : نصبُ الآفات : والآفة هي كل ما يصيبُ شيئاً فيفسده من

عاهة أو مرض أو كارثة. وحياتنا الدنيا هي كذلك كمائنُ موقوتةٌ تصيبُ ما نريد سلامته، وتتلِفُ ما نُريدُ بقاؤه. وكأنما تُنصَبُ لنا الآفات فتفسد علينا حياتنا من أمراض أو عاهات أو خسائر في أعمالنا وثرواتنا .

الثالثة عشرة : صريعُ الشهوات : وطالما امتلك الإنسان الغريزة فقد طغت الشهوة على مقدراته. والشهوات متنوعة بتنوع غاياتها كشهوة حب المال، وحب النساء، وحب التسلط، وحب كثرة الأولاد، ولا تنتهي عند حدٍ. يتصور أغلب الناس بأن اشباع الغريزة لا يتم إلا بجمع المال، حلالاً كان أو حراماً. فالمالُ في الدنيا يجلب متعاً لا تعدُّ ولا تحصى، تُشبع شهوات الناس. ومعنى الصريع هو الهالك، المطروح على الأرض الذي لا حراك فيه. وكذلك صريع الشهوات فهو الذي طرحته الشهوات على الأرض، فلا يفكر إلا في شهواته ونزواته، ويخطط لإشباعها بأي ثمن .

الرابعة عشرة : خليفةُ الأموات : شئنا أم أبينا فنحن خلفاء الأموات، فقد مات آباؤنا وأجدادنا، فخلفناهم في أموالهم وآثارهم. فإن كانوا صالحين خلفناهم في صلاحهم، وإن كانوا غير ذلك خلفناهم فيما نحن فيه، تلك هي طبيعة الدنيا. وأبناءونا وأحفادنا ينتظرون منا أن نرحل حتى يخلفوننا في أموالنا وآثارنا.

وحياةٌ بهذا التصميم جديرٌ بنا أن نلتفت إليها، ولا نعير لها أهميةً بحيث تنسينا الهدف الذي جئنا من أجله إلى هذه الأرض، وتحرمنا من فضل ديننا علينا. فلابد من أخذ تلك النقاط الثمينة بعين الإعتبار كي

نواجه الحياة بالطريقة الصحيحة التي رسمها الله لنا.

الإستنتاج:

وصفَ الإمام علي (ع) لأبنه الحسن (ع) طبيعة الحياة الدنيوية، وأشار عليه أن يفتح عينيه على حقيقتها. فإذا عرف حقيقة الحياة قلَّ إكتراثه بها.

فقال له إنّ حياةً لا تستطيع فيها إنجاز ما كنت تأمل فيه، ولا تستطيع أن تعيش فيها خالداً بل كل ما تجمعه فيها إنما تجمعه لغيرك، وفوق ذلك هناك كائنات متناهية في الصغر لا نراها بأعيننا تهنشنا وتعبث بنظام حياتنا وتدمر أجسادنا، فنصاب بالأمراض وما يتلوها من الآم وأوجاع. وأمرٌ آخر هو أننا رهينةُ الزمن الذي يسير باستمرار ولا نستطيع توقيفه أو التأثير على حركته، في حين تواجهنا المصائب والمصاعب والهموم والآفات في كل لحظة من حياتنا. وما تمنحنا الدنيا إلا الغرور والأمل المزيف بتزويق الشهوات، ومع كل ذلك فإن عمالقة الموت من ملائكة الرحمن ينتظروننا في نهاية الطريق. فكيف نتمتع بحياةٍ من هذا القبيل؟ أليس الأولى بنا أن نعرف حقيقة هذه الحياة قبل أن نغترَّ بها، ونبني بنياننا فيها؟! يفتح الإمام (ع) أعيننا على طبيعة الدنيا، ويذكّرنا بتبعات أعمالنا فيها.

2- طبيعة الدنيا مع الإنسان:

وإذا كان الإنسان المخلوق يواجه تلك الحقائق على هذه الأرض، من ألمٍ، ومرضٍ، وموتٍ، وآمالٍ كاذبةٍ، ومصائبَ متتالية، وهمومٍ، وأحزانٍ، وشهواتٍ خادعةٍ، فكيف نفهم طبيعة الحياة على هذه الأرض. يشير الإمام علي (ع) إلى إن ركائز هذه الدنيا هي ثلاث: الإدبار، والصخب، وامتداد الأصول إلى الفروع.

فيقول (ع): (فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، والاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي. غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وصِدْقٍ لا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، ووَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي) [7].

يشرح (ع) لإبنه الحسن (ع) طبيعة الدنيا في المحاور التالية :

الأول : الإدبار : أي إدبار الدنيا، فقد تُدبِر الدنيا عن الإنسان لسببٍ لا يعرفه، فعندها يصبحُ كلُ شيءٍ مضادّاً له. فإذا كان فاضلاً وصف بالمفضولية، وإذا كان كريماً وُصِفَ بالبخل، وإذا كان شجاعاً وصف بالجبن .

---

[7] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37 – 57 .

ولاشك أن هذا الإدبار من قبل الدنيا هو رحمةٌ بالإنسان العارف بالله، لأنه سوف يتيقن عندها تفاهة الدنيا وانحطاطها، فلا يعير لها أهميةً ولا يُقيم لها وزناً. وقد أدبرت الدنيا عن الكثير من أهل التقى والصلاح. والإمام (ع) يفصِّل في طبيعة الإدبار والإقبال، فيقول (ع) في مناسبة أخرى: (إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه)[8]. ولكن عندما تدبر الدنيا عن أهل المعرفة واليقين فإنها تفتح لهم باباً للآخرة، فيضع العارفُ الآخرةَ نصب عينيه، فيعوضه الله تعالى حلاوةً في التفكر بالآخرة، وزهداً في حب هذه الدنيا .

الثاني : صخب الدنيا : وذلك الصخب يجعل المؤمن بالله جاداً بالإهتمام بحاله. فلا شيء يعوض إهتمام الإنسان بنفسه، خصوصاً عندما يرى ضجيج تلك الحياة، ذلك أن الإهتمام بالنفس يعني ترك النظر إلى أمور الناس من حسدٍ أو غيبةٍ أو ظلمٍ أو عيبٍ من عيوبهم.

والإهتمام بالنفس يعني أيضاً إصلاح عيوبها، وإتمام نواقصها، وتثبيت جديتها أمام الأهوال، وهذا هو المطلوب من الإنسان، أي أن يغنيه إهتمامه بنفسه عن النظر إلى عيوب الناس، أو مطلق قضاياهم. بمعنى ثالث أن اهتمام المرء بالتفتيش عن عيوب نفسه ومحاولة إصلاحها يغنيه عن النظر إلى مساوئ الناس، فيشتغل بإصلاح نفسه أولاً.

---

[8] بحار الأنوار ج 72 ص 357 .

الثالث : إمتداد الفروع والأصول : وهذا جزءٌ من طبيعة الدنيا في تعاملها مع الإنسان، يقول (ع) لابنه وجدتك إمتداداً لرسالتي في الحياة، ووجدتك استمراراً لرسالة السماء، فالحسن (ع) يكمل رسالة أبيه (ع)، وهو في كل الأحوال جزءً منه، وبعضاً منه، لو أصاب الفرع شيئاً أصاب الأصل أيضاً. تلك هي القاعدة في هذه الدنيا : كلُ أبٍ يشعر بأن ذريته هي امتدادٌ له، فالأصول الإنسانية لها امتدادتٌ في الفروع.

مراحل الدنيا

ذكرنا أننا نستطيع صياغة مراحل الدنيا بموجب وصية الإمام علي (ع)، ونحصرها في ثلاث هي: مرحلة التكوين، والتمرين، ومواجهة الحياة. ولكل مرحلة شروطها، وطبيعة التعامل معها.

المرحلة الأولى : مرحلة التكوين

وفيها طبيعة تكوين الإنسان من الناحية الفكرية والذهنية من حيث طلب العلم في الصغر، ومعرفة القرآن الكريم وتعلمه، والإيمان بالله تعالى وبرسوله (ص)، ويمكن عدّها بالمرحلة الإبتدائية. نعرض في هذه المرحلة النقاط التالية :

1 – طلب العلم من الصغر:

أهم فكرة في مرحلة التكوين هو طلب العلم في الصغر، فمساحة الفكر في الصبا كمساحة التربة الخصبة النظيفة الخالية من الأدغال، إن زُرعت فيها نما الزرع الصالح وأثمر.

يقول (ع): (أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، ورَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا، قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى، وفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ، مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، ويَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وتَجْرِبَتَهُ فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ، وعُوفِيتَ مِنْ عِلاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، واسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ)[9].

في هذه المرحلة المبكرة من عمر الإنسان يحدد الإمام (ع) ثلاثة مبادئ :

الأول : نقل المعرفة من الأصول إلى الفروع : فطالما تقدم الإنسان في العمر، وتراكمت لديه المعارف والخبرات، كان لابد له من نقلها إلى الأبناء، فالأصول ينقلون خبراتهم وعلومهم إلى الفروع. وكان (ع) يتعجل

[9] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37-57 .

في نقل المعرفة إلى ابنه (ع) قبل مجيء الأجل، فينقطع ذلك الكم الهائل من العلم عن الجيل الجديد. وتلك سنّة الحياة على الأرض، فلابد أن تُنقل المعارف والخبرات من جيلٍ إلى جيل .

الثاني : قلب اليافع أرضٌ خاليةٌ تقبلُ ما أُلقي فيها : لأن وعاء الذهن يحتاج إلى الإمتلاء بالمعارف في سنٍ مبكرةٍ. وكلما تقدم العمر بالإنسان، كلما قلّت فرص قبول الأفكار دون أن يعترضها عارض فكري أو نفسي، فيقلُّ عندها الإذعان للمسلّمات العقلية. وقسوة القلب في الكبر تمنع الإنسان أحياناً من قبول العلم، ولذلك قال (ع): فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك.

الثالث : التعلم من السابقين من أهل التجارب : والحياةُ على الأرض إنما صُممت بحيث تنتقل المعارف المتراكمة من جيلٍ لآخر. فكلُ ما جهد الجيل القديم في تعلمه أو اكتشافه ينتقل إلى الجيل الجديد دون مؤونة الطلب. فالجيل الجديد يأكل ثمار ما زرعه الجيل القديم من فكر وأدب ومعرفة.

2 - البداية بالقرآن وتعلمه:

وطالما كان الإنسان في صباه صفحةً بيضاء كان أول درس يتعلمه هو الدرس القرآني: كتاب الله المجيد، ففيه قواعد الحياة، ومبادئ الدين، وصفات الخالق، وطبيعة العبادة والتسليم له سبحانه.

يقول (ع): (وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ وتَأْوِيلِهِ، وشَرَائِعِ الإِسْلامِ وأَحْكَامِهِ، وحَلالِهِ وحَرَامِهِ، لا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وآرَائِهِمْ، مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ، عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِكَ إِلَى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ. ورَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ) [10].

ففي هذه الفترة الزمنية من عمر الإنسان، يتعلم فيها الصبي أمرين:

الأول : كتابُ الله المجيد قراءةً وتفسيراً وتأويلاً : وحفظ كتاب الله في تلك السنّ المبكرة أيسر، لأن الصبي في تلك الفترة المبكرة لا يتحمل مسؤولية التكسب، بل أن ذلك من واجبات ولي أمره. فيتفرغ ذهنياً للدرس، وأفضل الدروس هو تعلم القرآن المجيد .

الثاني : شرائع الإسلام وأحكامه : وتلك المقدمات ترسخ في الشخصية اليافعة كما ترسخ الجذور في الأرض، وإذا تم بناء الأساس فإن شبهات الناس، وأهواءهم ستتلاشى أمام ذلك الجدار الصلب القوي من المعارف.

إذن، فكتاب الله تعالى، كما يقول الإمام علي (ع) هو أول ما ينبغي أن يتعلمه الإنسان في باكورة حياته، ثم يتعلم بعد ذلك أحكام الإسلام من الحلال والحرام، والعقائد والأخلاق .

---

[10] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37 – 57 .

3 - الإيمان بالله تعالى وتعلم طاعته:

يشرح (ع) وظيفة الإنسان في تلك المرحلة من حياته، في وقت يتفتح ذهنه وفكره للعالم المحيط به، وما يدور فيه، فيوصيه بالإيمان بالله، ومعرفة صفاته، وطلب طاعته.

يقول (ع): (واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وسُلْطَانِهِ، ولَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وصِفَاتِهِ، ولَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، ولا يَزُولُ أَبَداً ولَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلا أَوَّلِيَّةٍ، وآخِرٌ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلا نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ، فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، والْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، والشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلا بِحَسَنٍ، ولَمْ يَنْهَكَ إِلا عَنْ قَبِيحٍ) [11].

هنا يوصي الإمام (ع) ابنه (ع) بملاحظة واجباته الدينية، وهي :

الأول : الإيمان بالتوحيد : فالله سبحانه واحدٌ لا شريك له، فلابد للإنسان في بداية إدراكه للعالَم المحيط به من الإيمان بوحدانية الله. وما تكرار الشهادتين إلا إقرارٌ بوحدانية الله تعالى، وبنبوة محمد (ص)، فلابد أن يترعرعَ الإيمانُ بالتوحيد معه منذ صغره، ينمو في ذهنه وقلبه كما تنمو خلاياه في

---

[11] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37 – 57 .

جسده .

الثاني : معرفة صفاته تعالى : في ذلك العمر تُبذَر بذور معرفة صفات خالق الوجود كما وصفها هو سبحانه، وكما ذُكرت في القرآن الكريم، وكما وصفها النبي (ص) وأهل بيته (ع) حتى ترسخ تلك الصفات في عقل اليافع وقلبه، فلا تزعزعه لاحقاً أفكار خارجة عن الإطار الذي جاء به كتاب الله .

الثالث : البحث عن طاعة الله تعالى : وطالما كان المخلوقُ ضعيفاً في صغره كان طلبه من الله قوياً، فلو استقام على الطلب من الله في كل مورد، وخاف من عقوبته في البداية، لاستقرت حياته على ذلك المنهج السليم حتى النهاية.

4 - الإيمان بمحمد (ص) وبرسالته:

والإيمان برسول الله محمد بن عبد الله (ص) هو الجزء الثاني من الشهادتين. فبالإقرار بهما يدخل الإنسان دائرة الإسلام، وهي أول مراحل الإيمان.

يقول (ع): (واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ (ص)، فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ) [12].

فبعدَ أن دعاه إلى الإيمان بالله وحده، لا شريك له، يدعوه الآن إلى الإيمان بنبوة محمد (ص)، فلولا صدقه (ص) ما بلغنا من الله تعالى شيٌ من رسالته السماوية الخاتمة. فيقول (ع) له إنك مهما اجتهدت في النظر إلى نبوة رسول الله محمد (ص) لا تصل إلى ما وصلتُ إليه لأنني عشتُ معه كل أحداث النبوة، بل عشتُ معه قبل بعثته وحتى وفاته (ص).

فقد بلّغتُ معه الدين الخاتم، فحاربني مشركي قريش كما حاربوه، وشاركتُ معه في قتال من كفر برسالته فحاربوني كما حاربوه (ص). فكن يا بُنيَّ على يقينٍ بصدق نبوة محمد (ص)، كما أنا على يقين بصدق نبوته (ص) . وباعتبارك ابني ، وقد أتيتَ من بعدي ، فإنك لن تبلغ في النظر لنفسِكَ ، وإن اجتهدتَ ، مبلغَ نظري لكَ . فخذ كلامي فيما قلتُ لك .

المرحلة الثانية: مرحلة التمرين

في هذه المرحلة الوسطية في عمر الإنسان يُوَّجه ذلك اليافع إلى التفقه في دين الله، واللجوء إليه تعالى في المحن، والإخلاص لدينه دوماً، وقراءة التاريخ واستخلاص العبر، وعمارة القلب والعقل. وتلك مرحلة أساسية لبناء الإنسان المتخلق بأخلاق السماء، حيث تتناغم أفعاله العملية

---

[12] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

مع أفكاره وإلزاماته الدينية. وفي هذه المرحلة جملة من الوصايا، منها :

1 – التفقه في الدين واللجوء إليه تعالى :

وبعد إجتياز مرحلة التكوين الفكري يتهيأ الإنسان لمرحلة التمرين على ضبط أصول الدين، ويتعلم الوقوف مع الحق، والتعايش بصبرٍ مع المكروه، واللجوء إلى الله تعالى في كل الأحوال.

يقول (ع): (وخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقّ حَيْثُ كَانَ، وتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، ونِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُرُ فِي الْحَقّ. وأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلّهَا إِلَى إِلَهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، ومَانِعٍ عَزِيزٍ) [13].

في مرحلة التمرين هذه يوصي ابنه (ع) بالتمرن على أربعة أشياء:

الأول : التفقه في الدين : فبعد أن يتم التدبر في فهم القرآن الكريم وحفظه، يبدأ في التفقه، وهو دراسة فقه آيات الأحكام والأحاديث النبوية، وفهم مدلولات أحكام الحلال والحرام، حتى يتجنب الوقوع في الشبهات عندما يغادر مرحلة الصبا ويتقدم به العمر. وفهم الدين والتفقه فيه ينمو مع نمو الإنسان، فإذا ضبط مقدمات العلم في الصغر، تيسر له تطبيق الأوامر والنواهي في الكبر. وإذا فَهِمَ معاني الشريعة السماوية وأحكَمَها في وجدانه، أصبح لا يتصرف في حياته العملية، إلا والحلال والحرام نصبَ

---

[13] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

عينيه.

الثاني : التصبر في الحق : الوقوف مع الحق شيء، والتصبر في الحق شيءٌ آخر. ومعنى التصبر هو تكلّفُ الصبرَ وتحملُهُ. فالإمام (ع) يدعو ابنه (ع) على التصبر في الحق، أي يدعوه أن يقف مع الحق إبتداءً، ثم يستمر في الوقوف مع الحق، ويصبر على ذلك الموقف، ويتحمل حتى لو طال زمن الوقوف إلى ما لا نهاية. وطبيعة الناس عموماً تقتصر على الوقوف مع الحق ساعةً، كأن تتكلم كلمةَ حقٍ أمام ظالم، لكنها لا تتجاوز ذلك الموقف إلا وتقول في نفسها هذه هي المرة الأخيرة التي أقفُ بها مع الحق.

لا يريدُ الإمام علي (ع) من الحسن (ع) ذلك، بل يريدُ منه أن يقف طوال حياته مع الحق، بحيث يوصيه (ع) بصريح العبارة: نعمَ الخُلُقُ التصبرُ في الحق. إذن الوقوف مع الحق والتصبر فيه عند أهل البيت (ع) هو منهجُ حياةٍ يستوعب عمر الإنسان في جميع مراحله، فلا يحيد لحظةً من اللحظات عن مناصرة الحق، ومؤازرة من نادى به .

الثالث : التصبر على المكروه : وهو تعويد النفس على تحمل الصبر على المكروه، وتهذيبها على قبول ذلك. فالنفس الإنسانية تحب الأمر المُيسَّر السهل مثل ليونة السفر، ورغد العيش، وحلاوة المعشر، والخوض مع الخائضين، ومهادنة الظالم. وتكره الإمر الصعب مثل خشونة الجهاد، وقساوة الحياة، وجشب العيش، والوقوف وحيداً ضد الظلم. فالتصبر على

المكروه أمرٌ صعبٌ، لكن الإمام علي (ع) يدعوه لتمرين نفسه على ذلك، والقبول بذلك الأمر كمنهج حياة .

الرابع : اللجوء إلى الله تعالى في كل الأمور: فهو الكهف الحريز، والمانع العزيز. وتمرين النفس على ذلك من أفضل الرياضات في توصيل النفس البشرية إلى بارئها وخالقها. فإذا لجأ الإنسان في جميع مصاعبه ومشاكله إلى الله تعالى وجده سنداً عظيماً يسنده في مواجهة المحن والكوارث التي لا يرى له عوناً فيها إلا الله .

2 – إختيار العلم النافع :

والإختيار الصحيح لعلمٍ نافعٍ هو أكبر مُعينٍ للمرء على فهم دينه، وفهم حياته وما حولها. فإنّ في طلب العلم باباً يُفتح، وفضاءً يلجه الطالب، فيتكيفُ في أجوائه، ويصبحُ جزءً من شخصيته. بمعنى أن الطالب إذا ولج فضاءَ علمٍ معينٍ أصبح حبيساً لذلك العلم، فعليه أن يختار إبتداءً العلم الأنفع الذي يناسبه .

يقول (ع): (وأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ والْحِرْمَانَ، وأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ. وتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، ولا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، واعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، ولا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِــقُّ تَعَلُّمُــهُ) [14].

[14] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

في هذا المقطع يوصيه (ع) بأمرين مهمين هما :

الأول : الإخلاص لله تعالى : فإنه منتهى غاية الطالبين، بيده العطاء والحرمان، يكون عطاؤه لحكمةٍ لا يعرفها الإنسان، وحرمانه يكون لحكمةٍ يجهلها الإنسان أيضاً. كل ذلك بتصميمٍ مسبقٍ، وتدبيرٍ مخطط يصبُّ في النهاية لصالح المخلوق. فالإخلاص للخالق، وإيكال الأمر إليه عزوجل هو مفتاح كل توفيق .

ومن الإخلاص لله، والثقة به هو طلب الخيَرَةَ منه، أي عمل الإستخارة، وهو سؤال الإنسان ربه أن يريه أفضل الطرق التي ينبغي أن يسلكها وقت التحير والتردد. وهذا العمل هو وجهٌ من وجوه الإخلاص له تعالى .

الثاني : إختيار العلم النافع : فمبدأ طلب العلم هو البحث عن منفعةٍ فكريةٍ للإنسان، لأن العلم يفتح له آفاقاً واسعةً في الفهم والتدبير، وإختيار أفضل البدائل. فلابد أن يكون العلمُ نافعاً كي يستفيد المتعلم من الجهد المبذول في تحصيله، وإلا ما فائدة تحصيل العلم الذي لا ينفع الإنسان؟

من هنا كان التركيز على تحديد العلم الذي يطلبه طالب العلم، بكونه علماً نافعاً له ثمرة. فقد يدرس الإنسان علوماً لا تنفع الحياة مثل علوم التنجيم والكهانة والشعوذة. وتلك علومٌ يدينها الدين ولا يعترفُ بها، فيكون نتيجتها ضياع عمر الإنسان وجهده ، كرمادٍ في يومٍ عاصف! فلابد إذن من إختيار العلم النافع في مرحلة التمرين قبل الدخول إلى معترك

الحياة .

3 – قراءة التاريخ واستخلاص العبر :

تؤدي قراءة التاريخ واستيعابه إلى استخلاص العبر، وفهم الطبيعة الإنسانية في الصراع، وفهم دوافع الطمع، وفهم علل حب التسلط على الناس، وعلى مقدراتهم .

يقول (ع) : (أَيْ بُنَيَّ إِنّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، ورَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ، ومُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، ونَفْسٍ صَافِيَةٍ) [15].

هنا يوصيه (ع) بتتبع ثلاثة أمور :

الأول : قراءة التاريخ : فِهمُ التاريخ ودراسته حجرٌ أساسي في بناء شخصية القائد. فالتاريخ مملوءٌ بالأحداث والمنعطفات، مزدحمٌ بالوقائع التي يمكن أن تُلهم القائد الحكيم، أو تجنبه الكوارث التي وقع بها الماضون، أو تدفعه لتفادي الأخطاء التي ارتكبوها واستحقوا اللعنة عليها .

---

[15] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

الثاني : التفكر في أعمال الماضين : وهذا هو الجزء الصحيح من قراءة التاريخ، فالتفكر في أعمال الماضين يعني ملاحظة اخطائهم، وهفواتهم، وقصورهم، وتقصيرهم. كلُ ذلك يمنح الإنسان خبرة نظرية كي لا يقع في أخطاءٍ مشابهةٍ كتلك التي وقعوا فيها. فمن خلال ذلك يعرف: النافعُ من الضار، والصفوُ من الكدر، والصالح من الفاسد. يصوّر الإمام علي (ع) كل ذلك، وكأنه عاش بين تلك الشخصيات التاريخية، وعمّرَ مع أوّلهم وأوسطهم وآخرهم، مستفيداً من تجاربهم، حتى كأنه صار يعيش بينهم في التاريخ السحيق ينظر إليهم نظر القاضي المنصِف الذي يرى الحق فيتبعه، ويرى الباطل فيجتنبه .

الثالث : استخلاص الأفكار والعبر : وتلك ثمرة دراسة التاريخ والاستفادة منها: بالعبر النافعة، والأفكار المستخلَصة، وإصابة الرأي، وتجنب الوقوع في الكوارث. والقرآن الكريم ذكر الكثير من القصص التاريخية لاستخلاص العبر منها، فوضع قاعدة في ذلك. قال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ...)[16]. والقاعدة القرآنية هي النظر إلى سيرة الأمم الماضية في الإيمان والعلم والعدالة، فمنهم من آمن بالله تعالى، ومنهم من كفر! فالإيمان يكون خلاصة للعلم، والكفر يكون أثراً من آثار الجهل !

---

[16] سورة الروم: الآية 42.

ودراسة الماضي بروية وتدبر عملية لابد منها، لأن بها يتم استيعاب معطيات التاريخ، والحكم على الشخصيات المؤثِرة في أحداثها. ومن استفاد من أحداث التاريخ واستلهمها لا يكرر أخطاء التاريخ عليه.

4 – تعمير القلب والعقل بذكر الله تعالى :

وبعد أن يلفت نظره إلى قراءة التاريخ، واستخلاص العبر، وما حلَّ بالماضين من الناس، يدعوه (ع) إلى تعمير القلب بذكر الله، وتذليله بتذكر الموت والفناء .

يقول (ع) : (فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ، إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ، فَإِنّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ أَيْ بُنَيَّ ولُزُومِ أَمْرِهِ، وعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، والإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ. أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، ونَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ) [17].

يكشف الإمام (ع) عن ثلاثة أعمدة لبناء شخصية العارف بالله، من أصحاب اليقين والحكمة ، وهي :

الأول : عمارة القلب بذكر الله : وعمارة القلب بذكر الله تعني أن ذكر الله تعالى يُبنى ويُعمّر حجراً على حجر كما تُبنى البنايات وتُعمّر، فكلما

---

[17] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

ازدادت عمارةُ القلب، بقرآنٍ يُقرأ، أو بصلاةٍ تؤدى، أو بعملِ خيرٍ يعمل، ازداد يقين القلب بالله تعالى. لأن السبب القلبي أو العقلي بين العبد وربه هو أوثق الأسباب وأكملها وأتمها، فعن طريقه يحس العبد الضعيف بقوة المد الذي يمدّه به جبار السموات والأرض .

الثاني : إحياؤه بالزهد واليقين والحكمة : وإذا كان القلبُ يبنى بالعمارة بذكر الله، حجراً على حجر، فإنه يموتُ أيضاً إذا تُرِكَ خَرِباً دون بناء أو إمداد. وتلك المادة التي تمدُّ القلب بالحياة هي: الزهد، واليقين، والحكمة. فالزهد يُحيي القلب لأن قلّة النظر إلى الدنيا ومفاتنها تجعل القلبَ غنياً بالله تعالى. واليقين يحيي القلب لأن القطع برحمة الله وثوابه يجعل القلبَ مشرقاً بنور الله، مليئاً بالأمل بما أعده الله لأهل التقى. والحكمة تحيي القلب، لأن فيها إحياء الصلة والسبب بين الخالق والمخلوق، فالحكمة هي التي تجعلنا أقرب إلى الله تعالى وإلى رحمته. وبتلك العناصر الثلاثة: الزهد، واليقين، والحكمة ينتعش القلب بالإيمان .

الثالث : إذلال القلب بفكرة الموت والفناء والفجائع : يتكبر الإنسان عندما يشعر بأن الدنيا تسير معه بإنسيابٍ في الثروة، والمنزلة الإجتماعية، والسلطة والنفوذ، فيشعر حينئذٍ أنه أرتفع فوق ناموس الطبيعة، لكنه ينسى أن الموت أو الفناء سيصيبه يوماً ما. إلا إنّ عملية إذلال القلب بالموت والفناء تقلّص الفجوة بين الواقع والخيال. فلابد لكل بدايةٍ من نهاية، ولكلِ فرحةٍ من حزن. فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الموت قضية حتمية

تصيبنا جميعاً، فنحن نفنى ولا تبقى لنا إلا آثارنا في الدنيا، وأعمالنا في الآخرة .

والآثار في الدنيا ربما تكون علماً نافعاً نُشر عن طريق مؤمنين، أو كتاباً أخلاقياً كُتب، أو ولداً يستغفر لأبويه. إذن، ذكر الموت واستيعاب الفجائع الدنيوية تهذّبان قلب الإنسان وعقله، وتجعلانه أقرب إليه تعالى. عندها يعيش ذلك المخلوق كياناً مستقلاً عن الرغبات ، مترفعاً عن أدران الدنيا من طمعٍ أو جشعٍ أو عداوةٍ أو تسابقٍ على مغانم دنيوية .

المرحلة الثالثة: مرحلة مواجهة الحياة

مرحلة مواجهة الحياة تتم على صعيدين:

الأول : الصعيد الشخصي: وفيه عدم ركوب الأهوال، وعدم التورط في الشبهات، أو مقدماتها، والاعتصام بالله تعالى .

الثاني : الصعيد الإجتماعي: وفيه حمل أهل الفاقة والفقر ومساعدتهم، فهم الزاد إلى دار المعاد، وحسن التعامل الأخلاقي في المجتمع، وأصول التعامل الإجتماعي مع الناس .

الأول : على الصعيد الشخصي

يتعلم الإنسان الشاب المبادئ والأسس الصحيحة في مواجهته الحياة على الصعيد الشخصي، وذلك أمر أساسي لأنه ينبغي عليه أن يتعلم طبيعة الصراع بين الخير والشر، فعليه أحياناً أن يمسك عن سلوك طريق يؤدي إلى الضلالة أو الخطأ، وفي ذلك القول المأثور عنه (ع):

الكفّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال. وفي شرح ذلك نأتي على خمس عشرة نقطة ، هي :

1 – عدم ركوب الأهوال :

والمقطع التالي من المقاطع المهمة التي تنبأ الإمام (ع) بحدوثها بعد استشهاده، فأوصى أبنه الحسن (ع) بعدم ركوب الأهوال في أجواء محيّرةٍ سوف تأتي، وفيها ضلال الناس، وافتتناهم بمعاوية وعطاياه، فآنذاك سيبيعون دينهم بدنياهم بأبخس الأثمان .

يقول (ع) : (واعْرِضْ عَلَيْهِ [أي على قلبَكَ] أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وعَمَّا انْتَقَلُوا، وأَيْنَ حَلُّوا ونَزَلُوا. فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، ودَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ، والْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ. وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ. وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ ولِسَانِكَ، وبَايِنْ مَـنْ فَعَلَـهُ بِجُهْدِكَ، وجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، ولا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ) [18].

يوصيه (ع) في هذا المقطع بوصايا الحكمة، وكأنه (ع) يعلمُ ما سيحلُ بابنه الحسن (ع) مع معاوية بن أبي سفيان بعد أشهر قليلة من

---

[18] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

استشهاده (ع) الذي وقع يوم 21 رمضان سنة 40 هـ. فهو يوصيه بخمس وصايا لها تأثير هائل على حياته المستقبلية :

الأول : الإعتبار من الماضي : وقد مرَّ ذلك، وهو أن ينظر إلى ما حلَّ من قبله من الأقوام من الأولين، وما حصل في ديارهم وآثارهم. فقد أنزل الله تعالى على بعضهم العذاب، وأحلّ ببعضهم الآخر دار البوار، ورمى آخرين بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول. والنتيجة أنهم أصبحوا في خبر كان، ولم يبقَ إلا ذكرهم في القرآن الكريم. فلتكن في أخبارهم عبرةً وموعظةً تفصح عن أن الله عز وجل قادرٌ على إنزال العقوبة بالمجتمعات والأمم المتمردة، وبالطغاة مهما كانت قوتهم، ومهما كان بأسهم. فليكن في ذلك عبرةً يعتبر منها الناس في قدرة الله على إهلاكهم .

الثاني : عدم بيع الآخرة بالدنيا : يقول (ع) لا تبع آخرتك بدنياك، والمعنى أن متع الدنيا في الرئاسة تغري الإنسان أحياناً بالركون إليها. فالإمام (ع) ينهى ببيع الآخرة بدنيا رخيصة تافهة. وهذا الكلام موجّهٌ إلى الناس عموماً فضلاً عن أن يوجّه إلى الإمام الحسن (ع)، ابنُ فاطمة الزهراء (ع) وحفيدُ رسول الله (ص). وكثيرٌ من الناس من ينشأ نشأةً صالحةً في بداية حياته، لكن سرعان ما تغريه الدنيا فيبيع آخرته من أجل دنياه بأبخس الأثمان .

الثالث : الإمساك عن سلوك طريق مضِلّ : بمعنى التوقف عن سلوك

طريق تخاف ضلالته، أي عليك التوقف فوراً عن سلوكِ طريقٍ يمكن أن يؤدي إلى الإنحراف عن الجادة التي أمرنا الله بها. وبتعبير ثالث إذا إلتبست الأمور على الإنسان وخشى في سلوكه طريقاً خاف أن يكون فيه ضلالة فعليه الإمساك أو التوقف عن سلوك ذلك الطريق تماماً. وقد مرَّ الإمام الحسن (ع) بعد استشهاد أبيه (ع) بتلك التجربة، فقرر الإمساك عن ذاك الطريق، كما سيأتي بإذنه تعالى .

الرابع : الكفُّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال : وهذا المقطع من أهم المقاطع العملية التي واجهت الإمام الحسن (ع) مع معاوية. فوصية أبيه (ع) هنا هو أن يتوقف في نقطة ما عندما يواجه أمراً عظيماً من شيعته، فالكفّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال .

واجه الإمام الحسن (ع) أمراً عظيماً في حربه مع معاوية بعد ستة أشهر من استشهاد الإمام علي بن أبي طالب (ع)، خصوصاً عندما علم بخيانة قادة جيشه لمبادئهم وانحيازهم إلى معسكر معاوية، وعندما شعر بإختلال ميزان الولاء عند جنوده لصالح العدو، عندها قرر عدم ركوب الأهوال، وقرر الهدنة مع الظالم ، تنفيذاً لوصية أبيه (ع) .

الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وبعد أن يأمره بالكف عن ركوب الأهوال، يأمره (ع) أيضاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في الله حق جهاده، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم. هنا تحدث الإمام (ع) عن أمرين منفصلين، لكنهما متوازيين. الأول: عدم ركوب

الأهوال في وقت ضلال الناس. والثاني: الإستمرار في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، والجهاد في سبيل الله .

والأمر الثاني لا ينافي الأمر الأول. وقد تعامل الإمام الحسن (ع) مع غدر معاوية عين ذلك. فقد ترك أهوال الحرب ضده عندما رأى من الناس إنحرافاً عن الإسلام وتباطؤً في الجهاد والقتال، لكنه بقي آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مجاهداً في سبيل الله بلسانه وأفعاله.

2 - عدم التورط في الشبهات :

والشبهات لها مقدمات، فكان من الحكمة أن يجتنب مقدمات الشبهات حتى لا يقع في نتائجها .

يقول (ع) : (واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ، والاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، والأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، والإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا. فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وعُلَقِ الْخُصُومَاتِ) [19].

في هذا المقطع يوصي الإمام (ع) أن يأخذ الحسن (ع) بالقواعد الثلاث التالية :

---

[19] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

الأولى : الأخذ بما عرفتَ : أي العمل بما تعرف أنه مقبول عند الله تعالى كما فرضه عليك، وبما عمله الأولون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك (ع). أي ينبغي على الإنسان تأدية ما علمه أنه واجب، والإبتعاد عما علمه أنه حرام. وحينئذٍ يطبّق ما علمه أنه أمرٌ من الله تعالى، وفي ذلك حجةٌ له لأنه قَطَعَ بأن ما علمه هو واجب. بمعنى آخر أنه لا ينبغي إدخال ما ليس من الدِيْن في الدِيْن .

الثاني : الإمساك عما لم تكلَّف به : وهو عدم إقحام النفس في أمرٍ لم يكلَّف به الإنسان. وأفضل مثال على ذلك هو وصية رسول الله (ص) بالإمامة لأهل البيت (ع) وذكرهم بالأسماء والصفات، فعلى البعض من الناس الإمساك عن إدعاء الإمامة أو التصدي لها، لأنهم ليسوا مكلفين بها. بل هم مكلفون بطاعة أهل البيت (ع) واعلان الولاء لهم. والإمامة بالمعنى الذي ذكرها رسول الله (ص) أمرها صعبٌ مستصعب، بل هي أقرب إلى الإستحالة من أن يتقمصها رجلٌ من عامة الناس.

وفيما يخص الإمام الحسن (ع) فهذه إشارة واضحة إليه أن يمسك عن الخلافة إذا آل الوضع إلى خيانة النخبة من جيشه (ع)، وإلى ركون الناس إلى جهة الظالم الذي يحاربه. فالخلافة لها شروط، وهو مكلّفٌ بها. فإذا انحازت الأغلبية إلى معاوية، وتركت نصرته، فكيف يستطيع الإستمرار بذلك التكليف؟ أما وظيفة الإمامة الشرعية فيستطيع أن يقوم بها دون أن يقوم بمقام الخلافة .

الثالث : عدم التورط في الشبهات : ومعنى الشبهات هو ما اشتبه به بين الحق والباطل. فالإمام (ع) يوصي بأن ينظر الحسن (ع) إلى ما عمل به الأولون من واجبات، والأولون قبل الحسن (ع) هم: رسول الله (ص)، والإمام علي (ع) نفسه. يقول (ع): إذا أردت التعامل مع معاوية، وقد خذلك اتباعك وشيعتك فعليك عدم التورط في الشبهات، وعدم عُلقِ الخصومات أي عدم شتم الخصوم بلسانك. وقد طبّقَ الإمام الحسن (ع) ذلك بحذافيره في صراعه مع معاوية، فهو (ع) لم يتورط في شبهة بل كان واضحاً في سلوكه وموقفه، ولم يشتم عدواً بلسانه .

3 – ترك مقدمة الشبهات :

بعد أن أمره بالاستعانة بالله الواحد الأحد، والتعلق بالرغبة العقلية والقلبية في رسالته السماوية، يتمنى عليه أن يترك الشائبة التي توصل إلى الشبهة .

يقول (ع) : (وابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً. فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ. وإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وفَرَاغِ نَظَرِكَ وفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. ولَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، والإِمْسَــاكُ عَنْ ذَلِكَ

أَمْثَـلُ)[20].

يأمر الإمام (ع) بترك مقدمتين ربما توصلان المرء إلى الشبهة، وهما:

المقدمة الأولى : ترك الشائبة التي توصل إلى الشبهة : والشائبة هي الشيء الغريب الذي يختلطُ بغيره، وقيل أن الشائبة هي الدنس والقذر. يوصيه (ع) أن يترك كل فكرٍ غريبٍ، أو وهمٍ يتعارض مع الدين بحيث يمكن أن يُدخله في شبهةٍ لقضيةٍ من القضايا يختلطُ فيها الحق مع الباطل. وعندما يختلط الفكر الغريب بغيره يصبحُ شبهةً، وتلك الشبهة يمكن أن تؤدي إلى ضلالة. فينهاه (ع) بوضوح بترك كل شائبة تولجه في شبهة، أو تسلمه إلى ضلالة. وترك الشائبة من البداية يعني ترك مقدمات الشبهة. فينبغي بموجب الوصية أن لا يدع الفكر الغريب يختلط بالفكر السليم، وأن لا يدع العمل الغريب المجهول يختلط بالعمل الصحيح الذي أوصى به رسول الله (ص) .

المقدمة الثانية : طالبُ الدِين لا يخبط ولا يخلط : والخبطُ هو التحركُ من دون عقلٍ ولا ضابطٍ، ومنه تخبطَ الطائرُ في الوحل عندما يتمرغ فيه، ولا يقدر على التخلص منه. وخلطَ الكلام: أفسد فيه وهذى، أي تكلّمَ كلاماً متنافراً غير مترابط. فالإمام (ع) يوصيه باتباع سنّة جده المصطفى (ص)،

---

[20] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

وعدم الحيود عنها. فالذي يحيد عن تلك السنّة الشريفة إنما هو يتحرك دون عقل ولا ضابط، ويُفسد في الكلام ويُهذي.

وبالإجمال، فوصيته (ع) في هذا المقطع هو أن يترك كل مقدمة يمكن أن توصله إلى شبهةٍ، شائبةً كانت، أو خبطاً، أو خلطاً. بل لابد أن يتحرك في حياته بمسار العقل، وبما أوصاه جده (ص) بالتمسك بالحق، وعدم الإنحياز إلى غيره تماماً.

4 – الاعتصام بالله تعالى والتبصر بعد الجهل:

الاعتصامُ بالله تعالى من أهم عوامل تحريك البصيرة الداخلية التي تُلهم الإنسان فهم العلم وإدراكه .

يقول (ع) : (فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، واعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إلا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ والابْتِلاءِ والْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا تَعْلَمُ. فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، ومَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، ويَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، ويَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ. فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ ورَزَقَكَ وسَوَّاكَ، ولْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، ومِنْهُ شَفَقَتُكَ) [21].

يفصّل (ع) هنا ثلاث حقائق مهمة في معالجة الجهل بالأمور،

[21] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

وأهمها التبصر بما يكون، والإعتصام بالله تعالى، وطلب العون منه في فهم الأشياء، هذه الحقائق هي :

الأولى : فهم الدور الآلهي في الحياة : يشرح (ع) هنا طبيعة الخلق والخالق، فأهم مكونات الخلق هو الإيجاد والإنشاء، فالله سبحانه وتعالى بيده الموت والحياة، والفناء والنشور، والنعمة والإبتلاء. وكلُّ ذلك بيده تعالى، وليس للإنسان دخلٌ فيه. نعم يأتي الرزق عن طريق سببٍ، فمن يعمل ويجتهد يصيب نصيبه من الرزق، لكن إرادة إعطائه تبقى بيد الله تعالى، يرزق من يشاء من عباده، ويمسك عمن يشاء .

الثانية : التبصر بعد الجهل : يُولد الإنسان جاهلاً بما حوله من معالم وأفكار، حتى يقوم والداه بتعليمه أمور الحياة والعيش في الدنيا، والتعايش مع الآخرين. فأول مرحلة من مراحل نشوء الإنسان هو حالة الجهل بما حوله عندما يولد، ثم تأتي حالة التعلم والإدراك. ولكن حالة التعلم لا تضمن استيعاب العلم بكامله، بل تبقى أغلب موارد العلم في الوجود غامضة للإنسان. فالإمام (ع) يوصيه بالتبصر بما لا يدركه، وطلب العلم فيما لا يعلمه. فنحن، كبشر، في حركة دائمة لاستيعاب العلم، واكتشاف ما يدور من حولنا. فأول طريق لطلب العلم بما حولنا هو الإقرار بالجهل، عندها يتعين علينا التبصر وطلب العلم فيما نجهله .

الثالثة : الاعتصام بالله بعد انكشافِ أمرُ جهلنا : فإذا انكشف جهل

الإنسان حتى بعد طلب العلم، فلابد له أن يعتصم بالله تعالى، ويطلب منه التسديد. فإدراك الأشياء المحيطة بنا وفهمها يحتاج إلى تسديد آلهي. وطلب العلم لوحده لا يكشف لنا أسرار الأشياء، وخفايا الأمور التي نتعامل معها، فلابد من الاعتصام بالله وطلب المعونة منه، لأنه تعالى هو الذي يفتح أبواب العلم الديني والدنيوي وأسراه . وإرادته تعالى تجعل عقولنا تستوعب حقائق الأشياء، وتفهم عللها وأسبابها.

5 - ما بين حال الدنيا وحال الآخرة :

فرقٌ كبيرٌ بين حال الحياة الدنيا وحال الآخرة، فالدنيا تمثُّلُ بحياةٍ قاحلةٍ قاسيةٍ لا رحمة فيها، ينتشر فيها المرض والموت والحزن. بينما حال الآخرة حياة خضراء نضراء خالدة فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولا نهاية لها .

يقول (ع) : (يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وحَالِهَا، وزَوَالِهَا وانْتِقَالِهَا، وأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ ومَا أُعِدَّ لأَهْلِهَا فِيهَا، وضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وتَحْذُوَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً، وجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وخُشُونَةَ السَّفَرِ، وجُشُوبَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، ومَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، ولا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً، ولا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

ومَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ، ولا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا

فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، ويَصِيرُونَ إِلَيْهِ) [22].

يُمثِّل الإمام (ع) رحلة الحياة الدنيوية بسفرة مؤقتة ينتقل فيها الإنسان من موقعٍ إلى آخر، أو من قرية إلى أخرى، فهنا يركز على ثلاثة أمور :

الأول : أحوال الدنيا : صُممت هذه الحياة لتكون محكومة بزمن يمرُّ سريعاً، ولا يتوقف، ولا يتباطأ، بل يستمر بالمضي حثيثاً، وعلى الإنسان فيها أن يقوم بأعماله المطلوبة منه، فإذا تخلَّفَ عنها ضُبطَ التخلفُ في صحيفة أعماله، وحوسب عليه.

فالزمن هو أكثر قيود الدنيا قساوةً، فهو يمرّ حثيثاً دون توقف أو استراحة، فإذا تقاعستَ في أمرٍ واجبٍ عليك، سبقكَ الزمن، وأصبح الأمر المتأخر ثقلاً عليك، وربما دَيْنٌ عليك في صحيفة أعمالك. هكذا هي حال الدنيا .

الثاني : مثلُ المؤمنين : هو مثلُ السفر السريع من قرية قاحلة لا زرع فيها ولا مطر، تهبُّ عليها ريحٌ تشوي الوجوه إلى قريةٍ خضراءٍ، فيها كل ما ترغب فيه النفس، ويرتاح فيها الجسد، وتهدأ فيها الروح. وتلك القرية الجديدة هي القرية الأبدية التي وُعِدَ بها المؤمنون المتقون، وهي الآخرة. فالانتقال من الدنيا إلى الآخرة بالنسبة للمؤمن هو انتقال من قرية قاحلة

---

[22] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

إلى واحة خضراء تحوي كل نعم الحياة .

الثالث : مثلُ غيرُ المؤمنين : وهو مثلُ السفر السريع من قرية خضراء فيها زرع وثمر، ومياهٌ وشجر وهي الدنيا إلى قريةٍ قاحلةٍ لا ماء فيها ولا شجر، طعامها خشن، والعيش فيها مريع. وتلك القرية الجديدة هي القرية الأبدية التي وُعد بها أولئك الذين كفروا بالله العظيم، وعصوا ربهم بكل ما نهاهم عنه .

بكل تلك الأمثلة العملية يحاول الإمام (ع) أن يقرب فكرة مهمة، وهي أن الحياة الدنيا، بمشاكلها وهمومها، وكثرة آلامها لا تستدعي أن يتمسك بها الإنسان. ومن الجنون أن يترك حياةً أبديةً فيها كل لوازم الراحة الأبدية، والطمأنينة الحسية، والقرب من الله تعالى، والخلود ، ويتمسك بحياة ناقصة زائلة هي حياة الدنيا .

6 - الطريق بينك وبين الله تعالى :

الطريقُ بين العبد وربه معبّدٌ بقوى على الإنسان الإستفادة منها، وهي قوة الدعاء من العبد، وقوة الإستجابة من الله، وقوة الستر على العبد من قبل خالقه، وقوة نظام الحسنات الذي يصبُّ لصالح الإنسان .

يقول (ع) : (واعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وتَكَفَّلَ لَكَ بِالإجَابَةِ، وأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، ولَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، ولَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، ولَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، ولَمْ يُعَيِّرْكَ

بِالإِنَابَةِ، ولَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، ولَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، ولَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، ولَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وبَابَ الاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، واسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، واسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وسَعَةِ الأَرْزَاقِ)[23].

في هذا المقطع يشرح الإمام (ع) الطريق بين العبد وربه، ويضع له ثلاث وسائل للتقرب منه تعالى، وسلوك طريقه المستقيم ، وهي :

الأول : منه الإجابة ومنك الدعاء : وطالما أذِنَ الله في الدعاء، وتكفّلَ بالإجابة، وأمر بالسؤال، وتكفل بالعطاء، فما الذي يكبّل الإنسان ويمنعه من الطلب منه عز وجل ؟ فالى متى لا يطلب الإنسان ما يريد من بيده خزائن السموات والأرض ؟

لم تقتصر الرحمة الآلهية على الدعاء فقط، بل فتح لعباده الطريق في الإجابة. فلا حاجب يحجبه عن ربه، ولا ترتيب إداري يحول بينه وبين العبد . والأهم من ذلك أنه فتح طريق التوبة لمن أساء من عباده، ولم يتعجل عقوبة المذنبين، ولم يفضحهم، بل ستر عليهم، وقال لهم توبوا وأنا

[23] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

أتوب عليكم. وجعل ترك الذنب والتوبة إلى الله حسنةً، بل حسب السيئة بواحدة، والحسنة بعشرٍ .

الثاني : منه الستر عليك ومنك الستر على نفسك: فعندما يرتكب الإنسان الذنب، فإن الله لا يفضحه في الدنيا، ولا يحقق معه بارتكاب المعصية، ولا يقل له أنت آيسٌ من رحمتي، بل شجعه على التوبة، وقال أني أتوب على المذنبين أمثالك.

وبالإجمال، فإن الله تعالى فتح طريقاً مباشراً بينه وبين العبد عن طريق الدعاء، والتوبة، وعدم وجود الحاجب، وعدم الانتقام المباشر بل التمهل، وعدم فضيحة المذنب أمام الناس. كل ذلك يسمى ستراً من الله على العبد، برجاء أن يتوب الإنسان من ذنوبه، ويصحح سلوكه مع خالقه تعالى .

الثالث : منه الحسنات ومنك التوبة والإنابة : وتلك أشارة إلى رحمة الله تعالى بعباده. فهو خالقهم وهو بارئهم، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد. فهو يسمع نداءهم عندما ينادونه، ويعلم حاجتهم إذا سألوه، ويستمع إليهم عندما يبثّون همومهم وشكواهم إليه، ويستعينون به في قضاء حوائجهم، خصوصاً في قضايا: الرزق، والعافية، وكشف الكربات.

7 – الدعاء مفتاح خزائن الله تعالى :

الدعاء وسيلة من وسائل فتح الأبواب المغلقة. فهو مفتاح خزائن الرحمة، والحكمة، والرزق. ولكن للدعاء أصول تكشفها وصيته (ع).

يقول (ع) : (ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، واسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، ورُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. ورُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلا تُؤْتَاهُ، وأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، ويُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ. فَالْمَالُ لا يَبْقَــى لَكَ، ولا تَبْقَــى لَهُ) [24].

في هذا المقطع يشرح (ع) مفاتيح الخزائن الآلهية التي منحها الله تعالى للإنسان، فيضعها ضمن الأمور التالية :

الأول : الدعاءُ مفتاح خزائن الله : فطالما أذِنَ الله لك في سؤاله وضَمِنَ الإجابة، فكأنه أعطاك بعضاً من مفاتيح خزائنه في الرزق، والمغفرة، والرحمة، وحسن التوفيق، بل كل ما تحتاجُ إليه في حياتك الدنيوية. وكأن الدعاء أصبح مفتاحاً لك تُفتَح بواسطته الرحمة الآلهية في أي وقتٍ شاء.

---

[24] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

الثاني : تأخير الإجابة لحكمةٍ أو تدبيرٍ : وإن تأخرت الإجابة فهي لحكمةٍ أو تدبيرٍ، فعليك أن لا تقنط من إبطاء الإجابة، لأن في الإبطاء أجرٌ للسائل، وربما سألت الله سؤالاً أو طلباً ليس لك فيه مصلحة، فالله سبحانه إما يصرفه عنك وإما يؤخره للحكمة ذاتها، وأنت لا تعلم ما أستتر عليك من أمور وأشياء. ولربما تطلب شيئاً جميلاً في ظاهره لكن فيه هلاكُ دينك ودنياك إذا أوتيته .

الثالث : الإبتعاد عن المال : وطالما يتحدث الإمام (ع) عن الدعاء ومفاتيح خزائن الله تعالى، فقد يتبادر للإنسان أن الدعاء ينصب على طلب المال من الله تعالى، فيوصيه (ع) بأن يطلب من الله طلباً يكون فيه جمالاً دائماً، لا قضية وهمية كالمال الزائل، فإن المال لا يبقى لك، ولا تبقى له كما يقول (ع). أي فلتكن خزائن الله التي تطلبها بعيدة عن المال، فيمكنك أن تطلب العلم، والدين، والتقوى، والاخلاق، والنصرة، والمغفرة، وهذه كلها لها جمالية باقية عند الذين يفهمون قيمتها وأهميتها .

8 – إنما خُلِقتَ للآخرة لا للدنيا :

خُلِقَ الإنسان بالأصل للآخرة، فهي الحياة الأبدية، وإنما الدنيا هي دارُ إمتحانٍ واختبارٍ، فعلى العاقل التهيؤ للرحيل إلى موطنه الأصلي .

يقول (ع): (واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لا لِلدُّنْيَا، ولِلْفَنَاءِ لا لِلْبَقَاءِ، ولِلْمَوْتِ لا لِلْحَيَاةِ، وأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ ودَارِ بُلْغَةٍ، وطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، ولا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، ولا بُدَّ أَنَّهُ

مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ ذَلِكَ. فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ) [25].

هنا يوصيه (ع) بوصية ينبغي أن تكون منهاج حياة المؤمن، وهي تذكر حقيقة الموت، عبر النقاط التالية :

الأولى : خُلِقنا للفناءِ لا للبقاءِ : يقول (ع) أن موطننا الأصلي هو الحياة الآخرة، فقد خُلقَ أبينا آدم (ع) فيها وكذلك أمنّا حواء (ع)، وما هذه الدنيا إلا سفرٌ مؤقتٌ لنا. فهي ليست موطننا الأصلي. وإنما موطننا الأصلي هو الحياة الآخرة، وفيها نرجع ونبقى. فإذا نظرنا إلى الدنيا فإننا خُلقنا هنا للفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة .

والدنيا دارُ قُلعةٍ يعني دارُ تحولٍ وإرتحالٍ. وهي دارُ بُلغةٍ أي دارُ نهاية ووصول. فإذا كان الأمرُ كذلك فلِمَ هذا التهالك عليها وهي قضية فانية؟! يطاردنا الموتُ فيها في كل لحظة. فهل يُعقل أن يبني الإنسان بيتاً على أمواج متحركة في عرض البحر؟ وهو لا يعلم متى يغرق ومتى ينهار كلُ ما بناه! كذلك الدنيا هي دارُ تحولٍ وإرتحالٍ، ودارُ نهايةٍ ووصولٍ إلى نقطة الإرتحال .

الثانية : طريق الموت : الطريق إلى الآخرة هو طريق الموت، فالإنسان

[25] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57.

يطارده الموت في كل لحظة، ذلك الموت الذي لا ينجو منه أحد، فعليه أن يتهيأ لورود تلك اللحظة الخطيرة، وعليه أن يتوقعها، لا أن يأتيه الموت وهو غافلٌ، وكأن الموت كُتب على غيره !!

الثالثة : التهيؤ للرحيل : والتهيؤ للرحيل يمرُّ بمراحل: أولها: التوبة إليه عز وجل، فإذا تاب الإنسان توبةً نصوحاً، وقال وأبرم: لا أعود، فإن الله يقبل توبته النصوح كما وعد تعالى. وثانيها: إرجاع حقوق الناس إليهم إذا كانت لديه حقوق وقضايا معهم. وثالثها: التهيؤ الذهني أو العقلي لقبول فكرة الموت، ومغادرة الدنيا. فتلك هي الحكمة من تقبل فكرة الموت، فكرة الحنين للرجوع إلى موطننا الأول. وقد قال تعالى: (... وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[26].

9 – أكثر ما يكره الناس : فكرة الموت

نرجع إلى فكرة الموت مرة أخرى، ولكن من زاوية صراع الإنسان على البقاء في الدنيا، والتلذذ بملذاتها، ومحاولة حيازة المنافع له وحده، والتسلط على منافع الآخرين دون رحمة .

يقول (ع) : (يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، ولا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ، وإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلادِ أَهْلِ الدُّنْيَا

[26] سورة العنكبوت : الآية 64 .

إِلَيْهَا، وتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا، ونَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا. فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلابٌ عَاوِيَةٌ، وسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، ويَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، ويَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، ورَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، ولا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، واتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ ولَعِبُوا بِهَا، ونَسُوا مَا وَرَاءَهَا)[27].

في هذا المقطع يؤكد الإمام أمير المؤمنين (ع) على فكرة الموت مرة أخرى، ولكن من زاوية الصراع بين أهل الدنيا، نشرحه ضمن الأمور التالية :

الأول : الإكثار من ذكر الموت : والموت قضية محيّرة للإنسان فهو ينزل به فجأة من دون إنذار، أو حتى من دون إرهاصات ! فماذا يعمل الإنسان لمواجهته ؟ يوصي الإمام (ع) بالإكثار من ذكر الموت، أي جعله حالة عقلية تعيش مع الإنسان في كل لحظة، ويتهيأ لها، ويعدّ نفسه، حتى إذا جاءه الموت لا يفاجئه وهو في حالة عدم الإستعداد للرحيل .

الثاني : عدم الإغترار بإخلاد أهل الدنيا إليها : والناس عموماً تتكالب على منافع الدنيا، وعلى الفوز بملذاتها، وعلى حيازة ثرواتها، وهي لا تفكّر

---

[27] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

بالموت، بل جلَّ تفكيرها هي ملذاتها وزينتها، والتفاخر فيما بينها فيمن يملك أكثر من غيره. يوصي الإمام (ع) بعدم الإغترار بإخلاد أهلها إليها، فكل ما جمعه هؤلاء إنما هو ذاهبٌ إلى غيرهم، فأهل الدنيا يحبون البقاء فيها، بل لو أمكنهم الخلود فيها لفعلوا، لكن الدنيا ليست مكاناً للخلود، ولو كانت مكاناً للخلود لخلد فيها من كان قبلهم من الملوك والجبابرة !

الثالث : الصراع على دنيا زائفة فانية : وحال الدنيا أن سلوك أهلها كسلوك الوحوش الكاسرة، والسباع الضارية تهرُّ بعضها على بعض، ويأكل قويُّها ضعيفها، وتنهش لو استطاعت بعضها البعض. فلا يهذبُّ سلوك الناس في الدنيا إلا الدين وأخلاقه العليا، فهو يرسم لهم صورة الدنيا الفانية، فيشجعهم على التعاون، ومساعدة بعضهم البعض بدل الصراع على ملاذاتها، والتقاتل على غنائمها !

10 - الترفق في الطلب وتقليل الطموح :

وإذا كنا محكومين بزمنٍ يجري بسرعة، ورزقٍ يحدده الله تعالى، فلِمَ لا نحدد طموحاتنا، ونقلل توقعاتنا في هذه الحياة؟ فطموحاتنا وأمنياتنا هي ضربٌ من الخيال .

يقول (ع) : (رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ. واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وإِنْ كَانَ وَاقِفاً، ويَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً، واعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، ولَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ

فِي الطَّلَبِ، وأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، ولَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، ولا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ، وإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ. فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً) [28].

يوصي الإمام (ع) في هذا المقطع بثلاث حقائق :

الأولى : الزمن الحاكم علينا : نعود مرة أخرى إلى الزمن من زاوية جديدة، وهي أننا نعيش في هذه الحياة، ونحن محكومون بالزمن، وكأنه يدفعنا للإسراع بعمل الأشياء، وكأننا نمتطي الليل والنهار على دابة لا نعلمُ إلى أين تسير، وهي تقطع بنا المسافات لكننا نشعر بأننا ماكثين في مكان ثابت. هكذا تدور الدنيا ليلٌ يأتي ويدبر، ثم يأتي نهارٌ ويدبر، ثم يأتي ليلٌ آخر ويدبر، وهكذا دواليك .

فالزمن يدور، والإنسان في الدنيا تابعٌ لحكم الزمن، ومن لم ينجز تكليفه الديني والدنيوي من الزمن المحدّد، يصبحُ مفرِطاً، وبالتالي سيندم على ما فرّط .

الثانية : تقليل مستوى الطموحات الدنيوية : فللإنسان طموحات كبيرة، وأماني عريضة، أغلبها لا يتحقق، فهو يطمح بسلطة عظيمة، وبأسرة متكاملة، وبزوجة مثالية في الجمال والكمال، وبثروة طائلة، وبطمأنينة ليس فيها موت صديقٍ أو حبيبٍ أو قريبٍ. لكن تلك الأماني والطموحات

---

[28] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

تصطدم بواقعٍ مرٍ، فلا هو يقترن بزوجةٍ مثاليةٍ، ولا يحقق ثروة طائلة. وموتُ كل من أحب يُحيط به من كل جانب .

من هنا يوصي الإمام (ع) بتخفيض الطلب، والإجمال في المُكتَسب. أي تقليل الطموحات الدنيوية إلى أدنى حد. فما يتمناه الإنسان في دنياه لا يأتي، وإن أتى لا يكون بالضرورة في مصلحته أو منفعته .

الثالثة : أن الرزق يحدده الله وليس الإنسان : أي إنّ على المرء أن يسعى في الأرض لطلب الرزق، إلا أن ذلك السعي لا يضمن انهمار الثروة عليه، وصدق (ع) عندما قال: ليس كلُ طالبٍ بمرزوق، ولا كلُ مجملٍ بمحروم. أي أن الله تعالى يبعث بالرزق أحياناً لإنسانٍ وهو لا يتوقع رزقاً، ويحجب الرزق عن آخر وهو يتوقع رزقاً واسعاً. ولذلك كان دعاء الإمام (ع) في مناسبة أخرى : (ولا تعنني بطلبِ ما لم تقدّر لي فيه رزقاً)[29]، أي ربِ لا تتعبني في عملٍ لم تقدِر لي فيه رزقاً أتنعم به.

11 - التفكرُ السليم بوابةُ البصيرة :

التأمل، والتفكر، والتدبر من أهم عوامل إحياء بصيرة الإنسان. فالبصيرة، وهي البصر الداخلي الذي يهدي الإنسان إلى الخير، تنير عقل المرءِ وتجعله يقدِّر الأمور تقديراً سليماً فلا تلتبس عليه .

يقول (ع) : (مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، ومَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ

---

[29] مصباح المتهجد ص 109.

تَكُنْ مِنْهُمْ، وبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ. وظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ. إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً والدَّاءُ دَوَاءً، ورُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ)[30].

في هذا المقطع أمور تدخل ضمن بناء شخصية الإنسان الذي يُحسِن تقديرها بمقاديرها، وتلك الأمور هي :

الأول : التفكر يؤدي إلى التبصر : يقول (ع): أن مَنْ أكثرَ الكلام هَذِيَ فيه: (من أكثرَ أهجرَ)، ولكن من تفكر فيما يقوله ووضعه على ميزان الحكمة، فإن بصيرته تنير له العلم، فيكون كلامه نافعاً، مليئاً بالأدب والحكمة. أي أنه (ع) يوصي بأن لا يكثر المرء من الكلام بدون تفكر، بل لابد من ربط الأفكار، والعلل، والتأمل حتى يبصّره الله تعالى بخفايا الحكمة.

الثاني : اصطحاب أهل الخير وتجنب أهل الشر : ويوصيه (ع) بالإختلاط بأهل الخير ومعاشرتهم، وطالما سلك أهل الخير طريق الدين والصدق، فسيكون معهم وكأنه عنصر منهم في نسيجٍ واحدٍ منسجمٌ مع بعضه البعض. وخالِف أهل الشر ولا تختلط بهم، يكفوك مؤونة شرّهم. وقد أقرّت بحوث علم النفس بصحة ما قاله الإمام علي (ع) من كون ارتباط الإنسان بمجتمعه الصغير، خيراً كان أو شراً، يؤثر تأثيراً عظيماً على سلوكه

---

[30] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

ونظرته إلى الحياة. فالمجتمع الصغير يُحاكي فيه الإنسان أقرانه بحيث يصبح مثلهم. ذلك التجمع يعدُّ كالنسيج متناسقٌ في الألوان، والتركيب، والتأثير، والتفاعل .

الثالث : عدم أكل الحرام وعدم الظلم : وطالما حلل الله الرزق، فلماذا يجنح البعض إلى الحرام؟ الجواب هو عدم وجود الوازع الذاتي الذي ينهى الإنسان عن فعل الحرام، فإذا طغت النفس الفاجرة عليه أصبح الشر، والحرام، والظلم من الأمور التي يستسيغها، فلا يؤنبه ضمير ولا يردعه رادع .

عايش الإمام الحسن (ع) في عصره من كان يظلم الضعيف، ويأكل الحرام، ويعمل الشر. أوصاه أبوه (ع) بتجنب التعاطي مع أمثال معاوية وحاشيته في ظلم الناس وأكل الحرام، كما سيأتي بإذنه تعالى .

الرابع : التقدير السليم حتى لا يلتبس الأمر: يوصي (ع) بالتقدير السليم للأمور، فأحياناً تلتبس الأمور بحيث يصبح الدواءُ داءً والداءُ دواءً. وإذا كان الرفقُ خُرقاً كان الخرقُ رفقاً. الرفق هو اللين، والخُرق هو الشدة أو القسوة. بمعنى إذا كان اللينُ قسوةً لا تنفع، فالقسوة التي تنفع تكون كاللين. وبمعنى ثالث أنك إذا تعاملت مع شخص باللين، وكانت نتيجته عكس ما بغيت، حينئذٍ ينبغي أن تتعامل معه بالشدة، فتتحول الشدّة العملية إلى رفق عقلي بتربيته، وتعديل لسلوكه .

12 - التوازن في طبيعة الأشياء :

لاشك أن أفضل الطرق لفهم الحياة وتحمل مسؤوليتها هو تحقيق توازن في طبيعة الأشياء بين الأمنية والحقيقة، والخيال والواقع. فلا يتكل الإنسان على الأماني ، ولا على الخيال .

يقول (ع) : (وإِيَّاكَ والاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى. والْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، ولا كُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ. ومِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ ومَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. ولِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، ورُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ. لا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، ولا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، ولا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ. وإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ) [31].

يضع الإمام (ع) قاعدة في العمل وهي أن يكون الإنسانُ واقعياً لا يعتمد على الأحلام والأماني في حياته العملية. وإن يستخدم عقله في ميزان الأمور، لأن العقل مستودع التجارب، وأن يقنع بالرزق القليل، فلعل بركته أكثر من الرزق الكثير. فهنا أمور :

الأول : عدم الإتكال على الأماني : يوصي (ع) بعدم الإتكال على المُنى فإنها بضائع النُوكى. والنُوكى: الحمقى. أي أن لا يعتمد الإنسان على أمانيه المستندة على الهوى، فإنه ليس كل ما يهواه الإنسان يملكه، ولا كل

---

[31] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

ما يتمناه المرء يدركه. والإتكال على المنُى أو الأماني من صفات الحمقى.

الثاني : العقل مستودعُ التجارب : يذِّكر الإمام (ع) بقاعدة عقلية مدعومة بأمثلة عديدة، وهي أن العقل مخزن التجارب. والعاقل هو من يستفيد من تجاربه السابقة فلا يكرر الخطأ الذي وقع فيه مرة أخرى. والأمثلة التي يضربها هي :

أ – ليس كلُّ من طلبَ شيئاً أصابه: فلربما بذل الإنسان جهداً ومالاً لكنه رجع صفر اليدين لم يحصل على شيء.

ب – الغائب ربما لا يعود: فلا يضع الإنسان في ذهنه حتمية رجوع الغائب إلى بيته. فقد يتعرض لأذىً في الطريق فينهيه، أو قد يحول دون عودته حائلٌ يمنعه من الرجوع. فليس من ضمانٍ في هذه الحياة.

ج – الحكمة في التصرف بما عندك: ومن الفساد إضاعةُ الزاد، فالحياة مثلها مثل المسافر في رحلة يقطعها في صحراء قاحلة، فلابد له أن يحافظ على زاده مهما أمكنه ذلك، لأن تبذير الزاد أو إتلافه بطريقة من الطرق إنما هو الفساد بعينه .

د – كل ما قدّره الله لك ستراه في حياتك: فلا تستطيع الإفلات من هذه القاعدة الحياتية الصارمة، فلا تندم بما فاتك ولا تفرح لما آتاك، لأن كل ذلك مما قدّره الله لك .

الثالث : الخيرُ الكثير في الرزق القليل : لا تقبل الأغلبية من الناس بالقليل من الرزق، بل تطلب من الله الكثير. يوصي الإمام (ع): ربَّ يسيرٍ

أنمى من كثير. فإذا كانت البركة في الرزق القليل، كنتَ أوفر حظاً في الإستمتاع بهذا القليل المبارك، والشكر عليه .

13 - تقلبات الدنيا والإتعاظ بالأدب :

ما ينفع من الدنيا هو ما يصلح مثوى الإنسان، وما يزيده قبولاً عند الله تعالى فرصيده العمل الصالح .

يقول (ع) : (مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، والْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى، إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ. وإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأمُورَ أَشْبَاهٌ. ولا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إلا إِذَا بَالَغْتَ فِي إيلامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ، والْبَهَائِمَ لا تَتَّعِظُ إلا بِالضَّرْبِ) [32].

في مواجهة الحياة الدنيا يشير (ع) إلى ثلاثة أمور.

الأول : الدنيا دائمة التقلب : تُغيّرُ الدنيا ألوانها كما تغيّر الحرباء مظهرها. فإذا كنت غنياً أحاطك الناس ورفعوك فوق مستوى الفضيلة، وإذا انقلبت عليك الدنيا فأصبحت فقيراً هرب الناس منك وأذلّوك. فما أقبح أن تخضعَ للناس في وقت حاجتك، وما أقبح أن يتكبرَ عليك أصدقاؤك وأحباؤك عندما تأخذهم الدنيا إلى مصاف الغنى والجبروت، وترمي بك إلى مصاف الفقر والمهانة !!

---

[32] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

الثاني : رصيدُ الدنيا هو العمل الصالح : لا تندم على ما فاتك من رزقٍ. أو ما فلت من يديك شيء مثل مالٍ أو أحبةٍ، لإنك إن ندمت على ذلك فعليك أن تندم على كل ما لم يصلك في حياتك، وهذا عبثٌ! بل انظر إلى ما رزقك الله من أشياء، وما نزلت بك من مصاعب حاول معالجتها. ثم يقول (ع) : استفد من تجاربك الماضية في الحياة، فإنَّ ما يأتي مشابهٌ لما سبق أن رأيته ، فإن الأمور أشباه .

الثالث : الإتعاظ بالحكمة والأدب : اتعظ بالحوادث والأشياء من أول حصولها، ولا تتوانى فتتضاعف عليك المكاره وتبالغ في إيلامك. ثم يضرب الإمام (ع) مثالاً رائعاً وهو أن العاقل يتعظ بالأدب والموعظة والحكمة، بينما لا يتعظ الحيوان إلا بالضرب، لأنه لا يُدرك بالعقل ما يدركه الإنسان. فضرب الحيوان يحرّك عنده الغريزة فقط ، عندها يتحرك نحو الجهة التي يشعر فيها بالأمان !

14 – بين النفس والناس :

والهموم تحيطُ بإنسان الدنيا من كل طرف. وما يبعدها عنه إلا عزيمة الصبر، وحسن اليقين. فالصبر يخفف محنة الحاضر، وحسنُ اليقين يعطي بريقَ أملٍ للمستقبل .

يقول (ع) : (اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ، وحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ. والصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، والصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ

غَيْبُهُ. والْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى. ورُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ. والْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، ومَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. ومَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، ولا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، ورُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ) [33].

يشير (ع) إلى أربعة أمور مهمة في الحياة :

الأول : عزيمةُ الصبر وحسنُ اليقين : الصبر واليقين هما سلاحُ المؤمن في الحياة. ومهما كانت قسوة الحياة كان الصبر واليقين أمضى عتاد في مواجهة الظلم، والشر، والفقر، والجهل. فالصابر المتيقن بالله يطرد أمراض المجتمع تلك عن نفسه. فبالصبر يصدُّ محاربة الناس له، وباليقين يعلم بأن الله ناصره في كل الحالات فهو يصبر احتساباً لله، آملاً بأن يأتيه الفرج عن قريب .

الثاني : في أحوال الناس : وللناس أحوالٌ ومواقفٌ ينبغي للإنسان أن يعيها بحذرٍ، منها :

أ – الصديق من حفظك في غيبتك: هو الصديق الصدوق الذي لا يتظاهر عليك أمام الناس وأنت غائب. فهذا إنسانٌ صادقٌ معك ومع الله

---

[33] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

تعالى. والإنسان لا يستطيع أن يعيش في المجتمع بدون أصدقاء مخلصين يحفظونه في غيبته، ويعينونه على المحن والمصاعب .

ب – من سيطر الهوى على سلوكه كان كمن فقد بصره : فهذا لا يبصر الحقائق، بل هو أعمى بالبصيرة ، فالهوى شريك العمى. والمقصود من العمى هو عمى البصر فهو لا يرى شيئاً في الخارج، وعندما يسيطر الهوى على الإنسان يكون كمن فقدَ بصيرته الداخلية، فيصبح أعمى البصيرة، لا يهتدي إلى الحق. والنتيجة أن عمى البصيرة هو شريك لعمى البصر. لكن الفرق أن الأول لا يرى الحقيقة الداخلية، والثاني لا يرى الحقيقة الخارجية.

ج – المقياس في الصديق هو الإخلاص لك: ليست القرابة مقياساً لصداقتك، فقد يكون البعيدُ نسباً أصدقُ لك من القريب. ولذلك قال (ع): رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب، وقريبٍ أبعدُ من بعيد. إذن المقياس في الصداقة هو الصدق في التعامل، والإخلاص في النوايا.

د – يحتاج الإنسان في حياته إلى شخصٍ واحدٍ على الأقل كي يكون له أنيساً وحبيباً : ومن لم يرزقه الله ذلك فهو غريبٌ حقاً. لذلك قال (ع): الغريب من لم يكن له حبيب. أي أن الغربة هي الغربة الروحية والعقلية، ولذلك يجد المؤمن المخلص – عندما يفتقد الحبيب – الله عز وجل حبيباً عظيماً يرعاه، ويهتم به، ويسدده في كل مراحل حياته، وهو خالقه العظيم.

الثالث : الإقتصار على ما قُدِّرَ لك : يحاول الإنسان أحياناً أن يتحايل على ما قُدِّرَ له، فيحاول أن يجني المزيد، لكنه لا يعلم أن ما قُدِّرَ له من رزق أو نعمة يصل إليه مهما اختلفت الأسباب وتباينت. وإذا كانت الأمور

كذلك، فإن أوثق سببٍ تأخذ به هو السبب الذي يربطك بالله تعالى، في الطلب ، والدعاء، والشكر ، والإمتنان .

الرابع : ما شذَّ عن القواعد : ومع أن القواعد الإجتماعية لها أسس ومباني وعلل، إلا أن هناك ما يشذُّ عنها أحياناً، ومن ذلك :

أ – الطمعُ قد يُهلك الإنسان: فالطامعُ في شيء قد يفقد حياته في سبيل الوصول إلى ما طمع به، وبالمقابل فإن الآيس الذي اذعن أنه لا يصل إلى مبتغاه يكون أقرب إلى التسليم بمصيره. مثاله مثل الذي أراد أن يتسلق شجرة عالية لجني ثمرة، فهو طامح للوصول إلى قمة الشجرة، لكنه لا يستطيع، فلربما وقع على الأرض وأهلكه الطموح، كذلك الطامع الذي يطمع بشيء هو عاجزٌ عن الوصول إليه، كان لابد له من الإقرار بالعجز.

ب – الفرص لا تُصيب دائماً: يمرُّ الإنسانُ أحياناً بتجاربٍ لا يصيبُ بها فرصته، مثلاً لو كان في مكان مناسب وفي لحظة مناسبة لالتقى بتاجرٍ فتعاقد معه بصفقة مربحة. ولكن ليس كل فرصة تُصاب، فقد يؤخره سبب غير منظور عن لقاء ذلك الرجل، فتضيع عليه الفرصة ولم يحصل على ذلك الرزق.

ج – ربما أخطأ البصيرُ قصده: فالبصير الذي يرى الأشياء بعينه، تخطأ عيناه أحياناً ما هو شاخص أمامه، فيعزف عما رآه حتى لو كان فيه منفعة له. ولذلك قال (ع): ربما أخطأ البصير قصده، وأصاب الأعمى رشده.

15 – أصول التعامل مع الناس والزمان :

أمران صعبان لابد من التعامل معهما في هذه الدنيا، هما: الناس والزمان. فالتعامل مع الناس عموماً هو تعامل التعايش. والقاعدة أنا أحترمُ مساحتك في الحياة بشرط أن تحترمَ مساحتي أيضاً. أما التعامل مع الزمان، فلابد من الحذر لأن الدنيا ليست على وتيرة واحدة. فالزمن، ويُقصد به العصر الذي يعيش فيه البشر يتبدل بتبدل الناس، وتغير مصالحهم.

يقول (ع) : (أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ. وقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، ومَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً وإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ) [34].

يوصي الإمام (ع) بمراعاة أصول التعامل مع الأزمنة أو العصور، وأصول العيش مع الآخرين. فهنا جملة أمور :

الأول : أصول التعامل مع الزمان : يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الزمان بأصول، فمع أنه لا يستطيع الأمان من الزمان، إلا أنه يستطيع تطويع الزمان بشكل محدود لمصلحته. ومن ذلك:

أ – تأخير الشر : والمعنى أن الأولى دفع الشر إلى غدٍ بدل اليوم، كأن

---

[34] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

يتهمك شخص بتهمة معينة، وأنت بريء منها. فتستطيع أن تؤخر آثار تلك التهمة عن طريق عدم مواجهة المتهم أمام الناس. فإنك بذلك أخرّت الشر الذي أراده بك اليوم إلى وقتٍ آخر. وبذلك فقد ساهمت في تخفيف حرارة المواجهة والإصطدام.

ب – قطيعة الجاهل : أفضل الأعمال الإجتماعية للقائد هو مقاطعة الجاهل، فربما أراد منفعتك، ولكن بجهله ربما أضرّك، وأوصلك إلى مواقف أنت لا تريدها. فقطيعة الجاهل تعني التخلص من آثار جهله عليك.

ج – عدم الأمان من الزمان: أي أن الزمان قد يخونك أحياناً فلا تأمنه. وقوله (ع): مَنْ أمِنَ الزمانَ خانَهُ ومن أعظمهُ أهانَهُ، يعني ضع الزمان بموضعه الذي خلقه الله تعالى. فالزمان مثله مثل البحر العميق يخون الإنسان بالغرق. فلا يمكن الأمان من البحر كما لا يمكن الأمان من الزمان، فكلاهما يُغرقان الإنسان. ومن أعظمَ الزمان أي من قال إن هذا الزمانُ زماني وأنا سيدُ القوم، وأنا النجم الأوحد فيه، وقد أعطيتُ فيه ثروة قارون، فلا تستغرب أن يخسف الله به الأرض كما خُسِفَ بقارون، فالزمان يهين الإنسان إذا أمِنهُ .

الثاني : أصول العيش مع الآخرين : هنا مجموعة أصول في العيش مع الآخرين، منها :

أ – ليس كل من رمى أصاب: فالإنسان وبسبب ضعفه التكويني قد لا يصيب الهدف في كل الأحيان، وإن ظنَّ أنه قادرٌ على ذلك. وتلك من سنّة التكوين، فالإنسان خُلِقَ ضعيفاً، محدود القدرات، يصيبُ مرةً ويُخطأ

أخرى. وهذا هو تصميم الخالق في الخلق حتى يعلموا أن هناك خالقاً أعظم منهم وأقدر.

ب – تغير السلطان يعني تغير الزمان: وطالما كان للسلطان إرادة وقوة تنفيذ، فإن تغيره يعني تغير القوانين التي يصدرها، وينفذها من هو تحت إمرته. فلكل سلطانٍ زمان. وإذا كان زمان الإمام علي (ع) محكوماً بالعدل والإنصاف، فإن زمان سلاطين بني أمية كان محكوماً بالظلم والقسوة.

ج – الرفيق قبل الطريق والجار قبل الدار: وهذا يكشف عن أهمية العلاقة الإنسانية، فالإنسان بإخلاقيته أهمّ من الأشياء. ذلك إن الإنسان أهمّ من الطريق ذاته، والجار أهمّ من الدار. لأن العلاقات الإنسانية هي التي تبقى وتؤثر في الإنسان أكثر من علاقته بالمكان ثابتاً كان كما في الجوار، أو متنقلاً كما في الطريق عند سلوك السفر. ولذلك كان الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار.

الثالث : عدم الهزل : يوصي الإمام (ع) بالجدية في مخاطبة الناس خصوصاً في المواعظ الدينية، وعدم الهزل والسخرية من أجل اضحاك الناس، لأن إضحاك الناس على قضية معينة لا يتناسب مع إرشادهم، ولا يتناسب مع مبدأ الترهيب والترغيب المعمول به في تبليغ الرسالة الدينية. وحياة الدنيا كما شرحناها في هذا الفصل تقتضي الجد والتحرز والإرتقاب، ولا ينفع فيها الهزل وعدم المبالاة .

الثاني : على الصعيد الإجتماعي

درسنا فيما سبق طبيعة بناء الإنسان من الداخل ، أي : بناء عقله، وروحه ، ونفسه ، وسجاياه ، وأخلاقه . والآن ندرس مواجهة الحياة على الصعيد الإجتماعي في ضوء وصية الإمام (ع) . فالمواجهة تقتضي أداء حاجات الناس، ومراعاة الفقراء، وعدم فقدان الأخوة والأصدقاء، والشعور بحرية الفكر والإرادة في المجتمع، ووضع ميزان بين حاجات الإنسان الشخصية وحاجات الآخرين الإجتماعية ، فيسعى فيه إلى مساعدة الآخرين، ومراعاة مشاعرهم، وتجرع الغيظ. وفي ذلك نبحث أربع قضايا، هي :

1 - حملُ أهلِ الفاقةِ على عاتقك :

يعيش الفقراء في كل مجتمع إنساني ، ويعانون من فقرهم، فمنهم من يعجز عن أداء العمل، ومنهم من هو قاصر لم تكتمل مهاراته، ومنهم من هو يتيم، أو مريض، أو معاق، أو أرملة. فالإمام (ع) يتحمل مسؤولية إعانة هؤلاء المحرومين، ومد يد المساعدة إليهم .

يقول (ع) : (وإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ. واغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ. واعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، والْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ

قَبْلَ نُزُولِكَ، ووَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، ولا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ) [35].

يحدد (ع) عدّة طرقٍ إنسانيةٍ لمساعدة الناس من الطبقات الفقيرة، عبر وسائل منها :

الأولى : مساعدة أهل الفاقة والعوز: يعكس الإمام علي (ع) المعادلة المألوفة بين الأغنياء والفقراء، ويجعل الفقراء الذين يستلمون الصدقات هم أهل العطاء والمنَّة، لأنك إن أعطيتهم فهم الذين يحملون لك حسناتك يوم القيامة، في وقت تكون بأمسّ الحاجة إلى التفتيش عن أية بادرة إحسان عملتها في حياتك. وإياك أن تفوتك تلك الفرصة، لأنها قد لا تتكرر. فكلما كنتَ قادراً على مساعدة الفقراء في ظرفٍ معينٍ، عليك بمساعدتهم ولا تلتفت إلى من يشير عليك بغير ذلك. فالإحسان إليهم هو من عمل الخير الذي يصبُّ في مصلحتك في كل الأحوال. فلربما تمرُّ في مرحلة من حياتك وأنت تبحث عنهم كي يحملوا حسناتك فلا تجدهم !

الثاني : الإقراض والإقتراض: وطالما كانت الحياة متقلبة فعليك أن تستثمر ثروتك وقت غناك. ففي مرحلة الغنى حاول أن يستفيد أهل الحاجة من ثروتك، فأقرض من استطعت من الفقراء، لأنك لا تعلم مستقبل حياتك فلعل من أقرضته وقت غناك يردَّ لك الجميل وقت فقرك. وهذه حكمةٌ

---

[35] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

تكشف أن الحياة لا تسير على منهج ثابت، فلعل غنى الإنسان وثروته اليوم لا تصمد لغدٍ، فيصبح فقيراً، وعندئذٍ لا يستطيع مساعدة من هم بأشدّ الحاجة للمساعدة .

الثالث : معالجة العقبة الكؤود : يقول له تواجهك غداً عقبة صعبة الإختراق، وهي عقبة السؤال والجواب من قبل الله تعالى، والتحقيق والاستفسار من قبل ملائكة الرحمن تلخصها جملة: من أين لك هذا المال؟ وأين وضعته؟ وهل أديتَ ما كان عليك من حق أو حقوق؟ فالذي أنفق ماله على أهل الحاجة والعوز أصبح مُخفّاً لا يُثقِل وزره تأخيرُ واجب أو ضياعُ حسنة، والمخِفّ أفضلُ حالاً من المُثقل الذي أثقله خزن المال وعدم انفاقه في سبيل الله. فالبخيل الذي جمع مالاً وكنَزَه يكون أكثر الناس تكبيلاً بالذنوب. في ذلك اليوم يتحدد طريق الإنسان كما يقول الإمام (ع)، فالمخفّ يكون طريقه الجنّة، والمُثقِّل يكون طريقه النار .

الرابع : التهيؤ للرحيل إلى الآخرة : يقول (ع) بصيغة الوعظ : احجز لنفسك محلاً قبل وصولك إلى الآخرة، كما لو حجزتَ منزلاً أو سكناً قبل نزولك بمدينة بعيدة أنت مسافرٌ لها. هيئ المنزل المناسب قبل حلولك لذلك المكان الجديد، بمعنى هيئ ذهنك وعقلك للآخرة، وأنت في الدنيا، واعمل واجباتك قبل أن يأتيك الموت وأنت غير مستعد له. فأنت لا تستطيع أن تعاتب نفسك على تقصيرها بعد الموت، ولا تستطيع أن ترجع إلى الحياة لتصحح ما فاتك في حياتك الدنيا .

2 – حرية الحياة :

خلق الله الإنسان، وجعله حراً، كريماً، عاقلاً، يتصرف بما يتطابق مع عقله وضميره. وما أن يكتمل عقله حتى يستطيع أن يدخل مضمار التكليف فيؤمن بالخالق عز وجل، ويعبده، ويطيع أوامره، ونواهيه. فحرية الحياة قضية أساسية في التفكير الإسلامي.

يقول (ع) : (وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً، ومَا خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنَالُ إلا بِشَرٍّ، ويُسْرٍ لا يُنَالُ إلا بِعُسْرٍ، وإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ، وإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلا يَكُونَ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ وآخِذٌ سَهْمَكَ، وإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ) [36].

يحدد (ع) طرقاً في حرية الإنسان في الفكر، والاعتقاد، والسلوك، منها :

الأول : الحرية من عبودية الإنسان : يوصيه (ع) أن لا يكون عبداً لمخلوق، وقد جعله الله حراً في الفكر والإعتقاد والحياة. والطواغيت من البشر يحبون أن يستعبِدوا الناس ويجعلونهم صاغرين لهم من دون الله، والتاريخ مليء بالجبابرة والطواغيت الذين استعبدوا الإنسان، كفرعون، ونمرود، وقارون. فالحكمة الثمينة هنا هي أن لا تكن عبدَ غيركَ وقد جعلك

---

[36] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

اللهُ حراً. والحرية تتجاوز السلوك لتكون منهجاً عقلياً، فالذي يملك عقلاً حراً يرفض أن يكون عبداً لغيره، والعقل يدعو لعبودية الخالق عز وجل فقط لأنه أهلٌ لذلك. ولو أخذ الناس بتلك الحكمة العظيمة وجعلوها قانوناً لما استعبد الإنسان أخيه الإنسان .

الثاني : الرصّ الصحيح لطرق الخير : يقول (ع): وما خيرُ خيرٍ لا ينالُ إلا بشرٍّ، معناه أنه يتسائل (ع) عن فائدة خيرٍ يُنال بطريق ملتوي، ويتسائل عن ماهية هذا الخير الذي لا ينالهُ الإنسان إلا عن طريق الشر؟ فهل هذا فعلاً من الخير؟ والجواب هو النفي بالطبع. هذا هو منطوق قوله (ع)، أما مفهومه فهو أن مقدمة العمل الصالح يجب أن تكون مقدمة صحيحة، فكيف اختلف الأمرُ هنا، وأصبحت المقدمة ملتوية؟ يُجيب (ع) بأنه لا يمكن تبرير الحصول على الخير بفعل مخالف للأصول الدينية. ولا يمكن للإنسان أن يجعل الرذيلة وسيلة من وسائل كسب السعة واليسر، فما فائدة اليسر إذا ابتدأ في مقدمته بالرذيلة ؟

بمعنى آخر يقول الإمام (ع) : أن مقدمات طريق الخير أو الرزق الحلال يجب أن تكون صحيحة بالعقل والشرع، وهو رد غير مباشر على ما أصطلح لاحقاً بنظرية الغاية تبرر الوسيلة. والغاية تبرر الوسيلة هي مقولة لميكافيلي مؤلف كتاب الأمير الذي أدعى فيه بأن أصول حكم الدولة يبرر الإعتداء على حريات الأشخاص، كمصادرة الأملاك، والتجسس عليهم، وإجبارهم على فعل أشياء لصالح الدولة ! لكننا نفهم من قول الإمام علي (ع) أن طريق الخير لا يبدأ من الشر، فلابد أن تكون مقدمة العمل

صحيحة حتى يصح أصل العمل .

الثالث : مطيةُ الطمع تسيرُ بك إلى الهلاك : يحذر الإمام (ع) من الطمع، والطمع هو رغبة الإنسان إلى تحصيل أكثر مما يحتاجه، فلا يشبع بالقليل ولا يرضى بالكثير. والطمع يوصل الإنسان إلى الهلاك، لأن تلك الحالة النفسية في إقتناء المال أو حيازة الأشياء لا نهاية لها . فالإنسان ذو الطمع لا يشبع، فإذا كسبَ واحداً طمع بالإثنين، وإذا كسبَ الإثنين طمع بالأربعة، وهكذا. ولا علاج للطمعِ إلا بالقناعة. ومعنى القناعة هو أن يرضى الإنسان بما قسم الله له من رزق حتى لو كان قليلاً .

الرابع : اجعل طريقك في الرزق مباشرة إلى خالقك : يوصي (ع) بأن يكون أداء العمل وما يتبعه من رزق مرتبطاً بالله تعالى قدر الإمكان، وبدون وسطاء. ذلك لأن أولي النعمة عليك من البشر كمديرك مثلاً يمنُّ عليك بما أعطاك، ويذكرك أحياناً بفقرك وحاجتك. بينما يفتح الله تعالى لك أبواب الرزق، ولا يعيّرك بفقرك، ولا يذكّرك بحاجتك. والرزق، على كل حال، هو مكتوبٌ لك، ومحددٌ من قبل الله تعالى، فاجعل رزقك مع الله بدون وسطاء .

3 – مرارة اليأس خير من الطلب من الناس :

يريدُ الإمام (ع) من الإنسان أن يكون كريماً، عفيفاً، جاداً، محترِفاً، لا يتسول من الناس، ولا يطلب منهم، وهو يضعها بهذا الإطار: مرارةُ اليأسِ خيرٌ من الطلبِ إلى الناس .

يقول (ع) : (وَتَلافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، ومَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، والْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، والْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، ورُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ) [37].

يوصي (ع) بأربعة أمور لها تأثير على علاقتك بالناس، وحسن صلتك بهم ، وهي :

الأول : الصمتُ المنضبط أطوع من النطق المنفلت : يوصيه (ع) بأنك تستطيع أن تنظّم صمتك مع الناس لمصلحتك، فليس كل ما تعرفه تقوله للناس، بل أوزن كلامك بميزان الذهب، واخرج كلامك بالمثاقيل. فإن كان الصمت إيجابياً فذلك لك، وإن كان سلبياً فإنك تستطيع أن تصححه بكلامٍ حكيمٍ آخر. لكنك إذا تكلمت كلاماً فيه نقصاً، فمن الصعب أن تصحح ذلك النقص أو تدرك ما فات من منطقك. وبكلمة فأنت تستطيع أن تتلافى ما فرط من صمتك أكثر مما فات من منطقك .

---

[37] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 –57 .

الثاني : التدبير فيما تملك أفضل من الطلب من غيرك : يدعو (ع) إلى إدارة المال إدارة حكيمة ، ويضرب لذلك مثلاً وهو : حفظُ ما في الوعاءِ بشدِ الوكاءِ. والوكاء هو الخيطُ الذي تُشَدُّ به الصُّرة أو الكيس. أي احتفظ بما عندك ولا تصرفه، ودبّر أمرك، ذلك أفضل لك من أن تصرف ما عندك ثم تطلبَ من الناس ما في أيديهم. وهذا هو التوازن العقلائي بين ما عندك من مال قد وفرته، وبين أن تصرفه فتصبح يدك خالية تضطر إلى طلب ما في أيدي الناس ، وفي الذكر الحكيم : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)[38].

الثالث : عدم الطلب من الناس : فإذا اضطرتكَ الظروف، وأصبحتَ لا تملك شيئاً، فالأفضل أن تذوق مرارة اليأس والحرمان على أن تطلب من الناس شيئاً. لأن الطلب من الناس يذلّك ويخفضك إلى المرتبة الدنيا، خصوصاً وأنت تطلب من أناسٍ يحبون المال فيجمعونه، ويستخدمونه وسيلةً للتباهي وإهانةً للآخرين، وأنت قد ضيعتَ مالكَ هدراً .

الرابع : الحرفةُ مع العفة : لابد للإنسان من حرفةٍ أو مهنةٍ يشتغل بها حتى يستعفف عن طريقها عما في أيدي الناس. والحرفة التي يرافقها عرقٌ، وكدٌّ، وجهدٌ، وتستدر رزقاً متواضعاً خيرٌ من غنىً يكسبه المرء عن طريق

---

[38] سورة الإسراء: الآية 29.

الحرام . وهذا المنحى الاخلاقي للرزق يجعل الإنسان كريماً، محترماً في رزقه، وموقراً في جهده. هكذا يريد الإمام (ع) من الإنسان أن يكون كريماً في حياته، جّاداً في عمله، عفيفاً في رزقه .

4 – في التعامل مع الناس :

التعامل مع الناس أمرٌ صعبٌ، لأن للناس نوايا متباينة، وشخصيات متفاوتة، ولا تستطيع أن تأمنهم إلا أطمأنت نفسك لصديقٍ يكون لك بمثابة الأخ الصادق معك. والإمام (ع) يضع نقاطاً مهمة في العلاقة مع الآخرين:

أ – علاقتك بأخيك

يوصيك (ع) بصياغة العلاقة مع أخيك المؤمن المخلص لك، ويدعوك إلى أن تكون أنت المبادِر في تصحيح تلك العلاقة إذا طرأ عليها خللٌ، أو قطع، أو صدود، أو تباعد، أو شدّة.

يقول (ع) : (احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ والْمُقَارَبَةِ، وعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ) [39].

---

[39] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

هنا وصفٌ لطبيعة العلاقة مع الأخ أو الصديق وقت تغير النفوس، والمشاعر، يلخصها بموردين :

الأول : علاقتك بأخيك المؤمن : يحدد (ع) علاقتك مع إنسان يمتاز معك بميزتين: الأخوة الصحيحة، والإيمان الصادق. فيقول أن العلاقة مع أخيك المؤمن ينبغي أن تكون خاضعة لموازين الأخوة الحقيقية في الحالات التالية :

أ – عند صرمه الصلة: أي عند قطعه الصلة معك، فعليك أن تكون المبادر لصلته، والسؤال عنه، حتى كأنك له عبدٌ، وكأنه ذو نعمةٍ عليك.

ب – عند صدوده على اللطف والمقاربة: أي عندما تحسّ منه نفوراً وصدوداً، وتلحظ تغير منطقه معك، فعليك أن تبدأ بملاطفته والاعتذار منه، والاستفسار إن بدرَ منك ما أساء له .

ج – عند جموده على البذل: وقد كان كريماً سخياً معك، لكنه أصبح يمسك يده عنك، فلابد أن شيئاً قد تغير فيه، فعليك أن تتصرف معه كما أشار (ع) في النقطتين الماضيتين.

د – عند تباعده على الدنو: أي تحس أنه بدأ بالإبتعاد عنك رويداً رويداً، ولا يحاول الإقتراب منك، فعليك أن تتصرف معه بودّية كما أشار (ع).

هـ – عند شدته على اللين: أي عندما تحس على قساوته في التعامل بعد أن كان ليّناً لطيفاً، فعليك أن تتصرف معه بلطفٍ .

و – عند جرمه على العذر: أي عندما يذنب معك فلا يبادر إلى الإعتذار وطلب الصفح، فعليك أن تتصرف معه بالودّ .

الثاني : إياك أن تضع ذلك في غير موضعه : فهو الهلاك ، أي إياك أن تتصرف مع شخص ليست له معك صفتا : الأخوة الحقيقية ، والإيمان الصادق. فإذا تصرفت مع شخص يدعي الصداقة معك، لكنه ليس لك أخاً ولا في طبيعته مؤمناً، فإياك أن تتنازل له، وإياك أن تكون معه ليّناً بتلك الدرجة، فذلك يعدُّ إهانةً لك، وأكبر استغلال لشخصيتك ودورك في المجتمع. فإياك أن تضع تطبيق تلك النقاط في غير موضعها، ففيه هلاك شخصيتك، وتخريب علاقاتك الإجتماعية مع الآخرين.

ب – موازين الصداقة

للصداقة الحقيقية موازين أخلاقية ينبغي أن تراعى كإسداء النصيحة للصديق ، وتجرع الغيظ منه ، وإبقاء الحبل متصلاً مع أخيك حتى لو قطعه.

يقول (ع) : (لا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً، فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ. وامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً. وتَجَرَّعِ الْغَيْظَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، ولا أَلَذَّ مَغَبَّةً، ولِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ. وخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ، فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ. وإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ، فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا. ومَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، ولا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ

وبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ)[40].

يعدد الإمام (ع) موازين الصداقة، ويوصي بأن لا يضيّع الأخ حق أخيه في الأخوة، أو في العلاقة المبدأية. فهنا خمسة أمور نذكرها :

الأول : موازين الصداقة : يذكر (ع) بعضاً من موازين الصداقة، ويخص اثنتين، هما :

أ – عدم اتخاذ عدو صديقك صديقاً : فإنك بذلك تعادي صديقك، وبعض الناس لا يفهم معنى الصداقة، وما الصداقة إلا علاقة تربط مجموعة من الناس على أساس الثقة والمودة والصدق. فكيف يثقُ بك صديقك إذا كنتَ صديقاً لعدوه، هنا يتهدم أحد أركان الصداقة، وهو الثقة. فلربما أوحى لك عدوه بسرٍ، فكيف يستطيع الصديقُ الثقةَ بك وأنت تصادق عدوه !

ب – إصدق أخاك النصيحة: يقول (ع) : وامحَضْ أخاك النصيحة أي إصدقه النصيحة حسنةً كانت أو قبيحةً. إذن فإن من جوهر الصداقة هو الصدق، وإسداء النصيحة الصادقة له، فإذا انتُهكت شروط الصداقة، فقد انتهتْ من بلوغ أهدافها وفشلتْ.

الثاني : تجرع الغيظ من الصديق ومن غيره : والغَيْظُ هو شعورٌ بالغضب الشديد من إساءة يُلحقها بك أحدٌ من الناس. وتجرع الغيظ يعني تحمل

---

[40] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

المكروه الذي أنزله بك الناس، وعدم إظهار الغضب. وتجرع الغيظ هو كظمُهُ، كمن يتجرع الدواء المرّ، أي يتجرعه شيئاً فشيئاً، ورشفةً مُرّةً بعد رشفة. وقد مدح الله المؤمنين الذين يتجرعون الغيظ ويكظمونه، فقال تعالى: (... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ...)[41] ، ومن يُضْرَب به المثل الأعلى في كظم الغيظ من البشر هو الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع).

والسبب أن تجرع الغيظ أو كظمه من الفضائل الاخلاقية هو أن الرجل المُغيَّظ إذا تكلم وقت غيظه فقد يخرج عن حدود اللياقة والعقل والدين، لأنه في أشد حالات الغضب. ولذلك كان كظم الغيظ من الفضائل العظيمة .

الثالث : اللين مع من غالظك : الإنسان العاقل يكون لين العريكة، قليل الغضب والانفعال، فعن طريق اللين يستطيع أن يحقق ما لم تحققه الغلظة والقسوة في الكلمات والمشاعر.

الرابع : أُبقي لأخيك حبلاً يرجع به إليك : فلابد أن تُبقي خطوط المواصلات مفتوحة مع أخيك، وإلا إن قطعتها بصورة تامة، فإنه لا يستطيع أن يرجع إليك إذا وخزه ضميره، وعلِمَ أنه قد أخطأ في حقك .

---

[41] سورة آل عمران : الآية 134 .

الخامس : لا تضيعن حقَّ أخيك : عليك أن تحفظ حق أخيك في علاقة الأخوة والصداقة والمحبة، فإنك إن ضيعت حقه بغضبٍ أو كلامٍ خشن أو شعورٍ معادٍ، فلاشك أنك خسرته. وإذا خسرت صديقاً، فمن الصعب أن تجد من يعوضه، خصوصاً إذا كان مثالاً للصداقة الحقيقية.

ج – أصول العلاقات الإنسانية

يتحرك الإنسان يومياً في غابةٍ من العلاقات الإجتماعية، فبعضها في الدائرة الخاصة به كالأسرة، والأقارب، وبعضها في الدائرة العامة كالأصدقاء، والأخوان، والأعداء. فلابد أن يمتلك المرء نظرية سليمة في التعامل مع جميع الطبقات.

يقول (ع) : (ولا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، ولا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، ولا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ. ولا تَكُونَنَّ عَلَى الإسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإحْسَانِ، ولا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ ونَفْعِكَ. ولَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ. واعْلَمْ يَا بُنَـيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ورِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ) [42].

في هذا المقطع مجموعة أخرى من قوانين الاخلاق الحاكمة على العلاقات الإنسانية ، وفيها :

الأول : أصول العلاقات الإنسانية : هنا مجموعة من المبادئ الأخلاقية،

---

[42] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57 .

نعرضها كما يلي :

أ – كُن ألطف الناس مع أهلك : الأهل هم من تعيلهم أو تعيش معهم، أو تتولى أمورهم في الحياة. إياك أن تكون لطيفاً مع الناس وشقياً مع أهلك. فحتى لو كان المحيط خارج البيت معك قاسياً، كن لطيفاً وحنوناً مع من يعيش معك في البيت. فلك حق الولاية عليهم إن كانوا أبناءك أو زوجتك أو من تعيلهم. وعليك حق برِّهم ورعايتهم إن كانا والديك.

ب – لا ترغب في صداقة الزاهد عنك : فلو زهد شخص في صداقتك، عليك أن تعامله بالمثل، فكيف تستطيع أن تتودد لشخص لا يعترف بك صديقاً ولا أخاً محباً؟ إذن عليك مقابلة الناس بالمثل على هذا الصعيد. فإذا زهد في صداقتك أحد فما عليك إلا الزهد في صداقته. لأن الصداقة علاقة ثقة ومودة من طرفين يحترمُ بعضهما الآخر.

ج – العلاقة المتوازنة : فلا تجعل الحجة عند صديقك أقوى في قطع علاقته بك. ذلك أن الصداقة علاقة متوازية من طرفين، فليكن طرفك عقلائياً، صادقاً في تثبيت الصداقة. لذلك قال (ع): ولا يكوننَّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته. وبمعنى آخر عليك بسدّ جميع منافذ القطيعة التي يمكن أن تبدر من صديقك وذلك بحسن معاملتك معه .

الثانية : طينة الإحسان : فلتكن طينتك الإحسانُ مع الصديق، فلا تسيئ له، بل لتكن صفة الإحسان معه أقوى من صفة الإساءة. والإحسان يقطع

اللسان[43] كما أشار الإمام أمير المؤمنين (ع). لذلك كُن أنت المبادِر أولاً في الإحسان للصديق.

الثالثة : ظلم الظالم يسعى في مضرته : القاعدة أن الظلم عملية خاسرة، فالذي يظلمك ويأخذ حقك إنما يكون ظلمه في النهاية عليه لا عليك، وبالتأكيد يكون ذلك في نفعك لا في نفعه. فإن المظلوم: مستجاب الدعاء، ترقُّ له القلوب، ويكون أقرب إلى الله تعالى من الظالم .

الرابعة : الرزق رزقان : وهذه من حكمه (ع) الشهيرة، فالرزق مقسومٌ لك من الله تعالى، وربما كان من النوع الأول فإنك تطلبه وتسعى فيه. وربما كان من النوع الثاني فهو يطلبك ويبحث عنك. وبالإجمال فإن الرزق مكتوبٌ من الله عز وجل، وما على الإنسان إلا أن يسعى ويدعو الله كي يجد رزقه الموعود.

---

[43] شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين (ع) – ابن ميثم البحراني (ت 699 هـ)، ص 184.

الفصل الثاني

مصاديق المنهج العقلي
في حياة الإمام الحسن (ع)

الحسن (ع) زمن رسول الله (ص). حكمته (ع)
زمن أبيه (ع). حكمته (ع) زمن إمامته.

مقدمة

عاش الحسنُ (ع) عصراً كانت الناس فيه أحوج ما يكون إلى العلم والحكمة والمعرفة. فقد كان المسلمون حديثو عهدٍ بالإسلام، وكان علمهم محدوداً، وطبائعهم القديمة لم تتغير كثيراً بفعل الدين الجديد. فكان لأهل البيت (ع) دوراً كبيراً في إرشاد الناس نحو الطريق. إلا أن ذلك لم يكن بالأمر الهين، فقد كانت بقايا عادات ما قبل الإسلام تتفشى بين الناس. وكانت أموال السياسة الأموية تحاول تخريب نفوس المسلمين. فقام الحسن (ع) جنباً إلى جنب مع أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع) بتربية الناس على العلم والمعرفة والحكمة. في هذا الفصل نحاول دراسة مصاديق المنهج العقلي في حياة الإمام الحسن (ع).

الحسن (ع) في زمن رسول الله (ص)

بدأت تلك المرحلة من ولادة الحسن بن علي (ع) في النصف من شهر رمضان من السنة الثالثة من الهجرة حتى وفاة رسول الله (ص) في الثامن والعشرين من شهر صفر من السنة العاشرة ، أي امتدت أكثر من سبع سنوات. وفيها أظهر رسول الله (ص) حبه للحسن والحسين (ع)، وأشركهما في أحداث كبرى كانت علامة مميَزة لفضلهما ودورهما القادم على المسرح الإسلامي.

عَقُولُ الصبا [44] :

كان الإمام الحسن (ع) في صباه وقوراً عَقُولاً، قد امتلأ قلبه بالحكمة والمعرفة، منحه الله تعالى النضوج المبكر، وأوقفه على حسن التعامل مع الناس. وهكذا كان بقية أئمة أهل البيت (ع) في صباهم، ومن قبلهم الأنبياء والرسل (ع) .

فقد يملأ فيض العلم الآلهي قلب الإمام من آل البيت (ع)، ولا يشتغل بالَهُ إلا بعبادة ربه، ولا يلهو لهوَ الصبيان. وقد ورد إلى ما يشير إلى ذلك في رواية مروية عن الإمام الباقر (ع) عندما سُئل عن علامات الإمام الذي يأتي من بعده من أهل البيت (ع)؟ فأجاب قائلاً: (طهارة المولد، وحسن المنشأ، ولا يلهو ولا يلعب)[45]، فالإمام يُعرَف بطهارة المولد، واستقامة المنشأ، وعدم اللهو، وعدم اللعب من الصبا حتى الممات.

وقد ضرب الله تعالى في كتابه المجيد أمثلةً لمن حازَ تلك الرتبة في العلم والحكمة في طور الصبا، فقد أرسل سبحانه يحيى (ع) بالنبوة صبياً، وتكلّم عيسى (ع) في المهد بعد أن جعله تعالى نبياً، ورفع يوسف (ع) درجاتٍ وهو لا يزال صبياً.

---

[44] العَقُولُ: مبالغةٌ في صفة العاقِل، وهو المُدْرِكُ غاية الإدراك. والجمع: عُقّالٌ، وعُقَلاءُ. والعَقْل: الحِجِر، والنُّهى هو العقل.

[45] الكافي ج 1 ص 311.

وتدلُّ بعض الروايات المروية عن أهل البيت (ع) أن الله تعالى يُلهم المولود منهم (ع) قدرةً على رؤية بعض ما يخفى على العباد، سُمي بعمودِ النور[46]. وقد رأينا مصاديق ذلك في بعض أنبياء الله (عليهم السلام). فهناك قوة روحية مودعة في نفس النبي (ص) أو الإمام من أهل البيت (ع).

نأتي على ذكر قصص ثلاثة أنبياء، في دور الصبا، وهم: يوسف، ويحيى، وعيسى (عليهم السلام) .

الأول : نبي الله يوسف (ع) : قال تعالى على لسان إخوة يوسف (ع): (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون)[47]. ويوسف (ع) أحد أبناء يعقوب (ع) الذي أكرمه الله تعالى بأثني عشر إبناً من أربع زوجات، كان عشر منهم كباراً، عصبة أولوا قوة، وكانت رحى حياته (ع) تدور عليهم، وكان البقية أخوين صغيرين لنفس الأم وهما يوسف (ع) وأخوه. وكان يعقوب (ع) يحبهما حباً شديداً، ويتفرس فيهما آثار الكمال والتقوى. فإقترحوا على أبيهم أن (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[48].

أي إننا ناصحون لك، حافظون له. فإن كنت تخاف عليه من سوءٍ يصيبنا فإننا عصبة أقوياء، وإن كنت تخاف عليه منا، فإنا نعطيك الضمان

---

[46] الحدائق الناضرة ج 5 ص 338.

[47] سورة يوسف: الآية 12.

[48] سورة يوسف: الآية 12.

بالحفاظ عليه. فأعطاهم الإجازة باصطحابه (ع) معهم، وعندما رجعوا، إدعوا أن الذئب قد أكله: (قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ...)[49]. وهي تعني أن يوسف لم يذهب ليلعب معهم، وإنما كان هدف ذهابه معهم هو معاشرتهم ومصاحبتهم. ولذلك قالوا أنهم تركوا يوسف عند متاعهم عندما كانوا يلعبون.

فالواضح أنهم ذهبوا للتسابق، وتركوا يوسف عند متاعهم ورحالهم، لأنهم إبتعدوا عنها، فكان لابد من حافظٍ يبقى لحفظها، فأكله الذئب، كما زعموا ! وهذا يدلُّ على عدم لعب يوسف معهم، وهو صبي. وفي ذلك دلالة على أن المرسّل (ع) لا يلعب لعب اللهو، وإضاعة الوقت، وإن كان صبياً.

أمرٌ آخر وهو أن يوسف (ع) تنبأ في صغره، عن طريق رؤيا رآها في منامه، أن أبويه وأخوتهم قد سجدوا له، وكانت تحيتهم أنذاك السجود، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[50]. قال المفسرون أن السجود هنا هو سجود الشكر لله على لقاء يوسف (ع). وصبيٌّ يقصُّ لوالده تفاصيل رؤياه لابد أن يكون إنساناً مكتمل العقل، لا يميل إلى لهو الصبيان .

---

[49] سورة يوسف: الآية 17.

[50] سورة يوسف: الآية 4.

الثاني : نبي الله يحيى (ع) : أثنى الله عز وجل عليه ثناءً جميلاً، فكان (ع) مصدِّقاً بكلمة الله، أي مصدِّقاً بنبوة عيسى عليه السلام. وكان سيداً، وحصوراً أي لا يأتي النساء، وكان نبياً، ومن الصالحين. مدح الله تعالى بيت زكريا (ع) بقوله: (... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[51]. وكان في ذلك البيت المبارك: يحيى، وأبوه زكريا (ع) ، وأمه .

قال تعالى : (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)[52]. وتفسيره أن الله تعالى أمرَ يحيى (ع) بأخذ الكتاب، بقوة التحقق بما فيه من المعرفة، والعمل بما فيه من أحكام. وآتيناه الحكم صبياً، أي إنا أعطيناه العلم بالمعارف الحقيقية، المخبوءة تحت ستار الغيب، وهو صبي لم يبلغ الحلم بعد.

وفي الرواية عن الإمام الرضا (ع) : " إن الصبيان قالوا ليحيى: إذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خُلِقنا، فأنزل الله تعالى: (... وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) " [53].

وفي رواية ثانية عن الإمام الباقر (ع) قال : (إن الله إحتجَّ في الإمامة بمثل ما إحتجَّ به في النبوة، فقال: (...وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)[54]،

---

[51] سورة الأنبياء: الآية 90.

[52] سورة مريم: الآية 12.

[53] مجمع البيان ج 6 ص 408.

[54] سورة مريم: الآية 12.

و(... حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...)[55]، فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو إبنُ أربعين سنة)[56].

الثالث : نبي الله عيسى (ع) : قوله تعالى بشأن عيسى (ع): (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ)[57]. وهي آية خارقة للعادة، لأنه كلمهم عندما أتت به أمه مريم (ع) بعد ولادته مباشرة، قال تعالى: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)[58]. والظاهر أنه كان يكلمهم، وهو في المهد، كلاماً تاماً يعتني به العقلاء عادة.

وعندما سُئل الإمام الباقر (ع): أكان عيسى بن مريم (ع) حين تكلّم في المهد حجة الله على أهل زمانه ؟ أجاب (ع) : (إن عيسى (ع) كان يومئذٍ نبياً، حجة الله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: (... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)[59].

---

[55] سورة الأحقاف: الآية 15.

[56] الكافي ج 1 ص 384.

[57] سورة آل عمران: الآية 46.

[58] سورة مريم: الآية 27-31.

[59] سورة مريم: الآية 30-31.

قال السائل: أفكان يومئذٍ حجة الله على زكريا (ع) في تلك الحال، وهو في المهد؟ أجاب (ع): كان عيسى (ع) في تلك الحال آية للناس، ورحمة من الله لمريم (ع)، حين تكلّم فعبّر عنها، وكان نبياً حجةً على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضيت له سنتان، وكان زكريا (ع) الحجة لله عز وجل على الناس بعد صمت عيسى (ع) بسنتين، ثم مات زكريا (ع)، فورثه إبنه يحيى (ع) وآتاه الله الكتاب والحكمة وهو صبي صغير، أما تسمع لقوله تعالى : (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)[60].

فلما بلغ عيسى (ع) سبع سنين، تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله تعالى إليه، فكان عيسى (ع) الحجة على يحيى (ع) وعلى الناس أجمعين، و[لا] تبقى الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس، منذ يوم خلق الله آدم (ع) وأسكنه الأرض)[61].

والخلاصة، أنّ النبوة والإمامة لا تخضعان لشروط السنّ، فقد يهبُ الله سبحانه الحكمة لصبي، ويلهمه الإدراك التام لدينه، فيكون حجة لمن سواه من البشر. بل أن القوة المودعة في نفس النبي (ص)، أو الإمام من أهل البيت (ع) تجعل إدراكه أكبر من إدراك الكبير في السن. وقد كانت لنا عبرة في إنبياء الله الثلاثة المذكورة سيرتهم آنفاً. وكذلك لنا عبرة بأئمة

---

[60] سورة مريم: الآية 12.

[61] شرح أصول الكافي ج 6 ص 371. والرواية معتبرة، كما أشار علماء الرجال إلى ذلك .

الهدى كالحسن والحسين (ع). فقد كانوا يحملون ثقل الرسالة ومسؤوليتها، وهم في مراحل الصبا وعمر الورود.

والمتعارف بين العلماء في تفسير رواية: (صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب) هو " لا يلهو أي: لا يغفل عن ذكر الله، ولا يلعب أي: لا يفعل ما لا فائدة فيه، لا في صغره ولا في كبره، وإن صدر منه شيء يشبه ظاهراً فعل الصبيان، ففي الواقع مبنيٌّ على أغراض صحيحة، ولا يغفل عند ذلك عن ذكره سبحانه "[62].

وإذا رجعنا إلى الشخصية العَقُول للإمام الحسن (ع) في بداية حياته نلحظ مقدار ثقة رسول الله (ص) بشخصية حفيده الصبي (ع) حينما قال (ص) شاكراً الله تعالى: (هذا هديةٌ من رب العالمين لي، ينبئ عني، ويُعرّف الناس آثاري، ويحيي سنّتي)[63]. كان الحسن (ع) مصداقاً حقيقياً لتنبؤ رسول الله (ص) فيه عندما قال أن الحسن (ع): (له هيبتي وسؤددي...)[64]. والهيبة هو الإحترام والإجلال، والسؤدد هو الشرف[65]. والشرف والهيبة هما ثمرة من ثمرات استخدام العقل، وانعكاس للباس التقوى في هذه الحياة. ولا يطلق النبي (ص) تلك الصفات إلا على إنسان له من الهيبة والإجلال ما يذعن له الكبار. فيكون الحسن (ع) في صباه وقوراً امتلأ قلبه بالحكمة والمعرفة.

---

[62] مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول (ع) ، ج 3 ص 339.

[63] بحار الأنوار ج 34 ص 333.

[64] أسد الغابة ج 5 ص 467.

[65] لسان العرب مادة: سؤد.

تجارب الصبا :

ومن تجارب الحسن (ع) في صباه إطعامه الطعام مع أبويه، علي (ع)، وفاطمة (ع)، وأخوه الحسين (ع). فباتوا ثلاثة أيام دون أن يأكلوا شيئاً وهم صيام، فنزلت الآية الكريمة: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)[66].

ومن تجاربه (ع) إدخاله مع أبويه (ع) وأخوه الحسين (ع) في مباهلة أسقف نجران، وفيه نزلت الآية الكريمة: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[67]. فباهلَ رسول الله (ص) بأهل بيته (ع)، عندها أذعن أسقف نجران ومن معه على صدق رسول الله (ص)، وصالحوه على ما اتفق بينه وبينهم.

ومن تجاربه (ع) أيضاً دخوله مع أبويه (ع) وأخوه الحسين (ع) مع رسول الله (ص) في الكساء، وهو ما عُرف بأصحاب الكساء الخمسة (ع)، وفيهم ورد قول رسول الله (ص): (اللهمَّ إنَّ هؤلاءِ أهلُ بيتي وخاصَّتي، وحامَّتي، لحمُهُم لحْمِي، ودمُهُم دَمي، يؤلِمني ما يؤلِمهم، ويُحزنني ما يُحزنهم، أنا حربٌ لمن حارَبهم، وسلمٌ لمن سالَمهم، وعدوٌّ لمن

---

[66] سورة الإنسان: الآيات 8 – 10.

[67] سورة آل عمران: الآية 61.

عاداهُم، ومُحبٌّ لمن أحبهم. إنهم منّي وأنا منهم، فاجعل صلواتكَ وبركاتكَ ورحمتكَ وغفرانكَ ورضوانكَ عليَّ وعليهم، وأذهِبْ عنهُم الرجسَ وطهّرهم تطهيراً)[68].

حكمةُ الحسنِ (ع) في زمن أبيه (ع)

انقطعت عنا أخبار الإمام الحسن (ع) من السنة العاشرة بعد وفاة جده رسول الله (ص) وحتى السنة السادسة والثلاثين من الهجرة، حينما تسلّم الإمام علي بن أبي طالب (ع) الخلافة، وإدارة حكم المسلمين. فليس هناك من أخبار تُذكر خلال تلك الفترة الزمنية التي قدّرت بحوالي 26 سنة. وربما يعود السبب في ذلك إلى أن الناس قد يمَّمت وجهها نحو السلطة ومتطلبات السلطان، ولم يبقَ مع أهل البيت (ع) إلا القليل منهم.

ولكن ما أن بدأت فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ع) سنة 36 هـ حتى فتح التاريخ صفحاته من جديد ليسجل ملازمة الحسن (ع) أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع)، فكان يؤدي المهمات التي كان يوكلها إليه (ع).

كان الحسن (ع) وقتها شاباً في مطلع الثلاثينات من عمره. وكان عالِماً بخطورة موقف أبيه (ع) على المسرح الاسلامي، خصوصاً قربه من رسول الله (ص)، لِمَ لا وهو القائل: (إنّ الله تبارك وتعالى علّم رسوله الحرام والحلال، والتنزيل والتأويل، فعلّم رسول الله (ص) عليّاً (ع) علمه

---

[68] منتخب الطريحي ص 253.

كلّه)[69]. وصار علمُ عليٍّ (ع) مصاديقَ عملهِ في الخلافة. ولم يكن أمير المؤمنين (ع) عالماً بأحكام الشريعة ومبادئها فحسب بل كان زاهداً في الدنيا، خاشعاً لله عزّ وجلّ باكياً، وإلى ذلك يشير الحسن (ع) بالقول: (ما دخلتُ على أبي قطّ إلاّ وجدته باكياً)[70].

خلافة الإمام أمير المؤمنين (ع) :

عندما قُتِلَ عثمان بن عفان انثالَ الناسُ على علي بن أبي طالب (ع) وأصرّوا على بيعته حتى وطئ الحسنان وشق عطفاه، كما قال في خطبته الشقشقية، ثم بايعه الناس، فقام بالأمر.

كان الإمام علي (ع) صادقاً حينما قال في أول خطبة له بعد تسنم الخلافة: (معشرَ الناسِ سِلُوني قبلَ أن تَفقِدُوني، هذا سفطُ العلمِ، هذا لعابُ رسولِ اللهِ، هذا ما زقّني رسولُ اللهِ زقاً زقاً، سَلْوني فإنَّ عندي علمُ الأولينَ والآخرينَ...)[71]. وكان ذلك واقع الأمر، فعلمه مستمدٌ من علم رسول الله (ص)، وهو عضده الذي وقف بإخلاص مدافعاً عن رسالة السماء، ومنافحاً عن رسول الله (ص) في جميع المواقف. ولكن لم يكن من المسلمين من كان يدرك أهمية هذا العلم المُستقى من النبي (ص) إلا

---

[69] بصائر الدرجات ص 311 .

[70] تنبيه الخواطر ونزهة المناظر ص 429.

[71] أمالي الشيخ الصدوق ص 422.

القليل. فكان الإمامُ (ع) وحيداً في ساحة علمه يحاول أن يرتقي بالمسلمين إلى مستوى الولوج إلى مدينة علم النبي (ص).

عندها أمرَ ابنه الحسن (ع) بالخطابة، فأوجز الحسن (ع) المطلب بجملة مفيدة لها دلالات عميقة، قائلاً: (أيها الناس سمعتُ جديَ رسولَ اللهِ (ص) يقول: أنا مدينةُ العلمِ، وعليٌّ بابُها، وهل تُدخَلُ المدينةُ إلا من بابِها؟)[72]. طرح (ع) جوهر الموضوع، فأمور الأمة الإسلامية لا يمكن أن تنظّم إلا عن طريق العلم، فإذا كان رسول الله (ص) مدينة العلم، فإن الإمام أمير المؤمنين (ع) وبعلمه الذي تعلّمه منه (ص)، هو الذي يوصل الإنسان المسلم إلى مدخلها الطبيعي. بمعنى أن الوصول إلى المنبع الصحيح لعلم النبي (ص) لا يتم إلا عن طريـق علـم علي بن أبي طالب (ع)، فهو بابُ تلك المدينة المباركة . وتلك دعوة غير مباشرة للإستفادة من علم علي (ع)، وتطبيقه على مناحي الحياة .

الإنابة لصلاة الجمعة :

وكان الحسن (ع) ينوب أباه (ع) كلما طلبَ منه ذلك بخصوص الارشاد، والوعظ، وأداء الصلاة في مسجد الكوفة.

فعندما مرِضَ الإمام أمير المؤمنين (ع) أمر الحسن (ع) أن يصلي بالناس صلاة الجمعة، فصعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه، وفصّل في الثناء والتمجيد لخالق الوجود، ثم قال: (أنّ اللهَ إختارنا لنفسهِ، وإرتضانا

---

[72] المصدر السابق ص 207.

لدينهِ، وأصطفانا على خلقهِ، وأنزلَ علينا وحيهِ، وإنّ اللهَ لم يبعثْ نبيّاً، إلاّ إختارَ لهُ نفساً، ورهطاً، وبيتاً. ونحنُ نفسُ محمّدٍ ورهطُه وأهلُ بيتهِ، فوالذي بعثَ محمّداً بالحقّ، لا ينتقصُ مِنْ حقّنا أهلِ البيتِ (ع) أحدٌ، إلا نقصّهُ اللهُ من حقّهِ مثله، من عاجلِ دنياه وآخرته، ولا يكونُ علينا دولةً، إلا وتكونُ لنا العاقبةُ (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)[73]...)[74].

في هذا المقطع المختصر من خطبة الجمعة نستدل على أن الإمام علي (ع) كان يضع ثقته في الحسن (ع) كي يؤدي واجباً عظيماً في حكم إسلامي بشروطه الشرعية الصحيحة، وهو واجب صلاة الجمعة. نستخلص من خطبته للجمعة تلك مبادئ ثلاثة، هي :

الأول : الإصطفاء الآلهي لأهل البيت (ع) : وهو يعني أن الله عز وجل اصطفى مجموعة من الأتقياء الأطهار الذين لم ولن يعصوا الله أبداً، واختارهم ليكونوا بمنزلة حفظة الرسالة، ومعدن العلم بعد رحيل رسول الله (ص) إلى عالم الخلود. هؤلاء هم أهل بيت النبوة (ع). وهذا الإصطفاء أو الإختيار ليس عشوائياً بل كان لمنازل وكرامة وامتحان امتحنهم الله تعالى فيه، فوجدهم أطهرُ خلقهِ وأصدقهم على الإطلاق .

---

[73] سورة ص: الآية 88.

[74] مروج الذهب ج 2 ص 306 .

الثاني : الملازمة بين النبوة وبين اختيار الرهط والبيت : رَهْطُ الرَّجُلِ: أهلُهُ، وعشيرتُه الأقربون، وهم الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل أنهم دون الأربعين. قال تعالى في كتابه المجيد مشيراً إلى مطلق معنى الرهط: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ...)[75]. قال ابن السكيت: العترةُ هو الرهط. وقال أبو منصور: وإذا قيل بنو فلان رَهْط فلان فهو ذو قرابته الأدنون[76]. وفي الذكر الحكيم فيما يخص قوم هود (ع): (... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ...)[77].

يقول (ع) إن من شروط النبوة هو أن يختار النبي (ص) لنفسه نفساً، ورهطاً، وبيتاً حتى تستمر وظيفة النبوة، ثم يؤكد (ع) بأن أهل البيت (ع) هم نفسه، ورهطه، وبيته (ص). فهم يقومون بدور حماية الرسالة، واستمرارية العلم، وتقديم مصداق عملي للنبوة. هنا ثلاثة تعابير لابد من الوقوف عندها، هي :

أ – النفس : المعروف في كتب التفسير أن علياً (ع) هو نفس محمد (ص)، كما جاء في تفسير قوله تعالى: (... فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ...)[78]. وفي الحديث النبوي الشريف أنه (ص) قال : (أو لأبعثن إليكم رجلاً مني أو كنفسي يضرب

---

75 سورة النمل: الآية 48 .

76 لسان العرب – مادة رهط .

77 سورة هود: الآية 91.

78 سورة آل عمران: الآية 61.

أعناقكم) ، ثم أخذ بيد علي (ع) ، فقال (ص) : (هذا) [79].

ب – رهط النبي (ص): هم الأطهار من أهل بيته (ع) الذين كانوا معه (ص) في حياته، وهم فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين عليهم السلام جميعاً.

ج – أهل بيته (ع): هم أهل البيت الموصوفون في الأحاديث العديدة إبتداءً برسول الله (ص)، وعلي، وفاطمة، وحتى محمد المهدي عليهم السلام جميعاً.

وهؤلاء هم الذين استمروا في حماية رسالة محمد (ص)، ويستمرون في حمايتها إلى يوم القيامة. فهؤلاء هم نفسُ محمدٍ، ورهطه، وأهل بيته (ع).

الثالث : الإنتقاصُ من رهطِ محمدٍ (ص) معصيةٌ تستحق العقوبة : هنا يُقسم الإمام الحسن (ع) قسماً غليظاً بأن من ينتقص من حق رهط محمد (ص) إلا عاقبه الله بإنقاصه بمثل ما انقص من حقهم (ع). وكل من تسلّط عليهم ظلماً وعدواناً، وقلّل من قدرهم (ع)، يعاقبه الله تعالى بإنزال قدره إلى أدنى المستويات ، ورفع قدرهم (ع) أضعافاً مضاعفة . لِمَ لا ورهط محمد (ص) هم حُماة الإسلام والمضحين من أجله، فلابد أن يحميهم الله تعالى من أعدائهم .

---

[79] مجمع الزوائد ج 9 ص 163 .

في صفات الله عز وجل :

في مناسبة ثانية قام الحسن (ع) في تلك الفترة للخطابة في مسجد الكوفة بإشارة من والده (ع) أيضاً، فقال (ع): (الحَمدُ للهِ الذي مَنْ تَكلمَّ سَمِعَ كلامَهُ، ومنْ سكتَ عَلِمَ ما في نفسِهِ، ومنْ عاشَ فعليهِ رزقَهُ، ومنْ ماتَ فإليهِ معادَهُ. والحمدُ للهِ الواحدُ بغيرِ تشبيهٍ، الدائمُ بغيرِ تكوينٍ، القائمُ بغيرِ كلفةٍ، الخالقُ بغيرِ منصبةٍ، الموصوفُ بغيرِ غايةٍ، المعروفُ بغيرِ محدوديّةٍ، العزيزُ لمْ يزلْ قديماً في القدمِ، وعنتْ القلوبُ لهيبتِهِ، وذهلتْ العقولُ لعزّتهِ، وخضعتْ الرقابُ لقدرتِهِ، فليسَ يخطرُ على قلبِ بشرٍ مبلغَ جبروتِهِ، ولا يبلغَ الناسُ كُنْهَ جلالَهُ، ولا يفصَحُ الواصلونَ منهُمُ لكُنْهِ عَظمتهِ. ولا تبلغُهُ العلماءُ بألبابِها، ولا أهلُ التفكيرِ بتدبيرِ أمورِها. أعلمُ خلقهِ بهِ الذي بالحدِّ لا يصفُهُ. يُدرِكُ الأبصارَ، ولا تُدركُه الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبيرُ، أمّا بعدُ فإنَّ القبورَ محلّتُنا، والقيامةَ موعدُنا، واللهَ عارضُنا، وإن عليّاً بابٌ من دَخَلَهُ كانَ آمناً، ومنْ خرجَ منهُ كانَ كافراً)[80].

في هذا المقطع يعرض الحسن (ع) جانباً من صفات الله عز وجل، ويجملها في أربع صفات، مع خاتمة من نقطتين :

الأولى : علمُ اللهِ بما أضمرَ وبما أعلنَ : يحمدُ اللهَ على عظيم صفاته، وعلى جميل رحمته، فهو تعالى يسمع كلام مخلوقاته فلا تختلط عليه الأصوات، مع أنها تصدح بدعائه، وتطلب منه أموراً متباينة في آنٍ واحدٍ.

---

[80] إقبال الأعمال ج 2 ص 164.

وهو يعلمُ ما في ضمير الصامتين، ويعلمُ رغباتهم دون أن ينطقوا بحرفٍ واحدٍ. ومن عاش في الدنيا قدّر الله له رزقاً، ومن مات رجع إليه تعالى. فهذا النظام العظيم في الخلق والتدبير كله بيد الله تعالى، وتلك هي الربوبية المطلقة، المدبِّرة لشؤون الكائنات من إنسان، وحيوان، ونبات، وكائنات أخرى.

الثانية : الصفات الثبوتية لله تعالى : ثم يكرر الحمد العظيم له سبحانه، ويصفه بأنه واحدٌ لا شبيهَ له ولا نظير، وهو الدائمُ من الأزلِ إلى الأبدِ، بدونِ تشكيلٍ أو تكوينٍ أو تركيبٍ، فهو دائمٌ في أزليته وهو دائمٌ في أبديته.

وهو القائم بأمور الكون والحياة بغير كلفة، أي بغير مشقة. وهو الخالق المدبر القائم بأمور الخلق لا يتعبه شيء، ولا يشقُّ عليه شيء، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. وهو الخالقُ بغيرِ منصبةٍ، أي بغير كدٍّ ولا جهدٍ. وهو الخالق المُنشئ يُخلِقُ الخلقَ بالإرادة الآلهية، فإذا أرادَ تحققتْ إرادته سبحانه وتعالى.

وهو الموصوف بغير غاية أي بلا مدى ولا نهاية. وغايةُ الشيء نهايته، فهو سبحانه وتعالى ليس له نهاية، وليس له بداية، وليس له مدى محدد. وهو المعروف بغير محدودية، أي أن طبيعته سبحانه لا محدوديةَ لها ولا قيودَ تقيّدها، ولا إطاراتٍ تحجّمها، ولا مساحةً تستوعبها. فالمحدودية الضيقة المسيِّجة هي صفة أقرب لصفة المخلوق، والله تعالى منزهٌ عن ذلك. فهو المعروفُ بغير محدودية، وهو العزيزُ الذي لم يزل قديماً في

القدم. فلا حدَّ له في الماضي، ولا حدَّ له في المستقبل، بل هو أزليٌّ أبديٌّ سبحانه وتعالى.

الثالثة : ذهول المخلوق لعظمة خالقه : يقول (ع): عنت القلوب لهيبته، ومعنى عنت في اللغة العربية: من العنو وهو الذل، والخضوع، والإستكانة. فقد ذلّت العقول لهيبته، وجبروته، وبطشه. وفي كتاب الله: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[81] أي خاب سعي كل جبارٍ من المخلوقات وخسر، (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)[82]، هنا ذلّت وجوه المخلوقات، واستسلمت لله الخالق الجبار، وظهرت على تلك المخلوقات الضعيفة آثار الذل والخذلان.

وذهلت العقول لعزّته، فأيُّ عقلٍ يستطيع أن يستوعب عزّة الله وعظمته وجبروته؟! وأيُّ عقلٍ يستطيع أن يدرك عظمة مكوّن الكون والوجود؟! بل خضعت الرقاب لقدرته، وكلها يومئذٍ تحت قانون عدله، وكلها تأمل عفوه ورحمته .

الرابعة : لا تدركه العقول ولا الأبصار : يقول (ع) إن الله عز وجل لا يدركه عقل بشر، ولا يصل إلى تصور كنه طبيعته إدراك مخلوق، ولا يصل الناس إلى إدراك عظمته، ولا يقترب أهل العقول من إدراك جلاله. لا

---

[81] سورة إبراهيم: الآية 15.

[82] سورة طه: الآية 111.

تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير. وأعلمُ الناسِ باللهِ ذاك الذي لا يصفهُ بالحدودِ، ولا يحدده بالأبعادِ .

الخاتمة الأولى : الموت يكشف نهاية الخلق وفناء المخلوقات : ونهاية الخلق أمرٌ حتمي، وبوابته الموت. والموت يعني نهاية الزينة الدنيوية من رفاهٍ وقصورٍ وبيوتٍ، بل يستبدلُ كل ذلك بالقبور. فالقبور هي محلُ سكننا وموطننا الجديد بعد الموت، حتى يأذن الله بيوم الحساب. ويومُ القيامةِ هو موعدنا مع الله سبحانه، ومع الحساب يأتي الثواب والعقاب. تلك مواعيدٌ حاسمةٌ علينا أن نسجلها في تقويمنا الذي نتغافل عنه كل يومٍ، ولا نحسبُ لها حساباً، ولا نقيمَ لها وزناً.

الخاتمة الثانية : الأمان عند من أعطاه اللهُ الأمان : يقول الحسن (ع) إن علياً (ع) هو بابُ مدينة العلم، ومن دخل تلك الباب ووصل إلى مدينة رسول الله (ص)، فقد أصبح آمناً. والمعنى أن علم رسول الله (ص) الذي نقله علي بن أبي طالب (ع) بأمانةٍ وصدقٍ إلى المسلمين جميعاً هو الأمان الذي يحفظ الله به الناس، ومصداقه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ...)[83]. فعلمُ رسول الله (ص) إذا طُبِّق بصدق هو أمانٌ للبشر، وبابُ مدينة العلم هي أمانٌ مستمدٌ من ذلك الأمان.

---

[83] سورة الأنفال: الآية 33.

في طلب الإستسقاء :

وعند احتباس المطر في الكوفة، وشحة مياه نهر الفرات، طلب الإمام أمير المؤمنين (ع) من الحسن (ع) أن يدعو بدعواتٍ في الإستسقاء. والظاهر، أنه طلب منه صلاة الإستسقاء، إلا أن الرواية لا تُفصح عن ذلك، بل تذكر دعاءه فقط. فقام (ع) وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) وعلى آله، ثم قال: (اللهمَّ هيّجْ لنا السحابَ، وفتِّح الأبوابَ بماءٍ عبابٍ وربابٍ، بإنصبابٍ وإسكابٍ. يا وهاب إسقنا مغدقةً مونقةً، فتّح أغلاقَها، ويسّر أطباقَها، وعجّل سياقَها بالأنديةِ في بطونِ الأوديةِ بصوبِ الماءِ. يا فعالُ إسقِنا مطراً قطراً، طلاً مطلاً، مطبقاً طبقاً، عامّاً معمّاً، دُهماً بُهْماً رجماً، رشّاً مرشّاً، واسعاً كافياً عاجلاً طيّباً مباركاً، سلاطحاً بلاطحاً، يناطحُ الأباطحَ، مغدودقاً مطبوبقاً مغرورقاً. واسقِ سهلَنا، وجبلَنا، وبدْوَنا، وحضرَنا، حتى ترخّصَ به أسعارنا، وتباركَ لنا في صاعِنا ومُدّنا، أرِنا الرزقَ موجوداً، والغلاءَ مفقوداً آمينَ ربَّ العالمينَ)[84].

هذا مقطع من أجمل مقاطع أدعية الإمام الحسن (ع) وأعمقها في المعاني. فهذا الدعاء غنيٌّ بالحكمة والمعرفة، وثريٌّ ببلاغة اللغة، وعميق في فهم طبيعة الأرض، والماء، وخالقهما سبحانه. في شرح ذلك نذكر النقاط العشر التالية :

---

[84] قرب الإسناد ص 156 حديث 576.

الأولى : تهييج السحاب : يتوسل (ع) إلى ربه العظيم بأن يهيّج السحاب. وتهييج السحاب هو مقدمة لإنزال المطر إلى الأرض، ولاشك أن السحاب يمرُّ على مناطق مختلفة من الأرض لكنه لا ينزل عليها، إلا أن يتهيّج فينزله الله تعالى إلى الأرض العطشى.

يقول علماء الطبيعة أن البخار المتصاعد من البحار عندما يتكاثف في مناطق باردة نسبياً يشكل قطرات صغيرة، تتحد مع بعضها البعض فتكبر، وعندما تصبح تلك القطرات ثقيلة لا تحتمل التعلق في الهواء تسقط على الأرض على شكل مطر. فحجم قطرة الماء وثقلها هو الذي يحدد نزولها على تلك الأرض المبارَكة بنزول المطر.

الثانية : فتح السماء بماءٍ منسكبٍ : يدعو اللهَ بأن تُفتّح السماءُ بماءٍ مصبوبٍ منسكبٍ. ومطر السماء ينزل مرة على شكل رذاذٍ خفيفٍ، وأخرى على شكل قطراتٍ متواصلةٍ، وثالثة على شكل ماءٍ منهمرٍ. فهو (ع) يطلب من ربه أن يُنزِلَ المطر بالصورة الثالثة: فتّح الأبواب بماءٍ عبابٍ، وربابٍ، وبانصبابٍ، وإسكابٍ. كلمةُ عبابُ الماء: أوّله ومعظمه. والرباب: مفردها الرَبابة بالفتح: السحابةُ التي قد ركِبَ بعضُها بعضاً، وجمعها رباب. والإنصباب: الإندفاق، ومنه صب الماء. والإسكاب: هو السكبُ أي صبُّ الماء.

فالمعنى : آلهي افتح لنا أبوابَ السماءِ بماءٍ ينصبُّ صبّاً من سحابةٍ قد ركب بعضها بعضاً، بحيث نرى المطر وهو يتدفق على الأرض العطشى حتى ترتوي، وينتعش الزرع، وتشرب الدواب. وبتعبير آخر أنه

(ع) كان يتمنى على الله تعالى أن تفرغ السحابة كل حمولتها من الماء حتى ينتعش الناس منها جميعاً بزرعهم وماشيتهم.

الثالثة : اسقنا مطراً من كبير القطر وصغيرها : أي أن يكون المطر مختلِطاً بقطرات كبيرة وقطراتٍ صغيرة أنيقة حتى ترتوي قشرة الأرض وباطنها. قال (ع): يا وهاب اسقنا مغدقةً مونقةً، فتِّح أغلاقها، ويسِّر أطباقها. وكلمة مغدقة: من الغَدَق، بفتح الدال، وهو المطر الكبار القَطْرِ. ومونقة: من المؤنق والأنيق، وهو الحسن المُعجِب. أي اجعل القطرات الكبيرة للمطر تدخل في أطباق الأرض حيث تنتشر جذور الأشجار الكبيرة، والقطرات الصغيرة تنزل على سطحها حيث يمكن للزارع أن يزرع البناتات الموسمية التي هي مصدر طعام الناس.

الرابعة : إملأ الأودية بالماء : يدعو أن لا يكون المطر مجرد زخة واحدة، بل ماءً غزيراً تُملأ به الأودية، يقول (ع): وعجّل سياقها بالأندية في بطون الأودية بصوب الماء. فالمياه التي هي مصدر حياة البشر لابد أن تجري في روافد، وأنهار مصدرها الأمطار والثلوج. تجري في الوديان حتى يستفيد منها أكبر عدد من البشر، وتستفيد منها أرضهم الزراعية ودوابهم.

الخامسة : اسقنا قطرات الندى الصغيرة مع امتداد زمن القطر وإطالته: يدعو (ع) ربه بأن يسقيه قطرات ندى صغيرة دائمة، ويمدّ في زمن إنزاله، يقول (ع): يا فعال اسقنا مطراً طلاً مطلاً. معنى كلمة طلاً: الطل هو

المطر الصغارُ القطر الدائم، والندى هو أرسخ المطر، ومطلاً: المطل: أصلٌ يدلُّ على مد الشيء وإطالته.

قطرات الندى هي قطرات ماء تتكون في أواخر الليل، حيث يتحول بخار الماء إلى سائل عن طريق الملامسة لسطحٍ باردٍ. وقطرات الندى هي أكثر فعالية في إرواء النباتات، خصوصاً وأنها تغطي النباتات في أوقات مبكرة من الصباح. فالندى هو رحمة من الله في الأراضي الجافة حيث يقوم بالمحافظة على النباتات طريةً، ويحفظها من الجفاف.

السادسة : اجعل الغيوم مطبقة على الأرض : يدعو الله تعالى أن يجعل طبقات الغيوم مثقلة بالماء وهي أقرب إلى الأرض، حتى ينزل المطر ويُشبع الأرض العطشى، فيتمنى (ع) من الله العزيز الحكيم أن يكون المطر: مُطَّبقاً طبقاً، عاماً معمِّاً. وكلمة: مُطَّبقاً طبقاً: الطبق غطاءُ كل شيء، يقال: جعله مُطبّقاً، ومنه قولهم: لو تطبّقت السماء على الأرض ما فعلتُ كذا. والمعنى أنه يدعو الله أن تكون الغيوم مطبقة على الأرض. وكلمة العوم: السباحة، وعامَ في الماءِ عوماً سبح. والمعنى إنزل علينا المطر الغزير، بحيث يشبه كميته على الأرض بمن عامَ في الماء.

السابعة : مطراً نقياً ليس فيه شيء من الأعراض والأمراض : يدعو ويتمنى (ع) على الله تعالى أن يكون مطراً نقياً ليس فيه عرضٌ أو مرضٌ: دُهماً، بُهماً، رجماً، رشاً، مرشّاً، واسعاً، كافياً، عاجلاً، طيباً، مباركاً. وكلمة

دُهماً: الدُهمة عند العرب السواد. وفي التنزيل العزيز: (مُدْهَامَّتَانِ)[85] أي سوداوان من شدة الخضرة من الري. بُهْماً: ليس فيه شيء من الأعراض والأمراض. رجماً: قوة المطر من شدة سقوطه، وإذا عدى الفرسُ رجمَ الأرض رجماً.

فالحسن (ع) يدعو ربه تعالى أن يكون مطراً ينزل دُهماً وسواداً، وليس فيه شيء من الأعراض والأمراض. كان ذلك الدعاء من الإمام الحسن (ع) بين سنة 38 – 40 هجرية، يوم كانت الأرض خالية من التلوث البيئي، وخالية من مخلفات المواد الكيميائية السامة. وكان دعاؤه هذا يتنبأ بما سيحصل في العصور اللاحقة بما سيحمله المطر من أعراض وأمراض.

الثامنة : مطراً متتابعاً في مساحة واسعة من الأرض : يدعو الله أن يكون مطراً سلاطحاً بلاطحاً، يناطح الأباطح. وكلمة: سلاطحاً: مفرده السلطح: الفضاء الواسع، وأنشد الأزهري: سلاطحٌ يناطحُ الأباطحا. بلاطحاً: مفرده بلطح: إتباع. أي أسقنا مطراً متتابعاً في مساحة واسعة من الأرض.

التاسعة : مطراً مطبقاً طبقة فوق طبقة حتى ترتوي الأرض : يدعوه تعالى أن يكون مطراً مغدودقاً، مطبوبقاً، مغرورقاً أي مطراً كثيراً. وكلمة مغدودقاً: من الغدق وهو المطر الكثير العام، وفي التنزيل: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى

---

[85] سورة الرحمن: الآية 64.

الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ...)[86]. أي لو استقاموا على طريقة الكفر لفتحنا عليهم باب اغترارٍ، كقوله تعالى : (... لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ...)[87]. ومطبوبقاً: ولعله أراد السحاب المطبق على بعضه بعضاً، وقيل: السموات الطباقُ: سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضاً أي بعضها فوق بعض. مغرورقاً: ولعله أراد الماء الكثير الذي يُغرق، والتعبير هنا مجازي. والله العالم.

العاشرة : النظرية الإقتصادية : العلاقة بين سقوط المطر ورخص الأسعار: يقول (ع): واسقِ سهلنا، وجبلنا، وبدونا، وحضرنا، حتى ترخّص به أسعارنا، وتبارك لنا في صاعنا ومدّنا، أرنا الرزق موجوداً، والغلاء مفقوداً. فهو يدعو الله أن يكون سقوط المطر وسيلة من وسائل زيادة المحاصيل الزراعية، ووفرتها في السوق حتى ترخص أسعارها. وهي متطابقة مع النظريات الإقتصادية في العرض والطلب ، فكلّما أزداد العرض من المواد الزراعية كلّما قلّت الأسعار، ورخصت المواد.

صبراً على مصائب الدنيا:

يذكر لنا التاريخ جانباً من حياته الخاصة، فقد توفيت ابنته (ع) في حياته، فكتب إليه قومٌ من أصحابه يعزونه بها، فكتب اليهم: (أمّا بعدُ: فقدْ

---

[86] سورة الجن: الآية 16 – 17.

[87] سورة الزخرف: الآية 33.

بلَغَنَي كتابَكم، تُعزّونني بفلانةٍ، فعندَ اللهِ أحتسبُها، تَسلِيماً لقضائهِ، وصبراً على بلائهِ، فإنْ أوجعتنا المصائبُ، وفجعتنا النوائبُ، بالأحبّةِ المألوفةِ، التي كانت بنا حفيّة، والإخوانَ المحبينَ، الذينَ كانَ يسرُّ بهمُ الناظرونَ، وتقرُّ بِهمُ العيونُ.

أضْحَوا قد اخترَمتهُم الأيامُ، ونزلَ بهمُ الحمامُ، فخلفوا الخلوفَ، وأودتْ بِهمُ الحتوفُ، فهم صرعى في عساكرِ الموتى، متجاورونَ في غيرِ محلةِ التجارةِ، ولا صلاتَ بينهم ولا تزاور، ولا يتلاقونَ عن قربِ جوارهم، أجسامُهم نائيةً مِنْ أهلِها، خاليةً مِنْ أربابِها، قد أخشَعها إخوانها، فلم أرَ مثلَ دارِها داراً، ولا مثلَ قرارِها قراراً، في بيوتٍ موحشةٍ، وحلولٍ مضجعةٍ، قد صارتْ في تلكَ الديارِ الموحشةِ، وخرجت عن الدارِ المؤنسةِ، ففارقتها من غيرِ قلىً، فاستودعتها للبلى... سلكتْ سبيلاً مسلوكةً، صارَ إليها الأولون، وسيصيرُ اليها الآخرون)[88].

في رسالة الحسن (ع) تلك معاني تربوية عظيمة في أسرار الموت، وقضاء الله تعالى، فهو لم يشكرهم على تعزيتهم الشخصية له مباشرة، بل جعل رسالته الجوابية محاضرة أخلاقية عظيمة في قضية الموت التي سيختبرها كل إنسان، ودعاهم إلى الصبر على بلائه، والإتعاظ بإرادته تعالى. وبين سطور الرسالة تقرأ شكراً خفيّاً لتعزيته بالمصاب. وفي شرحها أمورٌ ثلاثة ، هي :

---

[88] مستدرك الوسائل ج 2 ص 479.

الأول : الموت وطبيعة التسليم لقضاء الله تعالى : يقرُّ الإمام الحسن (ع) ابتداءً بالتسليم لقضاء الله في الموت، والصبرُ على بلائه، وما على الإنسان إلا أن يفعل ذلك. لأن الإيمان بالله يعني الإيمان بإرادته سبحانه، والتسليم بتقديره للإنسان من حياةٍ، أو موتٍ، أو مصيبةٍ، أو إبتلاءٍ. فالمصيبة بفقد الأحبة، وإن تُحزِن الإنسان وتُفجعه، لأنها فقدانٌ لأحبته وأخوانه، إلا أن عليه القبول بقضائه تعالى وقدره.

الثاني : صفة عساكر الموتى : يصفُ الإمام الحسن (ع) القبور بعساكر الموتى، لأنها في الواقع معسكرات لإجسادٍ هامدةٍ، هم متجاورون لا بصفة الجيرة، لكن بصفة الضرورة. وهم قريبون مع بعضهم في المكان، لا بصفة القرب القلبي، لكن بصفة الحتمية. إلا أنهم لا يتزاورون ولا يتلاقون. أجسادٌ ملقاةٌ في التراب، نائيةٌ عن أهلها، موحشةٌ في طبيعتها، هو معسكرٌ ليس كمعسكر الأحياء حيث التزاور والإلفة والمحبة. لكنه معسكر الموتى الذي لا حياة لهم فيه ولا حراك. فاصبحت تلك الديار موحِشة، مقفِرة، لا أنيسَ لهم فيها ولا أليف.

الثالث : الفراق الحتمي : يقرُّ (ع) بالمفارقة المؤلمة وهو أنه حيٌّ يودع الأموات، وعند موته يودعه من بقي من الأحياء. فلابد أن نعتاد على عملية الموت والفراق، لأنها قدرٌ من الله سبحانه. وكان عليه أن يستودع ابنته المتوفاة السالكة لطريق سلكه الأولون، وسيصير إليه الآخرون، وهو

طريق الموت. فهو فراق حتمي مكتوب في صحيفة التكوين الآلهي لهذا الوجود. وما علينا إلا الرضا به والتسليم لأمر الله تعالى بما ينزله.

ولو رجعنا إلى وصية أبيه الإمام علي (ع) في قضايا الموت، والفناء، وحتمية الوداع لحياة الدنيا، لرأيناها متطابقة في المعاني، والأهداف.

في حروب الحق زمن أبيه (ع)

لما نهض الإمام أمير المؤمنين (ع) بأمر الخلافة، نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، فقاتلهم الإمام (ع) كما أخبره رسول الله (ص) بذلك[89]. وكان معه الحسن والحسين (ع) في جميع حروبه، وهي الجمل وصفين والنهروان.

أولاً : حرب الجمل :

استفاد طلحة والزبير من عصر الفتوحات أيام الخليفة الثاني، فجمعا المال والضياع، وكان لهما طموحاً بتولي ولايتي العراق واليمن. فبايعا علياً (ع) طمعاً في ذلك، فلما لم يجدا ما طمحا إليه، خرجا على الإمام أمير المؤمنين (ع) عام 36 للهجرة. ثم انضمت إليهم عائشة، زوجة النبي (ص)، وبعد أن حرّضت الناس قبلها على قتل عثمان، وقالت: (إقتلوا

---

[89] بحار الأنوار ج 32 ص 299.

نعثلاً فقد كفر)[90]، لكنها غيّرت رأيها عند تولي الإمام علي (ع) الخلافة، فذهبت إلى محاربته!

وإجتمع الثلاثة وأجمعوا على محاربة الإمام أمير المؤمنين (ع)، بدعوى المطالبة بدم عثمان. حاول الإمام (ع) إرشادهم إلى الحق، ولكنهم كانوا مصرّين على القتال. وإلتحم الجيشان في البصرة بضراوة، وانتصر جيش الإمام (ع)، وقُتل طلحة، والزبير بن العوام. أما عائشة فقد عُقِرَ جملها، وأرسلت إلى مكة مع أخيها محمد بن أبي بكر، الذي كان يقاتل مع جيش الإمام علي (ع). وكانت الكوفة والبصرة من أهم محطات معركة الجمل :

في الكوفة

بعث الإمام علي (ع) وهو لا يزال في المدينة جماعة إلى الكوفة لاستنفار الناس، منهم ابنه الحسن (ع)، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس، وقيس بن سعد بن عبادة. وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً على الكوفة، وعزل أبو موسى الأشعري. وعندما وصلوها، ذهب الحسن (ع) وعمار إلى مسجد الكوفة فدعوا الناس إلى قتال الناكثين.

---

[90] النهاية في غريب الحديث والأثر ج 5 ص 80.

أ – محطات الحسن (ع) في الكوفة

كانت للحسن (ع) محطات في تلك المدينة الناشئة، حيث تكلّم فيها مع الناس، ومن تلك المحطات :

المحطة الأولى : الدعوة لأهل العقل

خطب الحسن (ع) فيهم، فقال: (ياأيها الناس، أجيبُوا دعوةَ أميرِكم، وسيروا إلى إخوانِكم، فإنه سيوجدُ لهذا الأمرِ من ينفرُ إليهِ، والله لأن يليهِ أُولوا النُهى أمثلُ في العاجلةِ، وخيرٌ في العاقبةِ، فأجيبوا دعوتَنا وأعينُونا على ما ابتُلينا بهِ وابتُليتم)[91].

في هذا المقطع القصير دعا الحسن (ع) أهل الكوفة لإجابة الإمام أمير المؤمنين (ع) في حربه ضد الناكثين لبيعته، من الذين شهروا السلاح ضده (ع)، وضد دولته العادلة . وفي ذلك نقاط ثلاث ، هي :

الأولى : الدعوة إلى الإجابة : من أهم ميزات الأمة الصالحة هي إجابة دعوة الإمام الشرعي (ع) إذا دعاهم لأمرٍ كالدفاع عن دينهم، أو مقاتلة ظالمٍ متسلطٍ على رقابهم، أو الجهاد في سبيل الله. فقال لهم: أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم. فدعاهم إلى أمرين أساسيين. الأمر الأول: إجابة دعوة أمير المؤمنين (ع)، وولي أمر المسلمين الذي أعلن جهاداً دفاعياً عن حرمة الإسلام، والإجابة هنا واجبة شرعاً، وعقلاً، بدليل قوله

---

[91] واقعة صفين ص 15 – 16.

تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...)[92]. وقد دعاهم الحسن (ع) بصريح العبارة بذلك قائلاً: أجيبوا دعوةَ أميركم. والأمر الثاني: دعاهم إلى السير والإنضمام إلى إخوانهم في الجهاد والدين، أولئك الذين انضموا إلى جيش أمير المؤمنين (ع) من بداية التحرك.

الثانية : الثقةُ بالنصر : كان كلامُ الحسنِ (ع) مقتضَباً، لكنه كان قاطعاً واثقاً بالله تعالى بأنه سينصرهم، فقال (ع): فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه. وهو يعني أن الله سيقوّض إليه من يسانده (ع)، وينصره في النهاية. ففي التدبير الآلهي وجوب انتصار الإمام أمير المؤمنين (ع) في واقعة الجمل، لأنها كانت ذو خصائص فريدة، فلو خَسِرَ الإمام (ع) تلك المعركة إفتراضاً، لانتهت مصداقية فكرة الإمامة الكبرى لأهل البيت (ع). ذلك لأنها كانت أول تجربة لهم (ع) في محاربة من خرج عن طاعة ولي الأمر في زمانهم.

كانت تلك المعركة أولى معارك الإمام (ع) في خلافته، وكان من ساعد على تجييش العداء لخليفة المسلمين وإمامهم (ع) هو زوجة النبي (ص) مع طلحة والزبير. فلكلٍ منهم ثقله في محيطه . ولكن التدبير الآلهي أراد أن يُفهِم العالَم ذلك الزمان، وفي كل زمان أن الإمامة الشرعية لأهل البيت (ع) يجب أن تنتصر وتترسخ. وربما يتغير التدبير في أوقات أخرى،

---

[92] سورة النساء: الآية 59.

كما حصل مع بقية أئمة أهل البيت (ع)، لكن كان التدبير الآلهي في معركة الجمل أن ينتصر الإمام علي (ع) في المعركة، حتى تبقى فكرة الإمامة الشرعية لأهل البيت (ع) ثابتة، شامخة إلى الأبد.

الثالثة : الدعوة لأهل العقل : قال (ع) : والله لأن يليه أولوا النهى أمثل في العاجلة، وخيرٌ في العاقبة. فالمعركة بين أهل البيت (ع) وبين من حاربهم هي معركة عقول. والحسن (ع) هنا يتمنى على الله أن يكون أفراد جيش أمير المؤمنين (ع) من أهل العقول النيرة المتفتحة التي تعرف معنى الدين ومعنى الإمامة الشرعية، فتهرع إلى مساندة إمامها (ع) في تلك المعركة الحاسمة التي التبسَ فيها على الناس الحقُّ بالباطلِ.

المحطة الثانية : شرحٌ لفضائل الإمام علي (ع)

في المناسبة الثانية خطبَ الحسن (ع) في مسجد الكوفة، وذلك بعد قراءته كتاب الإمام أمير المؤمنين (ع) في حثهم على الجهاد، قال (ع) :

(الحمدُ للهِ العزيزُ الجبار، الواحدُ القهار، الكبيرُ المتعال، سواءٌ منكم مَنْ أسرَّ القولَ ومَنْ جهرَ بهِ، ومَنْ هو مستخفٍ بالليلِ، وساربٍ بالنهارِ، أحمدُه على حسنِ البلاءِ، وتظاهرِ النعماءِ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدةٍ ورخاءٍ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، إمتنَّ علينا بنبوّتهِ، واختصَّهُ برسالتهِ، وأنزلَ عليهِ وحيَّه، وإصطفاهُ على جميعِ خلقهِ، وأرسلَه إلى الإنسِ والجنِّ، حينَ عُبِدت الأوثانُ وأُطيعَ

الشيطانُ، وجُحِدَ الرحمنُ، فصلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وجزاهُ أفضلَ ما جزى المسلمينَ.

أما بعدُ، فإني لا أقولُ لكم إلا ما تعرفونَ، إنَّ أميرَ المؤمنينَ عليَّ بنَ أبي طالب – أرشدَ اللهُ أمرَهُ وأعزَّ نصرَهُ – بعثَني إليكم يدعُوكم إلى الصوابِ، وإلى العملِ بالكتابِ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، وإن كانَ في عاجلِ ذلك ما تكرهونَ، فإن في آجلهِ ما تُحبّون إن شاءَ اللهُ، ولقد علِمتُم أنَّ علياً صلّى مع رسول الله صلى الله عليهِ وآلهِ وحدَه، وإنه يومَ صدّقَ بهِ لفي عاشرةٍ من سنّهِ، ثم شَهِدَ مع رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وآلهِ جميعَ مشاهدهِ، وكان من اجتهادهِ في مرضاةِ اللهِ وطاعةِ رسولهِ وآثارهِ الحسنةِ في الإسلامِ ما قد بلَغكم.

ولم يزلْ رسولُ اللهِ (ص) راضياً عنهُ، حتى غمّضَهُ بيدهِ وغسّلَهُ وحدَه، والملائكةُ أعوانُه والفضلُ بنُ عمّهِ ينقلُ إليهِ الماءَ، ثم أدخلَه حفرتَه، وأوصاهُ بقضاءِ دَينِهِ وعداتهِ، وغيرُ ذلك من أمورهِ، كلُّ ذلكَ مِنْ منَّ اللهُ عليهِ، ثم واللهِ ما دعاهُ إلى نفسهِ، ولقد تداكَ الناسُ عليهِ تداكَّ الإبلِ الهيم عند ورُودها فبايعوهُ طائعين، ثم نكثَ منهم ناكثونَ بلا حدثٍ أحدثهُ، ولا خلافٍ أتاه، حسداً لهُ وبغياً عليهِ.

فعليكم عبادَ اللهِ بتقوى اللهِ وطاعتهِ، والجدَّ والصبرَ والإستعانةَ باللهِ، والخفوفَ إلى ما دعاكم إليهِ أميرُ المؤمنينَ، عصمَنا اللهُ وإياكم بما عصمَ

بهِ أولياءَه وأهلَ طاعتهِ، وألهمَنا وإياكم تقواه، وأعانَنا وإياكم إلى جهادِ أعدائهِ، واستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم)[93].

في هذه الخطبة أمور سبعة لابد من الوقوف عندها وشرحها، وهي:

الأول : الإقرار بالتوحيد : في بداية خطبته يضفي على الخالق عز وجل ما استحق من حمدٍ ونعتٍ، كما وصف نفسه تعالى في كتابه الكريم. فهو العزيز الجبار، الواحد القهّار، الكبير المتعال، يستوي في علمه سبحانه من أخفى القول منكم ومن جهرَ به، ويستوي في علمه تعالى من تستر في ظلمة الليل، أو من جهر بها في وضح النهار. يشير الحسن (ع) لتلك الصفات من سورة الرعد في الآية العاشرة. ثم يحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، شكراً لله سبحانه على بلائه لأن كل بلائه حسن وجميل، وشكراً لله سبحانه على نعمائه، لأن كل نعمائه على الإنسان دعةٌ، ويسرٌ، ورخاءٌ، وسعةُ رزقٍ.

وبعد حمده تعالى بما يستحق، وبما أمرنا أن نمدحه، أقرَّ بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة التوحيد .

الثاني : الإقرار بنبوة محمد (ص) : وبعد الإقرار بالتوحيد، يقرُّ (ع) بنبوة محمد (ص)، فقد امتنّ الله علينا بإختيار أصدق البشر، وأنقاهم وأوثقهم في

---

[93] شرح نهج البلاغة – (ح)، ج 14 ص 11.

توصيل الأمانة، فاختصه الله تعالى بالرسالة واصطفاه (ص) على جميع خلقه، وأنزل عليه الوحي، وأرسله إلى الإنس والجن، في وقت عبَدت فيه البشريةُ الأوثانَ، وأطاعت الشيطان، ونست اللهَ خالقها ومدبرها عز وجل.

الثالث : دعوة الإمام أمير المؤمنين (ع) لهم : قال الحسن (ع) أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) كلّفهُ بدعوتهم إلى أمرٍ حاسمٍ مبنيٌّ على ثلاث ركائز، هي :

أ – الدعوة إلى الصواب: وهو فهم ما جاء في القرآن الكريم، في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...)[94]. فطاعة الله تعالى ورسوله (ص) وولي الأمر (ع) هو الأمر الصواب الذي يقيهم ويلات الإنحراف، ويقربهم إلى الله تعالى.

ب – العمل بكتاب الله: ثم العمل بما جاء في القرآن الكريم، وهو تطبيق الأحكام الشرعية وتحويلها إلى عمل وجهاد. فما الحياة إلا جهادٌ في سبيل الله . وقد اقتضى الجهاد اليوم أن يكون قتالاً ضد الناكثين.

ج – الجهاد في سبيل الله: والقتال في سبيل الله ليس سهلاً ولا هيناً لأن الناس تحب العيش الرغيد، والحياة المديدة، ولا تحب الموت. فذكر الموت له طعمٌ مكروه عند الغالبية من الناس، فلا أحد يحب أن يموت، شهادةً كان الموت أو موتاً طبيعياً. ولذلك قال (ع): وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإن في آجله ما تحبون. أي أنكم تكرهون القتال لأن فيه موتاً،

[94] سورة النساء: الآية 59.

ولكن لو تعلمون ما أعدّ الله لكم بعد شهادتكم من الجنان والرحمة والمغفرة لأحببتم ذلك .

الرابع : فضائل علي (ع) ومنزلته من رسول الله (ص) : يذكر الحسن (ع) ميزات الإمام أمير المؤمنين (ع) ومنزلته من رسول الله (ص) عبر الفضائل التالية :

أ – أنه (ع) صلى مع رسول الله (ص) وحده: وصدّق به وهو ابن العاشرة، أي لم يبلغ الحلم بعد. وإذا طبقنا نظرية عَقُول الصبا لاستنتجنا بأن أمير المؤمنين (ع) لم يشتغل في الصغر إلا بعبادة ربه، ولم يلهو لهوَ الصبيان، تماماً كما كان رسول الله محمد (ص).

ب – أنه (ع) شهد مع رسول الله (ص) جميع مشاهده : أي أنه شهد جميع مراحل تبليغه الدعوة الإسلامية إلى الناس، وشارك في جميع حروبه عدا تبوك، حيث بقي في المدينة تلبيةً لأمره (ص) . وشهد (ع) صلاته (ص) بالنهار وقيامه (ص) بالليل، فقد كان يحيي الليل معه وهما في المسجد. ومسجدُ المدينة سكنهما كما هو المعروف ببيوت النبي (ص)، وهي الحجرات التي سكنها النبي (ص) مع زوجاته، وبضمنها حجرة فاطمة الزهراء (ع) مع علي بن أبي طالب (ع). فكان النبي (ص) وعلي (ع) يشتركان في مكانِ عبادتهما، وتجاور مسكنهما.

ج – اجتهاده (ع) في مرضاة الله تعالى وطاعة رسوله (ص) : يذكر اجتهاده (ع) في مرضاة الله تعالى، كما ذكره الكتاب المجيد في آية

الإطعام: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)[95]، وآية التطهير: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[96]، وآية المودة: (... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...)[97]، وآية الصدقة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[98].

وكان (ع) في طاعة رسول الله (ص) فلم يعصه أبداً، بل كان لسانُ حالهِ معتاداً على القول: نعم يا رسول الله سمعاً وطاعةً، في كل أمرٍ أمره (ص). كان أمير المؤمنين (ع) متفانياً في دين الله تعالى، فكانت حياته (ع) مرضاةً لله تعالى، وطاعةً لرسوله (ص).

د – في النهاية قام (ع) بتجهيز النبي (ص) : فكان (ع) معه في اللحظات الأخيرة، فأوصاه بقضاء دينه، وشهدَ لحظات إحتضاره (ص)، ثم غسّله بعد وفاته (ص)، وأدخله حفرته، وصلّى عليه، ثم دفنه (ص) بيده (ع).

الخامس : مبايعة الناس لعلي (ع) ونكث الناكثين : كان أمير المؤمنين (ع) زاهداً في الخلافة، لكن التكليف الشرعي ووصية رسول الله (ص) له بالقيام بأعبائها عند تحقق الشروط الموضوعية، هو الذي دفعه للقبول بها.

---

[95] سورة الإنسان: الآية 9.

[96] سورة الأحزاب: الآية 33.

[97] سورة الشورى: الآية 23.

[98] سورة المائدة: الآية 55.

ولكن ما أن قبلها وبايعه المسلمون حتى نكث الناكثون بيعتهم، وانتهكوا أحكام الإسلام لدوافع بعيدة عن روح الدين وتعاليمه.

السادس : الدعوة إلى مناصرة أمير المؤمنين (ع) : وبعد أن دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، والإستعانة به تعالى، وجهّهم إلى نصرة الإمام أمير المؤمنين (ع). وتلك الدعوة إلى النصرة كانت على ألسنة أهل البيت (ع) دائماً. فطلب النصرة من أهم عناصر العقد الديني أو الإجتماعي في البيعة الشرعية الصحيحة. وهكذا كان حال أهل البيت (ع)، فالإمام منهم (ع) يوصى له بالإمامة، وعلى الأمة إقرار البيعة له. وهي بمعنى الميثاق بين الإمام والمأموم، على أن يقوم الإمام بوظيفته في الأمامة الكبرى، ويقوم المأموم بوظيفته في الإنقياد له، ونصرته، وإتباع تعليماته وأوامره، على ضوء قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...)[99].

السابع : الفارق في طلب النُصرة : كان الأنبياء (ع) يطلبون النصر من الله تعالى، فنوحٌ (ع) دعا ربه بالقول: (... أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)[100]، ولوط (ع) دعا ربه قائلاً: (... رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)[101] ، وداود

---

[99] سورة النساء: الآية 59.

[100] سورة القمر: الآية 10.

[101] سورة العنكبوت: الآية 30.

(ع) مع جنوده دعوا ربهم قائلين: (... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[102].

بينما كان أهل البيت (ع) يطلبون النصرة من الناس، بالإضافة إلى طلبهم النصرةِ من الله تعالى. ذلك أن عدداً من أئمة أهل البيت (ع) كان بينهم وبين الناس بيعة ملزِمة. فقد بايع الناس علياً (ع)، وبايعوا الحسن (ع)، وبايع أهل الكوفة الحسين (ع) قبل تحركه إليهم. فكانوا (ع) يطلبون النُصرة لأنها جزء لا يتجزأ من عقد البيعة المبرم بين الإمام (ع) وبين المسلمين الذين بايعونه.

المحطة الثالثة: لئِن لم تنصروه لينصرنّه الله

قال الحسن (ع) في خطبة ثالثة له في الكوفة: (أيها الناسُ قدْ كانَ أميرُ المؤمنينَ عليهِ السلامُ ما يكفيكُم حملتَه، وقد أتيناكُم مستنفِرينَ لكُم، لأنّكُم جبهةُ الأنصارِ وسنامُ العربِ. وقد نقضَ طلحةٌ والزبيرُ بيعتَهما وخرجا بعائشةٍ ... أما واللهِ لئن لم تنصرُوه لينصرنَّهُ اللهُ، يتبعهُ من المهاجرينَ والأنصارِ وسائرِ الناس، فانصرُوا ربَّكم ينصُركم)[103].

في هذه الخطبة القصيرة، وبعد أن دعاهم إلى نصرة أمير المؤمنين (ع)، واستنفرهم لنصرة الإسلام لأنهم جبهة الأنصار وسنام العرب، شرح لهم نقض طلحة والزبير بيعتهما لأمير المؤمنين (ع)، ثم قال (ع) جملة

---

[102] سورة البقرة: الآية 250.

[103] الجمل (النصرة في حرب البصرة) ص 132.

فيها الكثير من المعاني. قال: أما والله لئن لم تنصروه لينصرنه الله. والملاحِظ في قول الحسن (ع) أنهم كانوا مترددين في نصرة الإمام أمير المؤمنين (ع). وكانت تلك أول بوادر خيانتهم لأهل البيت (ع) إبتداءً من الإمام أمير المؤمنين (ع)، ثم الإمام الحسن (ع)، ثم الإمام الحسين (ع).

المحطة الرابعة : الجهاد مع علي (ع) كالجهاد مع النبي (ص)

وفي خطبةٍ رابعةٍ له في الكوفة قال الحسن (ع) بعد أن حمد الله وشهد الشهادتين: (معاشرَ الناسِ إنَّ طلحةَ والزبيرَ بايعا عليّاً طايعينَ غيرَ مُكرَهينَ، ثم نفرا ونكثا بيعتهما له، فطُوبى لمَنْ خفَّ في مجاهدةِ مَنْ جاهدَهُ، فإنَّ الجهادَ معهُ كالجهادِ مع النبي صلى اللهُ عليهِ وآلهِ)[104].

شرح الحسن (ع) هنا طبيعة المشكلة ، فطلحة والزبير بايعا علياً (ع) طوعاً، ولم يكرههما أحد. والبيعة في الإسلام ملزِمة إلزاماً قطعياً. لأن في نكث البيعة دماءٌ تسفك، وأموالٌ تنهب، وأعراضٌ تُنتهك. فالبيعة عهدٌ ملزِمٌ بين الإمام ولي الأمر (ع) وبين المبايع. ثم قال (ع): إنّ الجهاد مع علي (ع) كالجهاد مع النبي (ص). وهذه الجملة تلخِّصُ مجلداتٍ من المعارف والنظريات. ذلك أن الإمام علي (ع) تربى في كنف رسول الله (ص) منذ الصغر، وتعلّم علوم الدين منه (ص)، فهو شخصية تمثل رسول الله (ص) في التقوى، والعلم، والشجاعة، والبلاغة، والزهد، والعدل، والخشوع لله، والقوة مع أعداء الله. كان أملُ رسول الله (ص) خاتم الأنبياء

[104] الجمل ص 142.

والرسل أن يخلفه علي بن أبي طالب (ع) في الإمامة، والتبليغ، وإرشاد الناس إلى دينها، ومستقبلها. فالجهاد معه (ع) كالجهاد مع رسول الله (ص).

ب – محطات الحسن (ع) في البصرة

ثم تحرك الركب إلى البصرة. ولما وردها (ع)، قام عبد الله بن الزبير فخطب في جموع البصريين، وحرضهم على قتال الإمام أمير المؤمنين (ع) فقال: (أيها الناس، إنّ عليَّ بن أبي طالب قتل الخليفة عثمان، ثم جهز الجيوش إليكم ليستولي عليكم، ويأخذ مدينتكم، فكونوا رجالاً تطلبون بثأر خليفتكم، واحفظوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم، وأحسابكم وأنسابكم، أترضون لأهل الكوفة أن يردوا بلادكم، إغضبوا فقد غوضبتم، وقاتلوا فقد قوتلتم، ألا وإنَّ علياً لا يرى معه في هذا الأمر أحداً سواه، والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم ...)[105].

خطاب عبد الله بن الزبير تضمن أكاذيب ملفّقة ضد الإمام أمير المؤمنين (ع)، نستطيع أن نلخصها بخمس أكاذيب ، هي :

الأولى: الزعم بأن الإمام أمير المؤمنين (ع) قتل عثمان : وهذا افتراء على الإمام أمير المؤمنين (ع). فكيف قتلَ الإمام علي (ع) عثمان، وقد ثارت جموع الصحابة ووفود مصر والعراق والحجاز عليه، خصوصاً وهو

---

[105] الجمل ص 175.

الذي قرَّبَ من بني أمية من نزل فيه قرآن يدينه ، أمثال الحكمَ أبو مروان الذي خاض من فحش القول مع رسول الله (ص) ما يندى من ذكره الجبين، فنفاه النبي (ص) من المدينة إلى الطائف[106]، فقربه عثمان وعيّن ابنه مروان مستشاراً يستشيره في إدارة شؤون الأمة. والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي نزل فيه قرآن يصفه بالنفاق في قضية بني المصطلق، وهو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ...)[107]، فعينه عثمان والياً على الكوفة. وعبد الله بن أبي سرح، أخو عثمان من الرضاعة، الذي ارتد بعد كتابة الوحي، فاهدر النبي (ص) دمه، ولاّه عثمان ولاية مصر.

فالمسلمون بمختلف أقطارهم أدانوا ما كان يعمله الخليفة الثالث وحاشيته الفاسدة التي نهبت بيت مال المسلمين. قال الإمام علي (ع) يردُّ ما حصل في تعيين الخليفة الثالث: (حتى إذا مضى الثاني لسبيله جعلها في جماعةٍ زعم أني أحدهم. فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم، حتى صرتُ أقرنُ إلى هذه النظائر)[108].

الثانية : الزعم بأنه جهز الجيوش ليستولي عليكم : كانت البصرة ضمن حدود الدولة الإسلامية، والإمام أمير المؤمنين (ع) هو المكلّف بموجب

---

[106] أنساب الأشراف ج 5 ص 27.

[107] سورة الحجرات: الآية 6.

[108] نهج البلاغة – خطبة 3 ص 37.

البيعة بحماية كل من سكن في أراضي تلك الدولة، وصيانتها من كل متمردٍ على تلك البيعة الملزِمة شرعاً. فتلك إكذوبة ثانية بأن الإمام (ع) أراد أن يستولي على أهل البصرة.

الثالثة : الدعوة لطلب الثأر من دم عثمان: وما علاقة الإمام علي (ع) بدم عثمان؟ نعم كشف الإمام (ع) ما كان يقوم به بنو أمية في المسلمين، قائلاً : (قامَ عثمانُ ، وقامَ معه بنو أمية يخضمونَ (أي ينهمون) مالَ اللهِ خضمَ الأبلِ نبتةَ الربيع ، إلى أن انتكثَ (انتقضَ) عليهِ فتلُه، وأجهزَ عليهِ عملُه (أي قتلُه)، وكبَتْ بهِ بطنَتُه (إسرافهِ في الشبعِ). فما راعني إلا والناسُ كعرفِ الضبعِ، ينثالونَ عليَّ مِنْ كلِّ جانبٍ، حتى لقد وُطىءَ الحسنان، وشُقّ عطفاي (من كثرِ الزحام)، مجتمعينَ حولي كربيضةِ الغنم، فلما نهضتُ بالأمر نكثتْ طائفةٌ، ومرقتْ أُخرى، وقسطَ آخرون)[109].

يقول الإمام (ع) أن الخليفة الثالث لم يراعِ مبادئ الإسلام في العدالة وتوزيع الثروة بين الناس، فقام بنو أمية وهم ملتحفون بعباءته، بأكل مال المسلمين بصورة ظالمة لا يمكن تصديقها. فثالوث القوم هو عثمان بن عفان، الذي قام هو وعشيرته بأكل ما كان في بيت مال المسلمين من أموال، تاركاً فقراء الأمة يطوي بطونها الجوع والحرمان. لقد مهدَّ الخليفة الثالث لمعاوية ومن بعده بنو أمية حكم المسلمين بالظلم والجور لأكثر من قرن وربع من الزمان.

---

[109] نهج البلاغة – خطبة 3 ص 38.

الرابعة : الدعوة لحفظ حريمهم : لقد تناسى عبد الله بن الزبير موقع الإمام علي (ع) من رسول الله (ص) ودوره في الإسلام. فكال له التُهم البشعة. فالإمام الزاهد (ع)، البطل الذي جاهد في سبيل الله تعالى مع رسوله (ص) في جميع حروبه يتهمه بأبشع الإتهامات. وخطاب عبد الله بن الزبير يذكرنا بخطب أبو سفيان، وعتبة، وأبو جهل الذين حاربوا رسول الله (ص) في بداية الدعوة.

الخامسة : مقاتلة الإمام أمير المؤمنين (ع) : دعا عبد الله بن الزبير إلى مقاتلة أمير المؤمنين (ع) لأنه لا يرى معه في الأمر سواه . وهذا القول يكشف مدى البعد عن الإسلام وعن أفكاره في الولاية، والخلافة، والبيعة. فولي الأمر من ناحية الشرع ينبغي أن يكون ولياً بكل معنى الكلمة. فله الكلمة الفصل في تسيير شؤون الدولة، وإلا إذا تعدد الأمراء انتفى الغرض من وجود الولاية، عندها يتمزق المجتمع وينهار.

المحطة الأولى : رد مغالطات عبد الله بن الزبير

عندما بلغ الإمام أمير المؤمنين (ع) خطاب ابن الزبير، أمر الحسن (ع) بالرد عليه . وهنا روايتان :

رواية كتاب أمالي الشيخ المفيد :

هذه الرواية نقلها الشيخ المفيد (ت 413 هـ) في (الأمالي) عن

الإمام أمير المؤمنين (ع)، وفيها أنه قال لولده الحسن (ع) يوم الجمل: قم يا بني اخطب، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال (ع) :

(أيها الناسُ قدْ بلغَتْنا مقالةَ إبن الزبير، وقد كانَ والله يتجنى على عثمان الذنوبَ، وقد ضيّقَ عليهِ البلادَ حتى قُتل، وإن طلحةَ راكزٌ رايتُه على بيتِ مالهِ وهو حيٌّ، وأما قوله: إنّ عليّاً ابتزَ الناسَ أمرهَم، فإن أعظمَ حجةٍ لأبيهِ [يعني الزبير] أنه بايعَهُ بيدهِ ولم يبايعْ بقلبهِ، فقد أقرَّ بالبيعةِ وادّعى الوليجةَ، فليأتِ على ما ادّعاهُ ببرهانٍ، وأنى لهُ ذلكَ.

أما تعجبُّه من توّردِ أهلِ الكوفةِ على أهلِ البصرةِ، فما عجْبُهُ من أهلِ حقٍ توّردوا على أهلِ باطلٍ، ولعمري والله ليعلمنَّ أهلُ البصرةِ، وميعادُ ما بيننا وبينهم اليومَ، نُحاكمَهم إلى اللهِ تعالى، فيقضِ اللهُ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين)[110].

ردَّ الحسن (ع) على مقالة عبد الله بن الزبير، وذكرّه بثلاث حقائق:

الأولى: تزوير التاريخ : ذكر الحسن (ع) بعضاً من مثالب عبد الله بن الزبير، فقال أنه كان يتجنى على عثمان، ويكيل له التهم، ويحاربه حتى قُتِلَ عثمان.

كان عثمان سخيّاً على اقربائه وحاشيته . ذكرنا آنفاً بعضاً من ذلك، ونذكر الآن المزيد . فقد كان سخاؤه من بيت مال المسلمين، حيث أغدق العطايا دون حساب. فقد منح مروان بن الحكم (زوج ابنته أم أبان) وابنته

[110] أمالي الشيخ المفيد ص 175.

عائشة بنت عثمان زوجة (الحارث بن الحكم) أخو مروان يوم العرس مائتي الف درهم. وهو مبلغ ضخم بحساب ذلك الزمان. فقد كان ثوب الامام علي (ع) بخمسة دراهم. وعليك حساب الفارق.

فاستكثر بن أرقم، وهو خازنه على بيت المال في المدينة، ذلك. فجاءه مستقيلاً. فقال عثمان: إنما أنت خازنٌ لنا، فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازناً للمسلمين. وإنما خازنك غلامك. والله لا ألي لك بيت المال أبداً. وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المنبر[111].

وأعطى عثمان خُمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في افريقيا إلى مروان بن الحكم. ثم وزع أموال بيت المال ، التي كان الفقراء في صحراء الحجاز بأمسّ الحاجة إليها، على : ابنه الحارث ثلثمائة ألف درهم، وعبد الله بن خالد بن أسيد الأموي ثلثمائة ألف، وكل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة ألف، وطلحة بن عبد الله مائة ألف، وسعيد بن العاص مائة ألف، وزوَّجَ ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش، فأعطى كل واحد منهم مائة الف دينار[112].

ومما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها. وإذا كان سواد

---

[111] تجد الكثير من ذلك في المصادر التاريخية. منها: أنساب الأشراف ج 5 ص 59.

[112] أنساب الأشراف ج 5 ص 27 – 28، 52.

المسلمين في تلك الفترة يعيش على الطوى، ويُحرم من أبسط قواعد العيش الكريم، كان أزلام الخليفة الثالث يستأثرون بأموال المسلمين وحقوقهم.

وقد بلغ الترف مبلغه عند هؤلاء. فاقتنوا الضياع والدور. فقد بنى الزبير بن العوام داره في البصرة تنزلها التجار وأرباب المال، وابتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية، وخلّف عند موته ألف فرس وألف أَمة وخمسين ألف دينار. وابتنى طلحة بن عبد الله التيمي داره المشهورة في الكوفة، وكانت غلّته من العراق كلّ يوم ألف دينار. وابتنى عبد الرحمن بن عوف الزهري داره ووسعها، وكان على مربطه ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم .

وكانت تلك السياسة المالية والادارية في تقريب بني أمية وتسديدهم بالمال والقوة أثراً من آثار إجتماع السقيفة. وكانت تلك السياسة مؤدية بالنتيجة إلى تكوين الطبقة الغنية المسرفة التي كانت ترى من الإمتياز لنفسها ما ليس لغيرها[113].

الثانية : قلب الحقائق : ادعى ابن الزبير بأن علياً (ع) أبتز الناس أمرهم. نفى الحسن (ع) أن يكون الإمام أمير المؤمنين (ع) قد ابتز الناس. ومعنى الإبتزاز في اللغة هو الحصول على المال أو المنافع من شخص تحت التهديد بفضح أسراره. وهذا مجرد اتهام باطل كاذب ليس له واقع يدعمه، فمتى ابتز الإمام (ع) الناس ؟

---

[113] الصدّيق الأكبر ص 681.

لما بايعَ الزبيرُ وطلحة الإمامَ علياً (ع) كانا يأملان منه المناصب السياسية في أقاليم الدولة. فلما لم يوافقهما على ذلك، نكثا بيعتهما، وخرجا على الإمام (ع). وعندما سُئل الزبير عن كيفية نكث البيعة. قال: بايعتُ بيدي ولم أبايع بقلبي. وهذا الإقرار يعدُّ خلافاً لأصول البيعة فما أن تتم البيعة باليد أصبحت مُلزِمة للمبائع . والناس لا تنظر إلى قلوب الآخرين، بل تنظرُ إلى أقوالهم وظواهرهم. يقول (ع): فقد أقرَّ بالبيعة، وادعى الوليجة. ووليجة الرجل: بطانته وخاصته ودِخْلَتهُ. فالوليجة : البطانة ، وهي مأخوذة من وَلَجَ يَلِجُ ولوجاً إذا دخل[114]. والمعنى أنه أقرَّ بالبيعة ، لكنه أدعى ما كان يحكمه في داخل قلبه ، وهو الولاء لبني أمية ، ومعاداة الإمام أمير المؤمنين (ع).

الثالثة : منازلة أهل الحق لأهل الباطل : يقول الحسن (ع) أن جيش الدولة بقيادة الإمام أمير المؤمنين (ع) قام بواجبه في حماية النظام والدولة، فما هو الضير في ذلك؟ هي ليست حرباً بين أهل الكوفة وأهل البصرة كما يزعم عبد الله الزبير، بل هو جيش الحق يواجه جيش الباطل. ومعركتنا اليوم ضد الباطل، نحاكمهم إلى الله تعالى، ولا مُعين ولا ناصر لنا إلا الله تعالى.

---

[114] لسان العرب – مادة: ولجَ.

رواية كتاب الجمل :

وفيها أن الحسن (ع) قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيّها الناس، إنّا جئنا ندعُوكم إلى اللهِ، وإلى كتابهِ، وسنةِ رسولهِ (ص)، وإلى أفقهِ من تفقّهَ مِنَ المسلمين، وأعدلَ مَنْ تعدلونَ، وأفضلَ مَنْ تفضلونَ، وأوفى مَنْ تبايعونَ، مَنْ لم يَعبْهُ القرآنُ، ولم تجهلهُ السّنّةُ، ولم تقعُدْ به السابقةُ، إلى مَنْ قرّبه اللهُ تعالى، ورسولُهُ قرابتين: قرابةُ الدينِ، وقرابةُ الرحمِ. إلى مَنْ سَبِقَ الناسَ إلى كلِّ مأثرةٍ. إلى من كفى اللهُ بهِ رسولَه والناسُ متخاذلونَ، فقرُبَ منهُ وهم متباعدونَ، وصلّى معهُ وهم مشركونَ، قاتلَ معهُ وهم منهزمونَ، وبارزَ معهُ وهُم مجمعونَ، وصدّقه وهم يكذبونَ، كلُّ ذلك مَنْ منَّ اللهُ على عليٍّ (ع). إلى من لم تردّ له ولا تكافأ له سابقة، ثم واللهُ ما دعا إلى نفسهِ، ولقد تداكَّ الناسُ عليهِ، تداكَّ الإبلِ الهيمِ عند ورودها، فبايعُوه طائعين، ونكثَ منهم ناكثون، بلا حدثٍ أحدث، ولا خلافٍ اتاه، حسداً له وبغياً عليه.

أيها الناس! إنه قد كان من مسيرِ أميرِ المؤمنين ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنفرين، لأنكم جبهةُ الانصارِ، ورؤسُ العربِ. وهو يسألكم النُصرةَ، ويدعوكم إلى الحقّ ويأمركم بالمسيرِ إليهِ، لتؤازرُوه وتنصرُوه، على قومٍ نكثوا رايةَ بيعتهِ، وقتلوا أهلَ الصلاحِ من أصحابهِ، ومثَّلوا بعمالهِ وانتهبوا بيتَ مالهِ. فإشخِصوا إليهِ – رحمكُم اللهُ – فأمروا بالمعروف، وأنهوا عن المنكر، واحضروا بما يحضر بهِ الصالحونَ .

وأيمَّ الله، لو لم ينصرهُ أحدٌ منكم، لرجوتَ أنْ يكونَ فيمن أقبلَ معهُ من المهاجرينَ والأنصارِ كفايةً. فأجيبوا دعوةَ أميركم، وسيروا إلى إخوانِكم،

سيوجدُ لهذا الأمرِ من ينفرُ إليهِ، ووالله لأن يليهِ أولو النّهى، أمثلُ في العاجلِ والآجلِ، وخيرٌ في العافيةِ، فأعينونا على ما إبتُلينا به، وأبتُليتم. وأنّ أميرَ المؤمنينَ يقولُ: قد خرجتُ مخرَجي هذا ظالماً أو مظلوماً، فأُذكّر باللهِ رجلاً رعى حقَّ اللهِ إلاّ نفرَ، فإنْ كنتُ مظلوماً أعانني، وإنْ كنتُ ظالماً أخذَ مني. والله إنّ طلحةَ والزبير، لأوّلَ من بايعني، وأوّلَ من غدر. فهل استأثرتُ أو بدّلتُ حكماً ؟

فعليكم عبادَ اللهِ بتقوى اللهِ وطاعتهِ، والجدّ والصبر، والاستعانة باللهِ، والخفوف إلى ما دعاكم إليهِ أميرُ المؤمنين...)[115].

في هذه الخطبة البليغة للحسن (ع) أفكاراً مهمة نرتبها في ست نقاط، هي :

الأولى : الدعوة إلى الإسلام : وهي أن جيش الإمام (ع) إنما جاء إلى البصرة تحت راية الحق، والدعوة إلى الله وإلى كتابه، وسنّة رسوله (ص)، والإلتزام ببيعة إمام الحق (ع). وهذا هو جيش العدل والتوحيد، وإنما جاء ليحارب الناكثين، وليصحح ما انحرف من أصول الدين ومفاهيمه.

قام الحسن (ع) برد إدعاء عبد الله بن الزبير، فأعلن (ع) بأن الإمام أمير المؤمنين (ع) إنما جاء لدعوتهم إلى الله وأحكام دينه، ولم يأتِ

---

[115] الجمل ص 158– 159. هناك من أشار إلى أن خطبة الإمام الحسن (ع) كانت موجهة إلى أهل الكوفة، بينما يشير كتاب الجمل إلى أنها كانت موجهة إلى أهل البصرة، وهو الأقرب إلى الصواب.

ليستولي عليهم أو على أرضهم .

الثانية : صفاتُ إمامِ الحق (ع) : يذكر الحسن (ع) صفات أمير المؤمنين (ع)، إمام الحق، بطل الإسلام علي بن أبي طالب (ع)، فهو أفقه المسلمين وأعلمهم، وهو الحاكم العادل الذي لا يغفو له جفن حتى ينشر العدالة بين الناس، وهو أفضل المسلمين بعد رسول الله (ص)، وأوفى الأوفياء له (ص) ولرسالة السماء، وهو الذي مدحه القرآن الكريم، ووصفه بصفات ولاية الأمر، والطهارة، والجهاد في سبيل الله، ووصفه رسول الله (ص) بصفات عظيمة أيضاً، كونه وصيه من بعده، ونفسه، ومنه (ص) بمثابة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعده .

ثم بدأ بذكر فضائله (ع) فقال هو الذي مدحه القرآن الكريم، ومدحته السنّة الشريفة بأعظم الصفات، وهو الذي قاتل مع رسول الله (ص) في وقت إنهزم فيه المنهزمون، وثبت (ع) معه (ص) وصدّقه في وقت كذبه الآخرون. وبكلمة فقد كان علياً (ع) قريباً من رسول الله (ص) بقرابتين: القرابة الأولى: قرابة الدين، فيكون المؤهل بعد رسول الله (ص) للإمامة الشرعية. والقرابة الثانية: قرابة الرحم، فتكون ذريته ورثة رسول الله (ص).

الثالثة : أحداث البيعة ونكث الناكثين : كان الإمام علي (ع) زاهداً في الخلافة لسببين: الأول : وصية رسول الله (ص) له بإجتنابها تلك الفترة. والثاني : أنه بعد أن رآها قد أصبحت مُلكاً عضوضاً يتقاتل من أجلها من

لا يملك شروطها. فتداكَّ عليه الناس تداكَّ الأبلِ على الماء. فبايعوه بكامل حريتهم، فلا مجال للنكث بعد البيعة، لأن ذلك يعني سفك الدماء، وتهديم الدين، وزعزعة الدولة. والنكث إنما حصل لا لأنه (ع) عملَ عملاً مخالفاً للدين، بل لحسدٍ وبغيٍ عليه .

ونظام البيعة في الإسلام من أعظم نظم الحكم بين البشر، ومعنى البيعة بالإصطلاح هي إعطاء العهد من المبايِع على السمع والطاعة للإمام في غير معصية. وكانت طوائف من المسلمين تبايع النبي (ص) كما في بيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان. قال تعالى في كتابه المجيد: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)[116] .

الرابعة : طلب النصرة والعون : وقد شرحنا ذلك سابقاً، ونضيف أن طلب النصرة من الناس سوف تسمعه من كل إمام، بل من كل مُرسَلٍ من الله تعالى إلى البشر. مع فارق أن المرسَلين يطلبون النصرة من الله تعالى ويشتكون جحود الناس لهم، بينما يطلب الإمام (ع) النصرة من الناس بسبب نظام البيعة الذي هو عقدٌ ملزمٌ بين الطرفين : الإمام (ع) والمبايِع. فنظام الإمامة يوصي الناس بالإيمان قلباً، وبالنصرة عملاً. ذلك أن في نصرة الناس للإمام (ع) امتحانٌ لواقعية الإيمان في قلوبهم.

---

[116] سورة الفتح: الآية 10.

كان من أسلوب أهل البيت (ع) طلب النصرة من المسلمين، من أجل إتمام الحجة عليهم. ولذلك كان قول الحسن (ع): وهو يسألكم النُصرة، ويدعوكم إلى الحق، ويأمركم بالمسير إليه. والحسن (ع) طلب النُصرة سنة 41 هـ، فلم يُنصَر. والحسين (ع) طلب النُصرة من أهل الكوفة سنة 60 هـ، فلم يُنصر. والمشكلة الرئيسية التي تواجه الأنبياء والرسل وأئمة أهل البيت (ع) هي قلّة الناصر .

الخامسة : سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه : هذا المقطع من الخطبة يبين ضعف إيمان الناس بالجهاد في سبيل الله، ويبين أيضاً أن الإيمان الحقيقي بالإمامة لم يكن أمراً تلقائياً، فهم لا يدركون عمق المسؤولية تجاه الدين، ولا يدركون مدى تعطش القوى الأخرى للاستحواذ على السلطة . ولذلك قال (ع) : إن لم تنفروا، فإن الله سبحانه سيهيأ له من أهل العقول والفهم من يدرك أهمية الخروج معه ، فيخرجوا إمتثالاً لأمره (ع).

السادسة : عدالة الإمام الواجب الطاعة : أشار الحسن (ع) إلى قول أمير المؤمنين (ع) في خروجه لمحاربة الناكثين، عندما قال لهم أن العقل يحتمل احتمالين لا ثالث لهما: إما أن أكون ظالماً بحقهم، وإما أن أكون مظلوماً. فإن كنتُ ظالماً فحاسبوني. وإن كنتُ مظلوماً فأعينوني على أمري. فإن هذين الرجلين: طلحة والزبير هما أول من بايعاني ولما لم يجدا دنياً عندي كانا أول من غدر بيَّ .

يُستدل من النص إنّ مبايعة طلحة والزبير لأمير المؤمنين (ع) لم

تكن إمتثالاً لأوامر النبي (ص) والقرآن الكريم، بل كانت من أجل مصلحة ما، ولذلك كانا أول من بايع، وعندما لم يجدا عند أمير المؤمنين (ع) ما يبغيانه، كانا أول من غدر.

المحطة الثانية : الطلب من الإمام (ع) بالعفو

طلبَ الحسنُ (ع) من أمير المؤمنين (ع) العفو عن مروان بن الحكم بعد أن أُخذَ أسيراً يوم الجمل. وقد بايعه قبل ذلك وخرج مع من خرج مقاتلاً الإمام أمير المؤمنين (ع). قال له الحسن (ع): (يُبايعك يا أميرَ المؤمنين). قال (ع): (ألمْ يبايعْني بعدَ قتلِ عثمان، لا حاجةَ لي في بيعتهِ)[117]، لأنها كانت بيعةً كاذبةً.

ثانياً : محطات معركة صفين

وصفين هي المعركة التي دارت بين جيش الإمام علي (ع)، خليفة المسلمين، وجيش المتمرد على الخلافة الشرعية معاوية بن أبي سفيان، والي الشام في عهد عثمان بن عفان. عزله الإمام (ع)، لكنه رفض قرار الإمام فيه، وامتنع عن البيعة لأمير المؤمنين (ع)، واتخذ مقتل عثمان ذريعة لاطماع سياسية .

إستمرت المعركة تسعة أيام سجالاً بين الفريقين، قُتِلَ فيها الصحابي الجليل عمّار بن ياسر الذي قال عنه النبي (ص): (ويح عمار

---

[117] إعلام الورى ص 571.

تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)[118].

وأصبح معاوية وجيشه على شفير الهزيمة والهاوية، إلا أنّ عمرو بن العاص نادى خديعةً برفع المصاحف والتحكيم. فقال الإمام (ع) لأهل الكوفة الذين أحبوا التحكيم: (عباد الله! إمضوا على حقكم، وصدقكم، وقتال عدوكم، فإن معاوية، وعمراً، والضحاك، ومن معهم ليسوا بأصحاب دين، ولا قرآن، وأنا أعْرَف بهم منكم، فقد صحبتهم أطفالاً، وشر رجال، ويْحَكم والله ما رفعوها إلا خديعةً، ووهناً، ومكيدةً)[119]. ولم يطيعوا الإمام (ع) ومضوا إلى التحكيم.

المحطة الأولى : خطبة الحسن (ع) في صفين

هذه خطبة الحسن (ع) في صفين يدعو فيها الناس إلى قتال معاوية، فبعد أن يحمد الله تعالى ويقرُّ بالشهادتين، يقول (ع) : (أنَّ مما عظّمَ اللهُ عليكم مِن حقّهِ، وأسبغَ عليكم مِن نعمهِ، ما لا يحصى ذكرُه، ولا يؤدّى شكرهُ، ولا يبلغهُ قولٌ ولا صفةٌ.

ونحنُ إنما غضبنَا للهِ ولكم، فإنّه منَّ علينا بما هو أهلُه، أن تُشكَرَ فيهِ آلاؤُه وبلاؤُه ونعماؤُه، قولاً يصعدُ إلى اللهِ فيهِ الرضا، وتنتشرُ فيه عارفةُ الصدقِ، يصدق اللهُ فيهِ قولنا، ونستوجبُ فيهِ المزيدَ من ربّنا، قولاً يزيدُ ولا يبيدُ، فإنّه لم يجتمع قومٌ قطّ على أمرٍ واحدٍ إلاّ إشتدَّ أمرُهم، وأستحكمتْ

[118] صحيح البخاري ص 172 حديث 436.

[119] تاريخ الطبري ج 4 ص 34.

عقدتُهم، فإحتشِدوا في قتالِ عدوِّكم وجنودهِ ولا تخاذلوا، فإنَّ الخذلانَ يقطعُ نياطَ القلوبِ، وإنَّ الإقدامَ على الأسنةِ، نخوةٌ وعصمةٌ، لأنه لم يمتنعْ قومٌ قطّ، إلاّ رفعَ اللهُ عنهم العلّةَ، وكفاهم جوائحَ الذلّة، وهداهم إلى معالمِ الملّةِ)[120].

شرح (ع) لهم أصول شكر المنعِم على أنعمه، ودعاهم إلى الإتحاد على أمرٍ جامعٍ بينهم، نشرح خطبته (ع) ونضعها ضمن خمسة أمور ، هي :

الأول : نِعَم الله تعالى عليكم : أعظم النعم على الناس في ذلك الزمان هو وجود أئمة أهل البيت (ع) بينهم يرشدونهم إلى طريق الحق، ويعلمونهم مبادئ الإسلام، فهو كمن يدعوهم إلى شكر تلك النعمة العظيمة، وشكر بقية النعم التي أسبغها الله تعالى عليهم. لكن الناس في ذلك الزمان كانت لا تعي حجم النعم العظيمة التي أسبغها الخالقُ عليهم.

الثاني : غضبنا لله تعالى ولكم : هو يشكر الله تعالى على نعمته في الإسلام والإمامة، ويقول أن حياتهم (ع) كلها لله ، فهم حجج الله على أرضه، وولاة أمره على الناس، وإنما يغضبون لله تعالى لا لإنفسهم. وما على العباد إلا شكر الله على تلك النعم والالآء . يقول (ع) : إنما غضبنا لله ولكم. فالغضب لله تعالى لأنهم (ع) هم الموكلون بحفظ رسالته تعالى.

---

[120] بحار الأنوار ج 32 ص 405.

فهم يغضبون إذا انحرف الناس عن جادة الدين. ويغضبون للأمة، لأنهم (ع) يرون أن الأمة مظلومة فيغضبون لإنتهاك حرمتها، ويحاولون استرجاع حقها المغصوب. إذن فأي إنحراف عن الدين يؤدي إلى غضبنا لكم، لأننا نعرف أنكم مظلومون، مقهورون بأولئك الذين يحاولون غَصْبَ حقكم، وإبعادكم عن دينكم.

الثالث : الإجتماع يقوي الأمر : يدعوهم (ع) إلى الاتحاد والاجتماع على كلمةٍ واحدةٍ، وأمرٍ واحدٍ. ذلك أن الاتحاد يقوي عصبة المؤمنين ويقوي شوكتهم. والتفرق يؤدي إلى تمزقهم، وضعف شوكتهم. وقد قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...)[121] .

الرابع : الإقدام وعدم التخاذل : يدعوهم الحسن (ع) إلى الإحتشاد في قتال عدوهم، والإقدام على منازلة الباطل. لأن مصارعة الباطل تحتاج إلى حشد العقول والأبدان، وإلى تقوية العزيمة والتكاتف، وعدم التخاذل، لأن الخذلان في الحرب يقطع نياط القلوب، ويؤدي إلى الهزيمة وتمزق وحدة المؤمنين.

الخامس : الغنى بالله تعالى : يقول (ع) إن الإقدام على الموت في تلك الحرب ضد الظالم، هي إتباعُ دينٍ، وأصالةُ أخلاقٍ فهي عصمةٌ ونخوةٌ.

---

[121] سورة الشورى: الآية 13.

فإذا أقدم المؤمنون على قتال عدوهم، فإن الله تعالى :

أ – يرفع عنهم أسباب الهزيمة: وهو قوله (ع): إلا رفعَ اللهُ عنهمُ العلّةَ، وهي علّة الهزيمة. لأن من علل الهزيمة في الحرب هو الخوف من الموت. قال تعالى : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [122].

ب – يكفيهم جوائح الذلّة: والجوائح هي الدواهي والشدائد، أي أن الله تعالى يكفيهم بإقدامهم على قتال عدوهم شدائد المذلة والمهانة . قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [123].

ج – يهديهم إلى معالم الملّة: أي يهديهم إلى معالم الدين، وأحكامه، ونظمه. فالغنى كل الغنى بالله عزوجل، والإقدام على الموت ضد الظالم هو الحياة الحقيقية. قال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [124].

المحطة الثانية : خطبة الحسن (ع) بعد فشل التحكيم

ولما فشل التحكيم، وأضطرب بعض الناس، شرح الحسن (ع) المبرر الشرعي للتحكيم، وذلك بأمرٍ من أبيه (ع) فكان كلامه في هذين الرجلين عبد الله بن قيس الذي يُعرف بأبي موسى الأشعري، وعمرو بن

---

[122] سورة التوبة : الآية 41 .

[123] سورة محمد : الآية 7 .

[124] سورة آل عمران : الآية 169 .

العاص. فقال (ع) : (أيّها الناسُ! قد أكثرتُم في هذينِ الرجلينِ، وإنما بُعثا ليحكُما بالكتابِ على الهوى، فحكما بالهوى على الكتابِ، ومن كانَ هكذا لم يُسمَّ حَكَمَاً، ولكنه محكومٌ عليهِ، وقد أخطأَ عبدُ اللهِ بنُ قيس إذ جعلَها لعبدِ اللهِ بنِ عمر، فأخطأَ في ثلاثِ خصالٍ: واحدةٌ أنّه خالفَ أباهُ إذ لم يُرضهْ لها ولا جعلهُ من أهلِ الشّورى. وأخرى: أنه لم يستأمرْ الرجلَ في نفسهِ، ولا عَلِمَ ما عندَهُ من ردٍّ أو قبول[125]. وثالثُها: أنه لم يجتمعْ عليهِ المهاجرونَ والأنصارَ، الذين يعقدونَ الإمارة، ويحكمونَ بها على الناسِ. وأما الحكومةُ فقد حكّم النبيّ صلى اللهِ عليهِ وآلهِ وسلم سعدَ بنَ معاذ في بني قريظة، فحكمَ بما يرضى اللهُ بهِ، ولا شكَّ لو خالفَ لم يرضهْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ)[126].

بلاغة الحسنُ (ع) في توضيح الأصول الشرعية للتحكيم واضحة جلّية. فعندما طلب منه الإمام أمير المؤمنين (ع) إعتلاء المنبر لإرشاد الناس، وتبيين الحكم الشرعي في قضية خطيرة، كقضية التحكيم، بادر (ع) للتوضيح . وفي شرح ذلك أمور أربعة ، هي :

الأول : بُعثا ليحكما بالكتاب على الهوى فحكما بالهوى على الكتاب :

وهذا من أبلغ الكلام، فقد بُعِثَ الحكمان: أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص ليحكما بالقرآن الكريم ضد هواهم ورغباتهم، لكن بسبب جهلهما

---

[125] الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) ج 1 ص 44.

[126] جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ع) ج 2 ص 55.

ومراوغة طرف وضعف آخر حكما بهواهما ضد حكم القرآن الكريم. وذلك من أبشع طرق التحكيم. لأن المفترض أن يخافا الله أولاً، ولا يخافا الناس أصلاً، فيحكما بما أراد الله تعالى حتى وإن اعترض عليهما الناس. لكن الأمر بالنسبة لهما لم يكن كذلك. فقد كانا يراوغان في الحق ليكسبا الباطل.

الثاني : لم يكونا حَكَماً وإنما كانا محكومٌ عليهما : والنتيجة، وبسبب مراوغة أحدهما وهو عمرو بن العاص، وضعف الآخر وهو أبو موسى الأشعري، فلا يمكن أن نسميهما حكاماً يحكمون بالعدل والإنصاف، وإنما هما محكومان بهوى النفس، والطمع بالسلطة، وما يترتب عليها من منافع ومصالح.

الثالث : خطأ الأشعري : عدّد الحسن (ع) أخطاء أبي موسى الاشعري في قضية إمارة عبد الله بن عمر وأوصلها إلى ثلاثة:

أ – عبد الله بن عمر خالف أباه: أنّ عمر بن الخطاب لم يجعل إبنه عبد الله من أهل الشورى، ولم يرتضِ له الإمارة.

ب – لم يستأمر الرجل نفسه: أنّ عبد الله بن قيس الأشعري لم يسأل عبد الله بن عمر في قضية الإمارة ولم يعلم رده من قبولٍ أو رفضٍ.

ج – لم يجتمع عليه: أنّ المهاجرين والأنصار لم يجتمعوا على عبد الله بن عمر ، فكيف تعقد الإمارة لرجل لم تجتمع عليه الناس.

الرابع : الحكومة من سنّة النبي (ص) : شرح الحسن (ع) مبدأ التحكيم في الإسلام. وقال (ع) إنه سنّة نبوية شريفة، نستفيدها من عمل رسول الله (ص) في تعيين سعد بن معاذ في قضية بني قريظة.

كان سعد بن معاذ زعيماً للأوس، مطاعاً عندهم، فقبل بنو قريظة النزول تحت حكمه، فحكمَ عليهم بسبب نقضهم العهود وغدرهم بالمسلمين، فكان حكمه صحيحاً، ارتضاه رسول الله (ص).

كان بيان الحسن (ع) في غاية الدقة، فقد طعن بأهلية أبي موسى الأشعري في إنفاذ حكمه على المسلمين، بعد ان تبين خطاؤه، وفساد رأيه. ولاشك أن الطعن بأهلية الحَكَم، هو طعن بجوهر تحكيم ذلك الرجل.

ثالثاً : معركة النهروان

وهي المعركة التي وقعت في النهروان بين جيش الإمام (ع) والخوارج سنة 38 هجرية، وأدت إلى سحق الخوارج البالغ عددهم أربعة آلاف، ونجا منهم أقل من عشرة أفراد. والروايات في تلك المعركة حول دور الإمام الحسن (ع) شحيحة للغاية.

استشهاد الإمام علي (ع)

بعد رجوعه من صفين، وعند الليلة التاسعة عشرة من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة، خرج الإمام أمير المؤمنين (ع) في صبيحتها إلى مسجد الكوفة لصلاة الفجر، فضربه أشقى الأولين والآخرين وهو في سجوده. اجتهد الناس أن يقيموا الإمام (ع) في المحراب ليصلي بالناس،

فلم يطق النهوض، فتأخر عن الصف، وتقدّم الحسن (ع) فصلّى بالناس وأمير المؤمنين (ع) يصلي إيماء من جلوس، وهو يمسح الدم عن وجهه، يميل تارة ويسكن أخرى[127].

ثم أوصى (ع) للحسن (ع) بالإمامة، وهو يتنبأ بموته، فقال: (إني مقبوضٌ في ليلتي هذهِ، فاسمَعا قولي، وأنتَ يا حسن وصيي[128] والقائمَ بالأمرِ بعدي، وأنتَ يا حسين شريكَه في الوصيةِ. فاصمِتْ وكُنْ لأمرهِ تابعاً ما بقي، فإذا خرجَ من الدنيا فأنتَ الناطقُ من بعدهِ، والقائمُ بالأمرِ عنهُ)[129].

والفارق أنَ مقتل الإمام علي (ع)، وما تبعَ من وصيته (ع) بمعاملة الجاني معاملة المثل، لم تؤدِ إلا إلى مقتل الجاني وهو ابن ملجم المرادي. بينما أدى مقتل الخليفة الثالث، وبسبب استخدام مقتله لأسباب سياسية وهو ما أصطلح عليه بقميص عثمان، إلى ثلاثة حروب هي الجمل وصفين والنهروان، حيث قتل فيها عشرات الآلاف من البشر.

حكمة الحسن (ع) زمن إمامته

كان الإمام الحسن (ع) حكيماً في تعامله مع مجتمعه في الكوفة، فمع أنه كان يعلم المزاج العام فيها بعدم رغبتهم في القتال، إلا أنه ألقى

---

127 بحار الأنوار ج 42 ص 283.

128 الإرشاد ص 192.

129 إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ج 5 ص 140.

عليهم الحجة تلو الأخرى من أجل أن يستنفذ كل وسائل الإقناع. فهو (ع) مكلّفٌ بدعوتهم إلى جهاد معاوية لأن الأخير متمردٌ على حكم الإمام العادل، ولكن الناس شغلها حب الباطل على نصرة الحق. فهنا ثلاث محطات نشرحها كما يلي :

المحطة الأولى : في عزاء الإمام أمير المؤمنين (ع)

لما بزغ فجر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة النبوية، صلّى الإمام الحسن (ع) صلاة الفجر بالناس في مسجد الكوفة. وكان قد رجع لتوه من دفن أبيه أمير المؤمنين (ع)، ثم احتجب عن الناس.

عندها طلب الناس من ابن عباس أن يسأل الإمام الحسن (ع) ليخطب بهم. فخرج (ع) وعليه ثوب أسود واعتلى المنبر فخطب أول خطبة له بعد استشهاد أبيه (ع).

قال (ع) : (الحمدُ للهِ الذي كانَ في أوّليّتهِ، وحدانياً في أزليّتهِ، متعظّماً بإلهيتهِ، متكبّراً بكبريائهِ وجبروتهِ. ابتدأَ ما ابتدعَ، وأنشأَ ما خلقَ، على غيرِ مثالٍ كان سبق مما خلق.

ربّنا اللطيفُ بلطفِ ربوبيّتهِ، وبعلمِ خبرهِ فتقَ، وبإحكامِ قدرتهِ خلقَ جميعَ ما خلقَ، فلا مبدِّلَ لخلقهِ، ولا مغيّرَ لصنعهِ، ولا معقِّبَ لحكمهِ، ولا رادَّ لأمرهِ، ولا مستراحَ عن دعوتهِ. خلقَ جميعَ ما خلقَ ولا زوالَ لملكهِ، ولا إنقطاعَ لمدتهِ، فوقَ كلِّ شيءٍ علا، ومن كلِّ شيءٍ دنا، فتجلّى لخلقهِ من غير أنْ يكونَ يرى وهو بالمنظرِ الأعلى.

إحتجب بنورِهِ، وسما في علوِّهِ، فأستترَ عن خلقهِ، وبعثَ إليهم شهيداً عليهم، وبعث فيهم النبيين مبشّرينَ ومنذرينَ، ليهلكَ مَنْ هلكَ عن بيّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بيّنةٍ، وليعقلَ العبادُ عن ربِّهم ما جهلوُه، فيعرفوُه بربوبيتهِ بعد ما أنكروه.

والحمدُ للهِ الذي أحسنَ الخلافةَ علينا أهلَ البيتِ، وعندَهُ نحتسبُ عزانا في خيرِ الآباءِ: رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم، وعندَ اللهِ نحتسبُ عزانا في أميرِ المؤمنين. ولقد أُصيبَ بهِ الشرقَ والغربَ... ولقد حدّثني حبيبي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الأمرَ يملكُه إثنا عشرَ إماماً من أهلِ بيتهِ وصفوتهِ، ما منّا إلا مقتولٌ أو مسمومٌ)[130].

(لقد قُبِضَ في هذهِ الليلةِ رجلٌ لا يسبقُه الأوّلونَ بعملٍ، ولا يدركُهُ الآخرونَ. ولقد كانَ يجاهدُ مع رسولِ اللهِ (ص) فيقيهِ بنفسهِ. ولقد كانَ يوجّههُ برايتهِ فيكتنِفُهُ جبرائيلَ عن يمينهِ، وميكائيلَ عن يسارهِ، فلا يرجعَ حتى يفتحَ اللهُ عليهِ. ولقد توفّي في هذهِ الليلةِ التي عرجَ فيها بعيسى بنِ مريمَ، ولقد توفّيَّ فيها يوشع بن نون وصيّ موسى. وما خلّفَ صفراءَ ولا بيضاءَ، إلا سبعمائةِ درهمٍ بقيتْ من عطائه أرادَ أنْ يبتاعَ بها خادماً لأهلهِ)[131].

ثم خنقته العبرة، فبكى وبكى الناس معه، فلما هدأوا، استطرد قائلاً:

---

[130] عن كتاب الكفاية للحسين بن محمد بن سعيد الخزاعي، عن الجوهري، عن عتبة ابن الضحاك، عن هشام بن محمد عن أبيه. بحار الأنوار ج 43 ص 363.

[131] المستدرك على الصحيحين ج 3 ص 172.

(أيها الناس، مَنْ عرَفَني فقد عرَفَني. ومنْ لم يعرفني فأنا الحسنُ بنُ علي، وأنا ابنُ النبي (ص)، وأنا ابنُ الوصي. أنا ابنُ البشيرِ، أنا ابنُ النذيرِ، أنا ابنُ الداعي إلى اللهِ عزّ وجلّ بإذنهِ، وأنا ابنُ السّراجِ المنيرِ، وأنا من أهلِ البيتِ الذين أذهبَ اللهُ عنُهم الرجسَ وطهّرَهم تطهيراً، والذينَ افترضَ اللهُ مودّتَهم في كتابهِ إذ يقول : (... وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً...)[132]. فإقترافُ الحسنةِ مودّتُنا أهلَ البيتِ)[133].

في هذه الخطبة البليغة للإمام الحسن (ع)، وفي أول ظهور له بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين (ع)، يخطب (ع) خطاب الإمامة الشرعية، فيفصِّل في تمجيد الله تعالى ووصفه كما وصف نفسه في القرآن المجيد، ويشرح فضل أهل البيت (ع) على الأمة. في تلك الخطبة الكثير من الدلالات ، نذكر منها خمس ، وهي :

الأولى : حمدُ الخالقِ الواحد بأجمل صفات التوحيد : بدأ خطبته (ع) بوصف الخالق عز وجل بأعظم صفاته، فهو وحدانياً في أزليته، متعظماً بإلهيته، متكبراً بكبريائه. يصفه (ع) بصفات القدرة، والعلم، واللطف، والحكمة، والجبروت، والأزلية. فقد احتجب بنوره، وسما في علّوه، فأستتر عن خلقه. تلك صفاتٌ تحمل معاني عظمة الخالق، الدائم الأزلي الذي

---

[132] سورة الشورى: الآية 23.

[133] المستدرك على الصحيحين ج 3 ص 172. ورواه أحمد بن عبد الله الطبري في (ذخائر العقبى) ص 138.

يخلق الخلق، ويدبرهم، ثم يقضي بموتهم. وفي كل ذلك حكمةٌ بالغةٌ من حكمه تعالى. وتلك فاتحةٌ بالغةُ الأثرِ في خطبته بمناسبة استشهاد أبيه الإمام علي (ع).

الثانية : الإستشهاد بالنبوة : وبعد أن وصف الله تعالى بالوحدانية، عرج على النبوة فوصف محمداً (ص) بأجمل أوصاف الأنبياء (ع)، فهو (ص) الشهيد على الأمة، وهو المُرسَل المُنذِر المبشِّر، الذي يعلّمهم ما جهلوه، ويعرفهم بوحدانية خالق السموات والأرض.

الثالثة : الخلافة لأهل البيت (ع) : يحمدُ الله تعالى على إيكال أمر الخلافة إليهم أهل البيت (ع). ثم يذكر حديثاً مفصلياً حدّثه به رسول الله (ص) وهو: إن أمرَ الإمامة سوف يملكه إثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته، ما منّهم إلا مقتول أو مسموم. وهذا الحديث الشريف الذي يذكره الإمام الحسن (ع) مباشرة من فمِّ رسول الله (ص) له أهمية عظيمة، فهو حديث متصل إتصالاً مباشراً بالنبي (ص) يذكر أئمة أهل البيت (ع) بالعدد والصفة، ويتنبأ بمصيرهم (ع)، وهو الموت قتلاً أو تسميماً في سبيل الله تعالى.

الرابعة : صفات أمير المؤمنين (ع) : يذكر صفات أبيه الإمام علي (ع) فهو رجل لم يسبقه الأولون ولم يدركه الآخرون. كان عضد رسول الله (ص)، وساعِده الأيمن، وهو الذي آمن برسالته (ص) يوم كفر بها

الآخرون، وهو الذي نام على فراشه مستقبِلاً الموت الحتمي من سيوف المشركين، وهو الذي بقى في مكة يردُّ إماناتِ أهلها، فتحمّل مخاطر القتل والإغتيال، وهو الذي شارك في جميع حروب النبي (ص) إلا تبوك حين أمره النبي (ص) بالبقاء في المدينة، وهو الذي زهد في حياته، وعدل في حكمه، حتى أتاه اليقين شهيداً مظلوماً محتسِباً أمره إلى الله تعالى.

الخامسة : التعريف بنفسه : بعد ذلك عرّف بنفسه بأنه الحسن بن علي (ع)، ابن النبي (ص)، وابن الوصي (ع). ثم اسهب في وصف علاقته برسول الله (ص) فهو ابن البشير، وهو ابن النذير، وهو ابن الداعي إلى الله تعالى. هو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وذلك تعريف موجز إلا أنه جامعٌ مانعٌ، فوصف نفسه (ع) بالنسب وهو الإتصال المباشر برسول الله (ص)، وفاطمة الزهراء (ع)، وعلي بن أبي طالب (ع) . ووصف نفسه (ع) بالحسب أو بالوصف وهو طهارة أهل البيت (ع) الذين هو أحدهم. وتلك الطهارة المعنوية من الجهل والدنس هي طهارة سماوية لا يرتقي إلى مستواها إلا من إختاره الله لذلك المنصب الرفيع .

عرّف نفسه تعريفاً ذا خصوصية، فكان من شرفه أن ينسِبَ نفسه إلى رسول الله (ص)، وعلي بن أبي طالب (ع)، وفاطمة الزهراء (ع). وهذا من أعظم التعاريف، خصوصاً إذا قرأنا أقوال رسول الله (ص) فيه، وفي

أخيه الحسين (ع): (هذان إبناي فمن أحبهما فقد أحبني...)[134]، و(الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[135]. ويكفيه فخراً وشرفاً أن يقول (ع) أنا من أهل بيت النبي (ص) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

المحطة الثانية : بيعة الإمام الحسن (ع)

فأتى الناسُ ليبايعوه، فقال (ع): (الحمدُ للهِ على ما قضى من أمرٍ، وخصَّ من فضلٍ، وعمَّ من أمرٍ، وجلّلَ من عافيةٍ، حمداً يتمّ به علينا نعمَهُ، ونستوجبُ بهِ رضوانَه، إنّ الدنيا دارُ بلاءٍ وفتنةٍ، وكلُّ ما فيها إلى زوالٍ، وقد نبّأنا اللهُ عنها كيما نعتبر، فقدّمَ إلينا بالوعيدِ كيلا يكونَ لنا حجةً بعد الإنذارِ، فازهدوا فيما يغني وارغبوا فيما يبقى، وخافوا اللهَ في السرِّ والعلانيةِ. إنّ علياً (ع) في المحيا، والمماتِ، والمبعثِ، عاشَ بقدرٍ، وماتَ بأجلٍ، وإني أبايُعكم على أن تسالموا مَنْ سالمتُ، وتحاربوا مَنْ حاربتُ)[136].

كانت تلك خطبة قاطعة، فيها الكثير من المعاني والحكمة، نرتب معانيها بخمس ، هي :

الأول : حمدُ الله تعالى : يبدأ بحمد الله عز وجل على قضائه، بتحمل تلك المسؤولية العظيمة، التي لا يتحملها إلا من سلّحه الله تعالى بأداء تلك

---

134 المناقب ج 3 ص 382.

135 الإرشاد ص 204.

136 التوحيد ص 385 - 386 .

المهمة الصعبة. فله الحمد على كل حال في قضائه، وفضله، ونعمه، ورضوانه .

الثاني : الدنيا دارُ بلاءٍ وفتنةٍ : يحدد الإمام (ع) لهم بأن الدنيا هي دارُ البلاءِ والمصاعبِ، ودارُ الفتنِ والمحنِ. وكلُّ شيءٍ فيها إلى زوال، وقد أنذرنا الله بذلك. وتلك الفكرة إنما يعرضها (ع) حتى يبين للناس أن الخلافة ليست نزهة يتمتع بها الإنسان، بل هي مسؤولية عظيمة، وهي ابتلاء من الله تعالى، والأمرُ العظيم ينبغي على الإنسان أن يهتم به، ويحمله على محمل الجدّ، فلا يطمح لشيءٍ إلا مرضاة الله تعالى.

الثالث : الزهد في الدنيا : وهذا أفضل ما قيل في مناسبة مثل تلك، فالعالِم يعلم أن الدنيا لا تستحق الغبطة والفرح، بل لابد من الزهد فيها، خصوصاً لإمام الحق (ع)، فعليه الزهد في الحياة، ومخافة الله في السر والعلن. وطالما زَهِدَ إمامُ الحق (ع) في حياته، كان ذلك أمراً أساسياً لدوره المحوري بين الناس. والزهد في حياة الحاكم يؤدي إلى عدم الرغبة في حيازة الأشياء أو تملكها، ويؤدي أيضاً إلى التنزّه عن الطمع عما في أيديهم. وفي نهاية المطاف يؤدي إلى تحقيق العدالة بينهم. وتلك من أهم متطلبات الحكم الشرعي في الإسلام.

الرابع : عاش عليٌّ (ع) بقدرٍ وماتَ بأجل : وهذا أصدق ما قيل في أمير المؤمنين (ع) فهو في المحيا، والممات، والمبعث، عاش بقدرٍ قدّره الله

تعالى له، وماتَ بأجلٍ صممه الله له وهو الاستشهاد في محراب الصلاة، وفي مسجدٍ هو أحد أعظم مساجد الإسلام، وفي وقتٍ من أعظم أوقات العبادة وهو صلاة الفجر، وفي يومٍ من أعظم الأيام وهو أيام القدر ولياليه، وفي شهر من أعظم الشهور عند الله وهو شهر رمضان.

وما بين ولادته (ع) في جوف الكعبة المشرفة، وحتى استشهاده في مسجد الكوفة، كانت حياته (ع) عطاءً متواصلاً للإسلام. كان من حُسنِ أخلاق الإمام الحسن (ع) أن يذكر أباه (ع) بفضائله (ع)، وجهاده مع رسول الله (ص)، وزهده، وربط استشهاده (ع) بعلم الله تعالى، فقال: إن علياً (ع) عاش بقدرٍ ومات بأجلٍ.

الخامس : شرطُ المبايعةِ أن تطيعوا أمري : اشترط الإمام الحسن (ع) في مبايعته شرطاً حاسماً أساسياً في الحكم، وهو طاعته (ع) في السلم والحرب. فقال: إني أبايعكم على أن تسالموا من سالمتُ، وتحاربوا من حاربتُ. أي أن أمر السلم والحرب بيدي لا بيدكم، لأنني وبوصيةِ جدي رسول الله (ص) إمامٌ مفترض الطاعة، أوصلكم إلى منابع الخير إن اطعتموني في أمري.

عندها بايعه الناس، وإنما قَبِلَ مبايعتهم على شرطين مهمين، هما: أن يسالموا من سالم، ويحاربوا من حارب. بمعنى أنه هو الإمام المعصوم (ع)، القادر على تقدير الموقف الشرعي السليم في الحرب والسلم، أو القتال والمصالحة. فهو الذي يقرر الحرب والسلم، وعلى عموم الأمة الطاعة التامة له (ع).

ثم قام ابن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا له وقالوا: ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة فبايعوه[137]. ولم يورث من أبيه إلا العلم والتقى، والأخلاق الحميدة.

وقيل: أنّ أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: أبسط يدك أبايعك على كتاب الله عزّ وجلّ، وسنة نبيه، وقتال المحلّين. فقال له الحسن (ع): على كتاب الله، وسنّة نبيه، فإنّ ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت، وبايعه الناس[138].

المحطة الثالثة: خطاب ما بعد البيعة

ولما تمت البيعة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (معشرَ الناسِ: عَفت الديارُ، ومُحيت الآثارُ، وقلَّ الإصطبارُ، فلا قرارَ على همزاتِ الشياطين وحُكمِ الخائنين، الساعةُ واللهِ صحّت البراهينُ، وفُصّلت الآياتُ، وبانت المشكلاتُ، ولقد كنّا نتوقّعُ تمامَ هذهِ الآيةِ تأويلها، قال الله عز وجلّ: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)[139].

فلقد ماتَ واللهُ جدي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم، وقُتِلَ

---

137 مقاتل الطالبيين ص 51، وينابيع المودة ص 265.

138 تاريخ الطبري ج 5 ص 158.

139 سورة آل عمران: الآية 144.

أبي عليه السلام، وصاحَ الوسواسُ الخناسُ في قلوبِ الناسِ، ونَعِقَ ناعقُ الفتنةِ: [لقد] خالفتُم السّنّة، فيالها من فتنةٍ صمّاءٍ عمياءٍ لا يسمعُ لداعيها، ولا يجابُ مُناديها، ولا يخالفُ واليها، ظهرتْ كلمةُ النفاقِ، وسُيّرتْ راياتُ أهلِ الشّقاقِ. وتكالبتْ جيوشُ أهلِ المراقِ، من الشامِ والعراقِ، هلمّوا رحَمَكُم الله إلى الإفتتاحِ، والنورِ الوضّاحِ، والعلمِ الجحجاحِ، والنّورِ الذي لا يطفى، والحقُّ الذي لا يخفى.

ايّها الناسُ تيقّظوا من رقدةِ الغفلةِ، ومن تكاثفِ الظّلمةِ، فو الذي فلقَ الحبّةَ، وبرأَ النسمةَ، وتردّى بالعظمةِ، لئِن قامَ اليّ منكم عصبةٌ بقلوبٍ صافيةٍ، ونيّاتٍ مخلصةٍ، لا يكونُ فيها شوبُ نفاقٍ، ولا نيّةُ افتراقٍ، لأُجاهدنَّ بالسيفِ قُدماً، ولأضيقنَّ من السيوفِ جوانبُها، ومن الرّماحِ أطرافُها، ومن الخيلِ سنابكُها، فتكلّموا رحمكم الله)[140].

طلب (ع) منهم الموافقة على كلامه، أو التأييد لفحوى الخطاب، فلم يسمع منهم حرفاً بالإيجاب. فكأنما الجموا بلجام الصّمت. كانت تلك أول بوادر ركوب الأهوال.

في هذه الخطبة البليغة الحاسمة، وضع الإمام الحسن (ع) الناس على محك الجهاد، والقتال، فقد ضيّق من السيوف جوانبها، ومن الرماحِ أطرافها. يريدُ فقط النصرة من المسلمين.

بدأ (ع) خطبته بذكر الله عزّ وجلّ، وحمده، والثناء عليه، بتلك الالفاظ البديعة، واللغة الرائعة التي دأب على إستخدامها ائمة أهل البيت

---

[140] بحار الأنوار ج 53 ص 21.

(ع). فإنسجام المعاني، وغنى المفاهيم في كلام المعصومين (ع)، هو أعظم دليل على أن هدفهم (ع) كان هداية الناس، وإرشادهم إلى معرفة الله سبحانه وتعالى. وفي خطبته أمور أربعة نشرحها ، هي :

الأول : صحت البراهين وبانت المشكلات : حسم الإمام الحسن (ع) أمره في توضيح الأمر بصريح العبارة، وهو أن هناك من انقلب على عقبيه بعد وفاة النبي (ص). وهو بلاشك كان يشير إلى معسكر معاوية وتشبثه بالتمرد على خلافة الإمام علي (ع)، ومحاربته لإمام الموحدين الذي كان عضداً للنبي (ص) في جميع مراحل الإسلام. ومصاديق الآية الكريمة: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ...)[141] واضحة تمام الوضوح. فقد أصبح مُلك بني أمية مصداقاً من مصاديق الإنقلاب على الأعقاب بعد وفاة رسول الله (ص) !

الثاني : هتوف الشيطان بمخالفة السنّة النبوية : يقول (ع) أنه بعد وفاة رسول الله (ص)، وبعد استشهاد أمير المؤمنين علي (ع) أخذ الشيطان قلوب الناس بالوسوسة، خصوصاً وأن الآمال بدنيا الاسترخاء بدأت تراودهم للإبتعاد عن أئمتهم ودينهم .

---

[141] سورة آل عمران: الآية 144.

الثالث : هلّموا إلى الإفتتاح : وطالما ظهرت الإنحرافات الجلّية للدين، ومحاربة أهل البيت (ع) كان لابد للناس من أن تتجه لمناصرتهم. فهم النور الذي لا يطفى، والحق الذي لا يخفى. والناس تعرف الحق من الباطل، لكن الغالبية منهم كان يغريهم بريق الباطل، فينجذبوا إليه .

الرابع : لئِن قام إليَّ منكم عصبةٌ مؤمنةٌ لأجاهدن بالسيف : هنا بيت القصيد، فقد وضع الإمام الحسن (ع) يده على الجرح، وقال بضرسٍ قاطعٍ أريد منكم عصبةٌ مؤمنةٌ مجاهدةٌ في سبيل الله، حتى نصحح معاً ما فسد من أمر المسلمين. لأجاهدنَّ بالسيف قدماً، ولأضيقن من السيوف جوانبها، أي أحدّها حداً كي استطيع أن أُقاتل عدو الله، وانشر على الأرض الإسلام. وعندما دعاهم إلى الموافقة على رأيه، صمتوا صمت الموتى. فكأنما ألجموا بلجام الذل والخنوع. والجهاد يحتاج قلوباً قويةً، وعزماً راسخاً، وإقداماً ثابتاً. لكن القلوب الضعيفة لهؤلاء الذين أحبوا دنيا معاوية لا تتحمل مشاق الجهاد في سبيل الله.

وبعد أن وضع الأسس الثابتة لمعنى الإمامة، وما يترتب عليها من آثار طاعة الناس وإلزامهم بالبيعة، أعلن بصراحة إنه يريد مقاتلة معاوية، لأنه ظالم إغتصب حقاً ليس له، فقال (ع): لأجاهدنَّ بالسيف قدماً، ولأضيقنّ من السيوف جوانبها، ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سنابكها، ودعاهم إلى مؤازرته (ع). ولكنهم كانوا يأملون من بيعة الإمام الحسن (ع) عدم القتال والرضا بالباطل، ولذلك وصفهم الواصف: كأنما ألجموا بلجام الصمت. هنا، وبتلك اللحظات من التاريخ ابتدأ عصر ركوب الأهوال عند

الإمام الحسن (ع). فهل يلتزم بوصية أبيه (ع) في الإمساك عن ركوب الأهوال؟ الجواب على هذا السؤال يأتي في الفصل القادم بإذنه تعالى.

الفصل الثالث

النهي عن ركوب الأهوال

مقدمة. نظرية الإمساك عن ركوب الأهوال : المرحلة الأولى : إلقاء الحجة. المرحلة الثانية : بوادر ما خافَ ضلالته . المرحلة الثالثة : الإلتزام بعدم ركوب الأهوال.

مقدمة

تبدأ من الآن سيرة الإمام الحسن (ع) في مواجهة الأحداث السياسية على القاعدة التي أوصاه بها والده الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ومفادها تجنب ركوب الأهوال عندما تكون الظروف غير مؤاتية لأداء وظيفة الخلافة.

نظرية الإمساك عن ركوب الأهوال

هذه النظرية تدعو إلى الكف عن ركوب الأهوال. قال الإمام علي (ع) في وصيته : (... وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ)[142]. أرشده (ع) إلى الإمساك أو التوقف عن سلوك طريقٍ ضبابي غير واضح، يخاف أن يؤدي به وبمن حوله من المؤمنين الصادقين إلى الهلاك. كما لو دخل حرباً ضد عدو وهو يعلم أن جنوده الموالين له ظاهراً لا يكنّون له الولاء المطلوب، أو كما لو بنى على محاربة عدوٍ وانكشفت له خيانة النخبة من المقربين منه، أو كما لو اكتشف أن من وثق بهم يتآمرون لقتله وتسليمه للعدو!

كلمة (أمسكَ) تعني الأمر بالإنقطاع عن فعل الشيء. وكلمة (الضلال) لها أكثر من معنى، منها: الباطل، والهلاك، والوقوع في الخطأ، والعدول عن الطريق المستقيم عمداً أو سهواً، كثيراً أو قليلاً. وفي قوله

---

[142] شرح نهج البلاغة (م) ج 3 ص 37 –57 .

تعالى على لسان أبناء يعقوب لأبيهم: (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)[143]. أنهم يقصدون أنه لا زال يظنُّ خطأً أن يوسف (ع) لا يزال حياً. أما كلمة (الأهوال) فهي جمع هَول، والهَول هو ما عظم من الأمر وشنِع، وأفزع، وأخاف حتى عظّمه الواصف، وبالغَ فيه فجعله هائلاً. فيكون معنى وصية الإمام (ع) لابنه الحسن (ع) هو التوقف عن سلوك الطريق الذي كنت تخشى أن يوصلك وجماعتك إلى الهلاك، فالتوقف عن سلوك ذلك الطريق خيرٌ من ركوب الأهوال.

مرَّ الإمام الحسن (ع) من سنة الأربعين حتى سنة الواحد والأربعين من الهجرة بثلاث مراحل مع الأحداث التي كانت تدور من حوله، والأشخاص الذين كانوا يسيّرونها، وتلك المراحل هي:

أ – المرحلة الأولى: محاولة الإمام (ع) إرشاد الناس، وإلقاء الحجة عليهم.

ب – المرحلة الثانية: بوادر ما خافَ (ع) ضلالته.

ج – المرحلة الثالثة: تطبيق وصية أبيه (ع) بعدم ركوب الأهوال.

المرحلة الأولى : الإمام الحسن (ع) وإلقاء الحجة

كان أسلوب أئمة أهل البيت (ع) قبل أن يقدموا على أي عمل يخص الناس، إرشادهم ثم إلقاء الحجة عليهم، وذلك بدعوتهم بلغة واضحة صريحة يفهمونها إلى طلب النصرة، أو القتال، أو التصدي للظالم. ولم

---

[143] سورة يوسف: الآية 95.

يختلف اسلوب الإمام الحسن (ع) عن تلك القاعدة. ففي موقفه (ع) مع معاوية، ألقى الإمام (ع) الحجة عليه أولاً، ثم ألقى الحجة على الناس ثانياً.

أولاً: إلقاء الحجة على معاوية

حذر الإمام الحسن (ع) معاوية من تجدد الحرب، ودعاه إلى إلقاء السلاح، والدخول في طاعته (ع)، فكتب إليه رسالة فيها الكثير من المواعظ الحسنة الحكيمة، التي يفترض بولي الأمر أن يقوم بها تجاه العاصين المنشقين عن إمام الحق (ع). فكتب الإمام (ع) رسالة خطية، قال (ع) فيها :

(مِن الحسنِ بنِ عليٍّ أميرَ المؤمنينَ، إلى معاويةَ بنَ أبي سفيان، سلامٌ عليكَ، فإني أحمدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو.

أما بعدُ. فإنَّ اللهَ ﷻ، بعثَ محمداً رحمةً للعالمين، ومنّةً للمؤمنين، وكافّةً للناسِ أجمعين (لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)[144]، فبلّغَ رسالاتِ اللهِ، وقامَ بأمرِ اللهِ، حتى توفاهُ اللهُ غيرَ مقصّرٍ ولا وانٍ، وبعدَ أن أظهرَ اللهُ بهِ الحقَّ ومحقَ بهِ الشركَ، وخصَّ بهِ قريشاً خاصةً، فقالَ لهُ: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...)[145]. فلما توفّيَ، تنازعتْ سلطانَه العربُ، فقالتْ قريشُ: نحنُ قبيلتُه وأسرتُه وأولياؤُه ولا يحلُّ لكم أنْ تنازعونَا سلطانَ محمدٍ وحقّهِ، فرأتْ العربُ أنَّ القولَ ما قالتْ قريش، وأنَّ الحجّةَ في ذلكَ لهم على

---

[144] سورة يس: الآية 70.

[145] سورة الزخرف: الآية 44.

مَنْ نازعَهم أمرَ محمدٍ، فأنعمتْ لهم، وسلمتْ إليهم. ثم حاجْجنا نحنُ قريشاً، بمثلِ ما حاججتْ بهِ العربَ، فلمْ تُنصِفَنا قريشٌ إنصافَ العربِ لها.

إنّهم أخذوا هذا الأمرَ دونَ العربِ بالإنصافِ والإحتجاجِ، فلما صرنا أهلَ بيتِ محمدٍ وأولياءَه إلى محاجتِهم، وطلبِ النّصفَ منهُم، باعدُونا واستولو بالإجتماعِ على ظُلمِنا، ومراغمتِنا وللعنتِ منهم لنا. فالموعدُ الله، وهو الوليُّ النصير.

ولقد كنّا تعجّبْنا لتوثّبَ المتوثبينَ علينا في حقِّنا، وسلطانَ نبيِنا. وإنْ كانوا ذوي فضيلةٍ وسابقةٍ في الإسلامِ، وأمسكْنا عن منازعِتهم، مخافةً على الدينِ أنْ يجدَ المنافقونَ والأحزابَ في ذلكَ مغْمزاً يثلمُونه، أو يكونَ لهم بذلكَ سببٌ إلى ما أرادوا مِنْ إفسادهِ.

فاليوم فليتعجّب المتعجّبُ، مِن توثّبكَ يا معاوية، على أمرٍ لستَ مِن أهلهِ، لا بفضلٍ في الدينِ معروفٍ، ولا أثرٍ في الإسلام محمودٍ. وأنتَ ابنُ حزبٍ من الأحزابِ، وإبن أعدى قريشٍ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ ولكتابهِ. واللهُ حسيبُكَ فستردُّ عليهِ، وتعلمَ لِمنْ عقبى الدار، وباللهِ لتلقينّ عن قليلٍ ربَّك، ثم ليجزينَّك بما قدّمتْ يداكَ. وما اللهُ بظلاّمٍ للعبيدِ.

إنّ علياً لمّا مضى لسبيلهِ رحمةُ اللهِ عليهِ يومَ قُبِضَ، ويومَ منَّ اللهُ عليهِ بالإسلامِ، ويومَ يبعثُ حيّاً، ولاّني المسلمونَ الأمرَ مِن بعدهِ، فاسألُ اللهَ أن لا يؤُتينا في الدنّيا الزائلةِ شيئاً، ينقصنا بهِ في الآخرةِ مما عندَه مِن كرامةٍ.

وإنما حملَني على الكتابةِ إليكَ، الأعذارُ فيما بيني وبينَ الله عزَّ وجلّ في أمرِكَ، ولكَ في ذلكَ إن فعلتَه الحظَّ الجسيمَ والصلاحَ للمسلمين.

فدعْ التماديَ في الباطلِ، وادخُل فيما دخلَ فيهِ الناسُ من بيعتي، فإنّكَ تعلمُ: أني أحقُّ بهذا الأمرِ منكَ عندَ اللهِ، وعندَ كلَّ أوابٍ حفيظٍ، ومَن لهُ قلبٌ منيبٌ. واتّقِ اللهَ، ودعْ البغيَ، واحقنْ دماءَ المسلمينَ، فواللهِ ما لكَ خيرٌ في أن تلقى اللهَ من دمائِهم، بأكثرَ مما أنتَ لاقيه بهِ. وادخُل في السّلمِ والطاعةِ، ولا تُنازِع الأمرَ أهلَه، ومَنْ هو أحقُّ بهِ منكَ، ليطفيء اللهُ النائرةَ بذلكَ، ويجمعَ الكلمةَ، ويُصلحَ ذات البين.

وإن أنتَ أبيتَ الا التمادي في غيّكَ، سِرتُ إليكَ بالمسلمينَ، فحاكمتُكَ حتّى يحكمَ اللهُ بيننا، وهو خيرُ الحاكمين)[146].

مغزى رسالة الإمام الحسن (ع) :

تعدُّ رسالة الإمام الحسن (ع) لمعاوية وثيقة من وثائق إلقاء الحجة على المتمرد على الخلافة الشرعية للمسلمين (ع)، وفيها الكثير من الحقائق والحِكَم الجديرة بالتأمل والدراسة ، منها سبعُ حقائق ، هي :

الأول : بعثةُ محمدٍ (ص) رحمةٌ للعالمين : يبدأ رسالته (ع) بتذكير معاوية بحقائق النبوة الخاتمة لمحمدٍ (ص)، فقد بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وقوةً للمؤمنين، وإنعاماً من الله تعالى لهم، بعثه تعالى لجميع الناس نذيراً وبشيراً، فقام (ص) بتبليغ رسالة الله على أتمّ الصور، وعانى في سبيل ذلك أشدَّ المعاناة، وبعد أن أظهر اللهُ به الحق، وكسر به شوكة

---

[146] شرح نهج البلاغة (ح)، ج 4 ص 12.

الشرك توفاه تعالى وقت الأجل المحتوم. وتلك سنّة الله في الخلق والإيجاد، والموت والإفناء.

الثاني : النزاعُ بعد وفاته (ص) : وما أن توفي (ص) حتى تنازعت العربُ سلطانه. والسلطان هو القهر والغلبة، والقوة والنفوذ. فقالت قريش إن قوتنا نابعة من قوة محمد (ص) لأننا نحن قبيلته وأسرتُه. كان ذلك ادعاءهم على بقية العرب من غير قريش. فقد كانت دعواهم هو وراثة ما تركه النبي (ص) من قوة وسلطان بين الناس بعد وفاته (ص).

الثالث : إحتجاجٌ غيرُ منصفٍ : يقول (ع) أن إحتجاج قريش على قربهم من محمد (ص) وأفضليتهم على العرب كان إحتجاجاً لا يتسمُ بالإنصاف. لأن النبي (ص) عندما توفي إنما ترك العلمَ عند أهل بيته (ع). فكانت قريش تركز على ما ترك النبي (ص) من سلطة وقوة، بينما كان أهل البيت (ع) يركزون على أن ما تركه (ص) هو العلم الذي ورثوه (ع) عنه. وهنا بدأ الصراع بعد وفاة رسول الله (ص) بين السلطة وما تمثله من إمتيازات على المسلمين وبين العلم السماوي وما يمثله من قيم سماوية. وكان من نتيجة ذلك الصراع أن قريش استرجعت ما كانت تمثله من قوة سياسية قبل الإسلام، وعادت لتحارب أهل البيت (ع) بعلمهم الذي ورثوه عن رسول الله (ص).

الرابع : من توثب على حقِ أهل البيت (ع) : كان من الطبيعي أن يتسلم

أهل البيت (ع) بعد وفاة رسول الله (ص) زمام قيادة المسلمين من الناحيتين: العلمية والسياسية، لأن الدين السماوي علمٌ مكتوبٌ يُنقل إلى الموصى له. خصوصاً وهو الذي أوصى (ص) بلسانه الشريف بمسؤولية أئمة أهل البيت (ع) في ولاية الأمر، فقال (ص): (من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه)[147] ، (هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)[148] أي إذا آمنتم برسالتي وبكوني مرسلاً من قبل الله تعالى فعليكم بالإيمان بولاية علي بن أبي طالب (ع) من بعدي. تلك الكلمة الصريحة الواضحة كانت لا تحتاج إلى تأويلٍ. ولكن معاوية رفض كل ذلك من أجل أن يحكم المسلمين. ولم يكن هو أول القوم في منازعتهم، بل كانت هناك طبقة سياسية أحجم عن ذكرها الإمام (ع)، وقال أنها نازعتهم حقهم (ع) في الولاية والمسؤولية الشرعية في هداية الناس على خطى رسول الله (ص). وكان صريحاً في قوله (ع): أمسكنا عن منازعتهم، مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزابَ في ذلك مغمزاً يثلمون به الدين !

الخامس : إدانة معاوية لتوثبه عليهم (ع) : أدان الإمام (ع) توثب معاوية على ولاية المسلمين، وهو أبعد الناس عن تلك الولاية، فهو بعيد من ناحية الإيمان، حيث صُنِّفَ مع أبي سفيان من فئة الطلقاء في فتح مكة. وهو بعيد من ناحية العلم، حيث لم يتعلم شيئاً من رسول الله (ص).

---

[147] بحار الأنوار ج 37 ص 126.

[148] تفسير روح المعاني ج 22 ص 14.

فكيف وصل به الأمر أن يفرض نفسه على المسلمين حاكماً ؟

قدحَ الإمام (ع) في فضيلة معاوية المزعومة، بل نفى له أية فضيلة أو معروف أو أثر محمود في الإسلام، فقد عادى هو وأبوه رسولَ الله (ص)، وجيّش الجيوش لمحاربة إمام الحق علي بن أبي طالب (ع)، وجعل الخلافة مُلكاً عضوضاً بحيث تسلطت بنو أمية على خيرات البلاد، ومنعوا العباد من حقهم، وأفسدوا في الأرض، وأضافوا لإنفسهم فضائل ليست لهم. وهذا إسحاق بن راهويه، شيخ البخاري، يقول: " إنه لم يصح في فضائل معاوية شيء" [149].

السادس : ولاية الأمر بعد علي (ع) : قال الإمام الحسن (ع) أنه بعد استشهاد أمير المؤمنين (ع) ولاّه المسلمون ولاية الأمر، وبايعوه. فهي مسؤولية كبرى تحملها (ع) بعد أن بايعه الناس وهو جديرٌ بتلك المسؤولية، فهو الإمام المفترَض الطاعة الذي أوصى بتوليته رسول الله (ص). وهل بعد هذا الدليل الواضح دليل ؟!

ثم بيّن (ع) أنه أحق بولاية الأمر بعد أبيه (ع) ، فهو الإمام العادل الذي وجبت طاعته بعنق كل مسلم، كما أفاد رسول الله (ص): (الحسنُ والحسينُ إمامانِ قامَا أو قعدا)[150]. ولذلك فقد دعا (ع) معاوية للدخول في بيعته، وطاعته، وحقن دماء المسلمين.

---

[149] فتح الباري ج 7 ص 83.

[150] الإرشاد ص 204.

السابع : دعْ التمادي في الباطل : ثم دعاه (ع) إلى أن يدعْ التمادي في الباطل، ونهاهُ عن إيجاد الأعذار والأوهام من أجل التمسك بالحكم، وظلم الناس، والمسلمون بأمسّ الحاجة إلى إمامٍ عادلٍ ينقذهم من كل ذلك. دعاه (ع) إلى حقن دماء المسلمين، وعدم البغي، ودعاه إلى الدخول في طاعته (ع) الشرعية الصحيحة. ثم حذره بأنه إنْ تمادى في الغي، فسيسيّرُ إليه جنوداً من المسلمينَ كي يحاكموه .

ثبّت الإمام الحسن (ع) نقطة مهمة وهي إنه لما إستشهد أبوه علي بن أبي طالب (ع) ولاّه المسلمون الأمر من بعده. وبذلك أراد (ع) التأكيد على شرعية الولاية. فكانت بوصيةٍ من رسول الله (ص)، وبوصيةٍ من علي بن أبي طالب (ع)، وببيعةٍ من المسلمين، وتلك ولاية شرعية كاملة لا يخدشها شيء .

ثانياً : إلقاء الحجة على الناس في الكوفة

لما علم معاوية أن الإمام الحسن (ع) مزمِعٌ على المسير إلى الشام، كتب إلى عماله بتحريض الناس عليه (ع)، فقاموا بذلك، ثم سار بجيش جرار قاصداً العراق.

عندها أمر الإمام الحسن (ع) الناسَ بالإستعداد للمسير على طريق الشام لمواجهة جيش المتمرد على الخلافة، وعند اجتماعه بهم قام الإمام (ع) خطيباً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال (ع): (أما بعدُ: فإنَّ اللهَ كتبَ الجهادَ على خلقهِ وسمّاهُ كُرهاً، ثمَّ قالَ لأهلِ الجهادِ منَ المؤمنينَ:

(... وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[151]. فلسْتم أيّها الناسُ نائلينَ ما تُحبّونَ، إلا بالصبرِ على ما تكرهُون. أنه بلغني أنَّ معاويةَ بلغَهُ أنّا كنّا أزمعنا على المسيرِ إليهِ فتحرّكَ لذلكَ، فاخرِجُوا رحمَكم اللهُ، إلى معسكرِكم بالنخيلةِ، حتى ننْظر وتنْظُرون، ونرى وتَرْون)[152].

في هذه الخطبة ألقى الإمام (ع) الحجة على الناس، فبعد أن ذكر كيف أن الله حبب الجهاد للمؤمنين، دعاهم إلى الخروج والتجمع في مكان محدد، وهو معسكر النخيلة. في خطبته ثلاثة أمور مهمة نذكرها، وهي :

الأول : وجوب الجهاد : لاشك أن الجهاد مع الإمام (ع) من آل البيت (ع) واجبٌ شرعاً، خصوصاً عندما تكون الظروف مؤاتية للإعلان عن ذلك، وقد قال تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ...)[153]. كان (ع) يحتجُ عليهم حجةً تلو الأخرى ، حتى لا يبقى منهم من ينكر سماع دعوة الجهاد في سبيل الله مع إمام إكتملت فيه صفات الإمامة الكبرى، ومدحه رسول الله (ص) بالنص، وذكره القرآن الكريم في آيات عديدة. فالآن ليس هناك من مفرٍّ في وجوب الطاعة الكاملة لإمام الحق، واتباع ولي أمر الأمة (ع).

---

151 سورة الانفال: الآية 46.

152 شرح نهج البلاغة (ح)، ج 4 ص 13.

153 سورة الحج: الآية 78.

الثاني : الصبر على ما تكرهون : الجهاد ليس أمراً هيناً، بل هو أمرٌ صعبٌ خصوصاً وأنَّ المشاركة فيه تعني قتل النفس، أو الجرح، أو فقدان الأحبة من أبناء وأخوة. فلابد من الصبر على ما يكرهه الإنسان، وقد قال تعالى: (...وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[154] ، (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [155]. فالصبر على ما يكرهه الإنسان من أعظم الطاعات عند الله تعالى.

الثالث : الدعوة للخروج إلى النخيلة : ومن أجل إستحكام الحجة البالغة عليهم دعاهم للتجمع في معسكر النخيلة، الذي لا يبعد كثيراً عن الكوفة، بكامل عدتهم، واستعدادهم النفسي لمقاتلة العدو. لكنهم لم يكونوا مستعدين لذلك. وما صمتهم إلا دليلٌ على عدم رضاهم، لأنهم كانوا رجالاً يحبون أن يتكلموا كثيراً ولا يفعلوا إلا القليل . وإذا سكتوا بعد دعوة الإمام الحسن (ع) لهم ولم يجيبوه بالإثبات، فإن ذلك يعني رفضهم القتال. وهذا السكوت يختلف عن صمت النساء وقت خطبتهن، حيث يعدُّ السكوت علامة من علامات الرضا.

فسكتوا، فما تكلم منهم أحد ولا أجابَ بحرفٍ. فلما رأى ذلك عدي

---

[154] سورة البقرة: الآية 177.

[155] سورة البقرة : الآية 216 .

بن حاتم، قال: أنا ابن حاتم سبحان الله، ما أقبح هذا المقام؟ ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم، أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين كانت ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جدّ الجد فروّاغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله.

ثم إستقبل الحسن (ع) بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفقك لما يحمد ورده وصدره، فقد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا منك، وأطعناك فيما قلت وما رأيت. وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحب أن يوافيني فليوافي. ثم مضى لوجهه فخرج من المسجد، ومضى إلى النخيلة. فكان أول الناس وصولاً إلى المعسكر.

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التيمي فأنبوا الناس، ولاموهم، وحرضوهم، وكلموا الحسن (ع) بمثل كلام عدي بن حاتم في الإجابة والقبول. وكان هؤلاء من أهل الإيمان والصدق، ربما كانوا يعدّون على عدد أصابع اليد الواحدة. أما السواد الأعظم من أهل الكوفة، فكانوا من المتثاقلين عن الجهاد، الرافضين للقتال.

صفات القلّة من المخلصين :

فقال الإمام الحسن (ع) لهؤلاء المؤمنين الصادقين القلّة: (صدقتُم رحمَكُم اللهُ، ما زلتُ أعْرِفَكم بِصدقِ النيةِ، والوفاءِ بالقولِ، والمودَةِ الصَحيحةِ فجزاكُم اللهُ خيراً). ثم خرج الإمام (ع) إلى معسكره، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمره بحثّ الناس

واشخاصهم إليه، فجعل يستحثهم ويخرجهم، حتى التأم المعسكر[156].

نرجع إلى قاله الإمام الحسن (ع) بتلك الكلمات القليلة، وندرس دلالاته في نقاط ثلاث ، هي :

الأولى : الدعوة إلى الجهاد : وقف الإمام (ع) داعياً الناس إلى الجهاد والصبر على ما يكرهون، وقد سمى الله الجهاد كرهاً فقال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[157]، وجعل لهم موعداً في معسكر النخيلة خارج الكوفة. فكان أمرُ الإمام (ع) أمراً فورياً لا يستدعي التأخير، ولا المماطلة.

الثانية : المؤمنون مع الإمام (ع) عدداً : يتبين من القراءة الدقيقة للنصوص بأنّ أصحابه (ع) كانوا قلّة قليلة من المؤمنين، منهم المذكورة اسماءهم: عدي بن حاتم، وقيس بن سعد، ومعقل بن قيس، وزياد بن صعصعة وغيرهم ، وكذلك كتيبة عبيد الله بن العباس كما سيأتي . أما هوى الأغلبية من الناس فقد كان مع عدم القتال . كان موقف الإمام (ع) معهم صعبٌ للغاية. فواجبه الشرعي يحتّم عليه أن يكلّفَ الناس بالقتال، ولكنهم كانوا يتثاقلون من الجهاد، ولا يعيرون أهمية لمبادئ الدين أو أوامر

---

[156] مقاتل الطالبيين ص 60.

[157] سورة البقرة : الآية 216.

الإمام (ع).

الثالثة : المؤمنون مع الإمام (ع) صفةً : وصف (ع) أولئك القلّة الذين وقفوا موقف الأبطال بثلاث صفات في غاية الأهمية لكل مؤمن أن يتصف بها ، وهي :

أ – صدق النية : النية لا يعلمها إلا الله، لأنها من أفعال القلوب، فهي مخبأة في الصدور ولا يعرفها إلا الخالق عز وجل. فإذا صدقت النية صدقَ العملُ، وأصبحَ الإنسانُ مؤمناً بدينه، صادقاً في عمله. وهؤلاء القلّة المطيعون لإمامهم كانت نيتهم طاعة إمامهم (ع) إلى النهاية، لأنهم كانوا يعرفون نظرية الجهاد في سبيل الله، وكانوا يطبّقون مصاديقها.

ب – الوفاء بالقول : القول هو أسهل عمل يقوم به الإنسان، والتكلم بدون مصداقية يسميه العرب: لقلقة اللسان، وهو التعجل بالنطق، وعدم التثبت من القول. ولكن أن يفي الإنسان بقوله فذاك أمرٌ جيد وخطير. وصفهم الإمام (ع) بالوفاء بالقول، أي أنهم قالوا سمعاً وطاعةً لك، نحن بأمرك، وفي طريقنا إلى معسكرك، وقد قال تعالى في صفة هؤلاء: (... الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...)[158].

ج – المودة الصحيحة : وهي المحبة في الله تعالى، لا يريد بها المُحبّ إلا وجهه تعالى، وقد قال تعالى على لسان نبيه (ص) : (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ

---

[158] سورة البقرة: الآية 177.

فِي الْقُرْبَى ...)[159]. فالمودة الصحيحة هي المحبة الحقيقية الصادقة، وهي تعني إتباعاً لأمره تعالى، لا يريد منها الإنسان منفعةً دنيويةً.

كان جيش الإمام (ع) من الذين صمتوا ولم يجيبوه (ع) في دعوته للتحرك إلى النخيلة، مؤلفٌ من خليطٍ من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم ممن يؤثر قتال معاوية بكل حيلة، ولم يكن همهم نصر الإمام الحسن (ع)، وبعضهم أصحاب طمع في الغنائم، وبعضهم أصحاب عصبية إتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين[160].

لكن القلّة التي مدحها الإمام (ع) كانت بالمستوى المطلوب، ولا يمكن في تلك المرحلة مواجهة جيش جرار كجيش أهل الشام بتلك القلّة القليلة من المؤمنين.

المرحلة الثانية : بوادرُ ما خافَ ضلالَته

ظهرت في تلك الفترة بوادر خطيرة تنطبق على وصية أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع) في التوقف عن الطريق الضبابي، أو قل: خوف ضلالةَ الطريق، وهي قوله: (... وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ)[161]. وهذا الطريق بدأت ملامحه تتوضح، وأهم ما فيه هو: تثاقلهم عن الجهاد، وشراء الظالم ولاءهم

---

[159] سورة الشورى: الآية 23.

[160] الإرشاد ص 171.

[161] شرح نهج البلاغة (م) ج 3 ص 37- 57.

بالمال، وخيانة النخبة منهم من أهل الشرف. وسوف نتدبر الأمر بمراجعة كل فكرة ذُكرت هنا :

1 – التثاقل عن الجهاد

تظاهر المتثاقلون والمنافقون وأهل المصالح الدنيوية بتقديم الطاعة والولاء للإمام الحسن (ع) زوراً، وكانوا يرددون: أنت خليفة أبيك ووصيه! ونحن السامعون المطيعون لك فمرنا بأمرك !

كان الإمام (ع) يعرفهم ويعرف نواياهم، فيُجيبُهم (ع): (كذْبتُم واللهِ ما وفيَتم لمنْ كانَ خيراً مني، فكيفَ تفونَ لي؟ وكيفَ أطمئنُ إليكم، ولا أثقُ بكمْ، إنْ كنتُم صادقينَ فموعدَ ما بيني وبينكم معسكرَ المدائنِ فوافَوا إلى هناكَ)[162].

وعندها رأى (ع) أن المتخلفين أضعاف الذين أطاعوا أمره بالحضور إلى المعسكر، قام (ع) خطيباً، وقال: (غَررْتُموني كما غَررتُم مَنْ كانَ مِنْ قبلي، مع أيِّ إمامٍ تقاتلونَ بعدي؟ مع الكافرِ الظالمِ الذي لم يُؤمنْ باللهِ ولا برسولهِ قطّ، ولا أظهرَ الإسلامَ هو وبنو أمية إلا فرقاً من السيفِ؟ ولو لم يبقَ لبني أمية إلا عجوزٌ درداءٌ لبغتْ دينَ اللهِ عوجاً. وهكذا قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ)[163].

لقد أشار القرآن الكريم إلى المنافقين حينما نافقوا ضد رسول الله

---

[162] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

[163] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

(ص) فقال : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)[164]. ولم يقتصر نشاط المنافقين زمن رسول الله (ص)، بل تعدى كلَ زمانٍ تكون فيه النفوس ضعيفة ومتلونة. وفي عهد الإمام الحسن (ع) كَثُرَ المنافقون من الذين أضمروا في قلوبهم ما لم يظهروه للآخرين. في خطبته (ع) لهؤلاء المتثاقلين والمنافقين ملامح حكمة، نذكرها في النقاط الثلاث التالية :

الأولى : نفاق أهل الكوفة : واجههم (ع) بالحقيقة المرّة التي غطّت قلوبهم وعقولهم، فجعلتهم لا يروَّن الحقيقة الناصعة، وهي أنهم يقولون شيئاً، ويضمرون خلافه شيئاً آخر. فهم يقولون نحن معك، ولكن قلوبهم لم تكن معه (ع)، وإنما كانت مع دنيا معاوية، وما يحلمون به من أموال يبيعون بها ضمائرهم. منحهم الإمام الحسن (ع) الفرصة الأخيرة لإثبات إيمانهم، وإثبات صدق دعواهم، وهي أنه لو كنتم صادقين فعلاً، فليكن الموعد بيننا وبينكم في معسكر المدائن بكامل تجهيزاتكم الحربية! انتظرهم الإمام (ع)، لكنهم لم يكونوا هناك، ولم يأتوا.

عندها قال لهم لقد خدعتموني كما خدعتم من كان قبلي، ويقصد به أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع). وغررتموني كما غررتم من قبلي، أي عرضتموني وعرضتم مبادءكم للهلكِة. ومعنى الغرر هو التعريض للهلاك، كما يقول اللغويون.

---

[164] سورة المنافقون : الآية 1.

الثانية : مودتهم للظالم : يقول (ع) لهم ثم إذا أنتم خالفتم أمري وتركتم الجهاد معي ضد الظالم. فمن سيكون إمامكم غداً؟ أليس هذا الظالم الكافر الذي آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه سيصبح إمامكم؟ أليس هذا الذي لم يُظهِر الإسلام هو ولا عشيرته من بني أمية إلا خوفاً من السيف؟ أهذا أفضل لكم أم طاعتكم لإمامكم الذي أوصى به رسول الله (ص) ؟

الثالثة : قول النبي (ص) : لو لم يبقَ لبني أمية إلا عجوز درداء لبغتْ دينَ الله عوجاً: والعجوز الدرداء هي المرأة الطاعنة في السن التي لم يبق لديها، من الأضراس ما هو سالماً. ومعنى قول النبي (ص): أن تلك الشجرة من بني أمية لا يستقيم معها أمر. فقد كانوا يكرهون الإسلام إبتداءً من أبي سفيان، إلى ابنه معاوية إلى ذريته، وحتى انتهاء دولتهم الظالمة. وقول النبي (ص) على سبيل المثل بأن الشجرة المنحرفة إعوجاجاً لا يمكن تعديل ساقها، وكلما كبرت بتمادي الزمن كلما أصبحت أكثر إعوجاجاً. والإعوجاج هو الألتواء، والإنحراف عن القصد. فلو افترضنا أن بني أمية هلكوا ولم يبق منهم إلا تلك العجوز، لبغت دين الله عوجاً. أي أن الإنسان إذا لم ينشأ على الإيمان من صغره ، ثم بدا له أن يتظاهر به في آواخر حياته، فإنه لن يتساوى مع آخر آمن بالدين منذ نعومة أظفاره كعلي (ع)، وثبت عليه، وجاهد في سبيله بالنفس والمال حتى استشهد في محراب الصلاة .

2 – شراء الولاء بالمال

وجّه الإمام الحسن (ع) أول قادته من الجيش، وهو من كندة ويدعى بالحكم، بأربعة آلاف مقاتل وأمره (ع) أن يعسكر بالأنبار، واشترط عليه أن لا يحدث شيئاً حتى يأتيه أمره[165]. لكن ما أن وصل إلى الأنبار حتى أغراه معاوية بالمال فانقلب ولاؤه من الحسن (ع) نحو معاوية. وعندما سمع الإمام (ع) ذلك، بعث قائداً آخر من مراد في أربعة آلاف مقاتل آخر، فغدر المرادي أيضاً كما غدر الأول، وأنضم إلى معاوية. وعندما علم بخيانتهما، قال الإمام (ع) في الأول: (هذا الكنديُّ توجّهَ إلى معاويةَ، وغدرَ بيَ وبكم، وقد أخبرتُكم مرةً بعدَ مرةً أنّهُ لا وفاءَ لكم، أنُتمْ عبيدُ الدنيا. وأنا موجّهٌ رجلاً آخرَ مكانَهُ. وإني أعلم أنهُ سيفعلَ بي وبكم ما فعلَ صاحبَه، ولا يراقبُ اللهَ فيَّ ولا فيكم)[166]. وقال (ع) في الثاني: (قد أخبرتُكم مرةً بعدَ أخرى أنكم لا تفونَ اللهَ بعهودٍ، وهذا صاحبكُم المرادي غدرَ بيَ وبكم، وسارَ إلى معاوية)[167].

تُلاحظ في كلام الإمام (ع) المرارة من غدر هؤلاء القادة والجنود الذين كانوا يستلمون رواتبهم من بيت المال، لكنهم سرعان ما كانت تغريهم أموال معاوية، فيغدروا بعقيدتهم أولاً، ثم بإمامهم (ع) ثانياً. وعندما ينضم

---

[165] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

[166] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

[167] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

قائد الكتيبة إلى معاوية، فإنه يقنع جنوده بالإنضمام إلى العدو أيضاً. وفي كلام الإمام (ع) ثلاثة أمور نسردها كما يلي :

الأول : عبيدُ الدنيا : كان (ع) على علمٍ بنواياهم، فهم في الظاهر معه (ع)، ولكنهم باطناً كانوا مع دنيا معاوية. ولذلك وصفهم (ع) بأنهم عبيد الدنيا. ليس لهم دينٌ ولا مبدأٌ يسيرون عليه. وفي وضعٍ كهذا كان لابد للإمام الحسن (ع) أن يرتب في حساباته أنهم جزء لا يتجزأ من الأهوال العظيمة الآتية لا محالة.

الثاني : التنبؤ بخيانة الأمانة : فقد خان الكندي الأمانة، وانحاز إلى جهة معاوية لدراهم قليلة، ثم تنبأ الإمام (ع) بانحياز الثاني إلى معاوية لنفس السبب. وهذا هو الغدر الذي كان يخشاه الإمام (ع)، وغدرٌ من هذا القبيل كفيلٌ بأن يجعل الإمام (ع) يغيّر من خططه الآنية والبعيدة.

الثالث : عدم الوفاء بعهد الله تعالى : قالها (ع) صراحة بأنهم لا يوفون بعهودهم، ولا يحترمون مواثيقهم، فمع الغدر والخيانة، تباطأ البقية الآخرون من الذهاب إلى معسكر النخيلة عندما أمرهم بذلك. وبذلك توضحت الأمور رويداً رويداً، وكانت وصية أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع) واضحة في ذاكرته .

وأنتهز معاوية خيانة هؤلاء القادة، فكتب إلى الحسن (ع) يدعوه إليه، ويعلمه بغدر الناس به وبأبيه (ع) من قبل.

ولكن الإمام الحسن (ع)، ومن أجل إلقاء الحجة كاملة على أهل الكوفة ، أصرّ على دعوتهم إلى معسكره بالنخيلة. وكان (ع) هو من سار طريق النخيلة وعسكر هناك، وبقي عشرة أيام، فلم يحضره إلا أربعة آلاف رجل. في وقت يتسائل فيه المرء هل سيغدر هؤلاء الأربعة آلاف رجل به أيضاً مقابل الإغراءات المالية لمعاوية ؟!

الإنذار الأخير:

ثم انصرف راجعاً إلى الكوفة، فصعد المنبر وقال (ع): (يا عجباً مِنْ قومٍ لا حياءَ لهم ولا دينَ، ولو سلّمتُ لهُ الأمرَ فأيمَّ اللهِ لا ترونَ فرجاً أبداً مع بني أمية، والله ليسومُونكم سوءَ العذابِ حتى تتمنّوا أنَّ عليكم جيشاً جيشاً، ولو وجدتُ أعواناً ما سلّمتُ لهُ الأمرَ لأنه محرّمٌ على بني أمية، فأفٍ وترحاً يا عبيدَ الدنيا)[168].

بعد أن أدرك (ع) أنه لا يمكن الإعتماد عليهم في حرب طاحنة بين الحق والباطل، كان عليه أن يضع النقاط على الحروف، ويبلغها لهم صريحة واضحة ، عبر أمور ثلاثة ، هي :

الأول : الإنذار الأخير لأهل الكوفة : كانت تلك الخطبة بمثابة الإنذار الأخير لأهل الكوفة. فقد دعاهم إلى الإجتماع في معسكر النخيلة، وربما تتوقع أن يتجمع مائة ألف مقاتل، أو ربما ضعف ذلك من الذين يعملون

---

[168] بحار الأنوار ج 44 ص 43.

في جيش الإمام (ع) . إلا أن من جاء منهم إستجابة لندائه (ع) لا يتجاوز الأربعة آلاف. وهذا دليلٌ على أنهم كانوا لا يريدون قتال معاوية، ولا الجهاد مع الإمام (ع) في سبيل الله تعالى. إذن، ليس من الحكمة الدخول في معركة خاسرة من قبل جنود ذو معنويات منهارة، يطلبون الدنيا عند معاوية ولا يجدونها عند الإمام الحسن (ع).

الثاني : قومٌ لا حياء لهم ولا دين : وصفهم الإمام (ع) بأنهم قومٌ لا حياءَ لهم ولا دين، فهم لا يستحيون من آل بيت النبي (ص) الأطهار، ولا يكترثون لأحكام الدين، والقرآن يخاطبهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)[169].

الثالث : المُشتكى إلى الله لعدم وجود الناصر : يقول الإمام (ع) أنه لو وجدَ أعواناً مخلصين لقاتلَ بني أمية حتى يذعنوا للحق، ولكن ماذا يعمل وقد خانه من ادعى أنه معه، وتحت أمرته (ع). فالخلافةُ محرمةٌ على بني أمية لأنهم أبعد الناس عن الدين، فكيف تُسلَّم لهم مقاليد أمور الأمة ودماؤها وأعراضها وأموالها؟! فالإمام الحسن (ع) يشتكي إلى الله تعالى بعدم وجود الناصر ولا المعين.

---

[169] سورة التوبة: الآية 38.

قشّة (عبيد الله بن العباس) القاصمة :

قضية عبيد الله بن العباس هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وأرجأت حرب الإمام (ع) مع معاوية. فقد توجه الإمام (ع) من الكوفة إلى المدائن بجيشه المتواضع حتى أتى دير عبد الرحمان، فأقام به ثلاثاً حتى إجتمع الناس، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له: (يا ابنَ عمّ، إني باعثٌ معكَ إثني عشرَ ألفاً من فرسانِ العربِ وقرّاءِ المصر الرجلُ منهم يزنُ الكتيبة. فسِرْ بهم وألنْ جانِبَكَ وابسِط وجهكَ، وافرِشْ لهُم جناحَكَ، وأدنِهِمْ مِنْ مجلسِكَ فإنهم بقيةُ ثقةِ أميرِ المؤمنينِ صلواتُ اللهِ عليهِ، وسرّ بِهم على شطِّ الفراتِ، حتى تقطعَ بهُم الفراتَ، ثم تصير إلى (مَسِكن)، ثم امضِ حتّى تستقبلَ معاويةَ، فإنْ أنتَ لقيتَه فاحبسُه حتى آتيكَ، فإني في أثرِكَ وشيكاً، وليكنْ خبركَ عندي كلَّ يومٍ، وشاوِرْ هذينِ – يعني قيسَ بنَ سعدٍ، وسعيدَ بنَ قيسٍ – فإذا لقيتَ معاويةَ فلا تقاتلنَّه حتى يُقاتلكَ، فإنْ فعلَ فقاتِل، فإن أُصبتَ فقيسَ بنَ سعد على الناسِ، وإنْ أُصيبَ قيسٌ، فسعيدَ بنَ قيس على النّاسِ)[170].

لم يجد الإمام الحسن (ع) حيلة أو وسيلة إلا أن يبعث اثنا عشر ألفاً من خيرة فرسان العرب، هم بقيةُ ثقة أمير المؤمنين (ع)، لمواجهة جيش الشام. لم يبقَ للإمام (ع) غير هذا الخيار الأخير. في هذا الموقف تُثار الأمور الثلاثة التالية :

---

170 مقاتل الطالبيين ص 40.

الأول : خيرةُ المؤمنين مع عبيد الله بن العباس : أرسل الإمام (ع) مع عبيد الله بن العباس إثنا عشر ألفاً من المقاتلين، وعيّنه قائداً لتلك الكتيبة الإستثنائية. فهم من فرسان العرب الأبطال، ذو الشجاعة والكفاءة في الحرب. وهذا عددٌ كبيرٌ من المقاتلين، خصوصاً وأن لهم مهارات كبيرةِ في الجهاد، ويحفظون القرآن الكريم ويقرؤونه بإنتظام. يصفهم الإمام (ع) بأن الواحد منهم يُقاس بكتيبة كاملة في الشجاعة والمهارة.

الثاني : عامِلْهم بأحسن المعاملة : أوصاه (ع) بأن يعاملهم بأحسن المعاملة. لأنهم ثقةُ علي (ع)، وما تبقى من المؤمنين بولايته. فقال له: كن ليناً معهم، بشراً بوجوههم، قريباً منهم، لا تجعل حاجزاً بينك وبينهم لأنهم ببساطة ثقة الإمام علي بن أبي طالب (ع). والظاهر من كلام الإمام الحسن (ع) أنهم كانوا يملكون الشجاعة والإيمان ونحو ذلك، لكنهم كانوا لا يملكون مَلَكة القيادة، ولذلك جعل عبيد الله بن العباس قائداً لكتيبتهم. ولو كان فيهم من امتلك الزعامة السليمة لعيّنه عليهم دون أن يضع عبيد الله بن العباس.

الثالث : التعليمات العسكرية : وضع الإمام (ع) لقائد الكتيبة تعليمات عسكرية صارمة، منها :

أ – إذا واجهتَ معاوية : فاحبسه عندك حتى أصل إلى مكانه، وأتعامل معه بما هو مناسب.

ب – أخبرني كل يوم بما يحصل : وضعتُكَ قائداً للجيش، ولكن لا يعني ذلك إنك مستقلٌ عن قراري، فلابد أن تكتب لي كل يوم بما يستجد لك.

ج – سُلّم القيادة : فليكن سُلّم القيادة هكذا بالترتيب: أنتَ عبيد الله بن العباس قائد الكتيبة، فإن أصُبتَ أو قُتلتَ فليكن قيس بن سعد هو القائد، فإن أُصيبَ قيس بن سعد أو قُتل فليكن سعيد بن قيس هو القائد على الكتيبة. فجعلَ (ع) تسلسل القيادة من ثلاثة مستويات حتى يضمن تماسك الكتيبة وقت الحرب.

سارَ عبيد الله بن العباس حتى وصل منطقة اسمها (مَسكِن). بينما أخذ الإمام الحسن (ع) طريقاً آخر، حيث نزل في منطقة أسمها (ساباط). والظاهر تاريخياً أن معاوية نزل بالقرب من (مَسكِن)، حيث كان عبيد الله بن العباس قائد الكتيبة المميزة لجيش الإمام الحسن (ع). وحصلت مناوشات بين الفريقين، ثم مفاوضات استخدم فيها معاوية الكذب والدهاء وادعى بأن الحسن (ع) راسله في الصلح، وأتفقا عليه، وكتب معاوية : فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع. ولك إن جئتني الآن أن اعطيك ألف ألف درهم، يعجل لك في هذا الوقت النصف وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر. فانسلَّ عبيد الله ليلاً، فدخل عسكر معاوية[171]. وتسلم ما وُعِدَ به من مال. فانفرط تماسك الكتيبة لهروب قائدها وخيانته للإمام الحسن (ع).

---

[171] مقاتل الطالبيين ص 42.

الإعلان المرتقب :

وبعد أن تيقن الإمام الحسن (ع) عدم وجود الدافع النفسي من جنوده في القتال، أصبح ونادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، وصعد المنبر فخطبهم ، قائلاً :

(الحمدُ للهِ كلَّما حمدَهُ حامدٌ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ كلّما شَهِدَ لهُ شاهدٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ. أرسلَهُ بالحقِ، وأئتمنَهُ على الوحي صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم.

أمّا بعدُ. فواللهِ أني لأرجو أنْ أكونَ قد أصبحتُ بحمدِ اللهِ ومنَّهِ، وأنا أنصحُ خلقَ اللهِ لخلقهِ، وما أصبحتُ محتمِلاً على مسلمٍ ضغينةً، ولا مُريداً لهُ سوءاً ولا غائلةً، ألا وإنَّ ما تكرهونَ في الجماعةِ خيرٌ لكم مما تُحبُّونَ في الفرقةِ، ألا وإني ناظرٌ لكم خيراً من نظرِكم لأنفسِكم، فلا تخالِفوا أمري، ولا تردّوا عليَّ رأيي، غفرَ اللهُ لي ولكم، وأرشدَني وإياكم لما فيهِ المحبةَ والرّضا)[172].

خاطبهم (ع)، وأمهلهم، وأخبرهم بأنهم سوف يستمعون إلى قرارٍ حاسمٍ غداً. وفي خطبته (ع) أمور ثلاثة ، هي :

الأول : أكملتُ وظيفتي في النصح لكم : يحمدُ اللهَ عزوجل على إكتمال الحجة عليهم، فقد قام (ع) بوظيفته الشرعية على أفضل وجه، فقد خاطبهم

---

[172] المستدرك على الصحيحين ج 3 ص 174.

وحذرهم ونهاهم وشجعهم على كل أمرٍ أمرَهُ الدين، لكنهم لم يأخذوا بما قالَ أو أمرَ، وكتب إلى معاوية نهاهُ فيها عن فعله، وحذّره الآخرة فلم ينتهِ. فما عساه أن يفعل؟

الثاني : الجماعةُ خيرٌ من الفُرقة : قال لهم أن قوة الجماعة على الرغم من كرههم القتال خيرٌ من الفرقة التي هي ثمرة حبهم السلام مع معاوية. لقد كانت قلوبهم مع الدنيا التي كان يزوقها لهم الظالم. حياةٌ بدون جهاد، أموالٌ تغدق عليهم يسمعون بها، ويحلمون ببريقها، وكانوا يتفننون في أذى الإمام (ع)، وجرحه بالكلمات، وعدم إطاعتهم له. كانت تلك حالة أهل الكوفة بداية العقد الرابع من القرن الأول الهجري.

الثالث : القرارُ الحاسم : قال (ع) لهم: وطالما كنتم على تلك الشاكلة، فقد حزمتُ أمري، واتخذتُ قراري، غداً سوف تسمعون مني ما كنتم تريدونه. فقد توصل الإمام (ع) إلى أن الجهاد مع هذه الفئة لا يستقيم. فللجهاد شروط، أهمها: الدافع نحو القتال، وطاعة ولي الأمر (ع) ، ومخافة الله تعالى، والنظر إلى الآخرة. وقد شدد القرآن الكريم على ذلك، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[173].

---

[173] سورة الأنفال: الآية 15-16.

ففهم من كان حاضراً نية الإمام (ع) مهادنة معاوية وعدم قتاله، فكثر اللغط بينهم . تأمل الإمام الحسن (ع) في وصية والده (ع) الذي استشهد قبل ثمانية أشهر فقط ، وهو (ع) يدعوه : (... وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ)[174]. كتب الإمام الحسن (ع) الى المتمرد على الولاية الشرعية يدعوه فيها ترك التمرد والإلتزام بإمارة الإمام الشرعي (ع) فرفضَ، ثم سارَ بجيشه نحو العراق. فعزم الإمام (ع) على مقابلته، وحرّض الناس على قتاله، ولكن الناس تثاقلت عن القتال، ومدّت أعناقها لأموال معاوية وأمانيه. بينما كان قادة جيشه (ع) يتسللون من معسكره (ع)، إلى معسكر العدو، يحدوهم الأمل بوعود الدراهم الأموية.

وراسل المنافقون من زعماء أهل الكوفة معاوية ووعدوه بالإنحياز إلى معسكره. في الوقت الذي كانوا يأتون إلى الإمام (ع) فيظهرون له الطاعة والولاء، ويقولون له: أنت خليفة أبيك ووصيه، ونحن السامعون المطيعون لك، فمرنا بأمرك!

مرارة الحسن (ع) منهم :

ابتنت سياسة معاوية على قاعدة إغراء قادة جيش الحسن (ع) بالمال، والمناصب، مقابل التخلف عن القتال، والتخلي عن إمامهم (ع).

---

174 شرح نهج البلاغة (م) ج 3 ص 37 – 57.

أعقب الإمام الحسن (ع) خطبته الماضية بخطبة أخرى، فيها الكثير من المرارة، فقال (ع) :

(ويلكم! والله إنَّ معاويةَ لا يفي لأحدٍ منكُم بما ضمنَهُ في قتلي، وإني أظنُّ إنْ وضعتُ يدي في يدهِ فأسلَمَهُ، لم يتركني أدينُ لدينِ جدّيَ، وأني أقدرْ أن أعبدَ اللهَ عزّ وجلّ وحدي، ولكنّي كأني أنظرُ إلى أبنائِكم، واقفينَ على أبوابِ أبنائِهم، يستسقونَهم ويستطعمونَهم، بما جعلَ اللهُ لهم، فلا يُسقوَنَ ولا يُطعَمونَ، فبعداً وسحقاً لما كسبتهُ أيديكمُ، فسيعلمُ الذينَ ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون!)[175].

وضع الإمام (ع) مسؤوليته الشرعية في الصدارة، وحاول أن يُفهِم أهل الكوفة بأن القضية تخصهم وتخص أجيالهم، وكل ما عمله (ع) كان من أجل عقيدته وعقيدتهم . نشرح قوله (ع) بالنقاط الثلاث التالية :

الأولى : عدم وفاء الظالم : قال (ع) لهم وحذرهم بأن معاوية لا دين له بحيث يضمن لكم الأمان، ولا وفاء له بحيث يضمن لكم عدم الغدر بكم، فهو يستخدمكم لأغراضه الخاصة ثم لا يفي لكم بما يعدكم. مبتغى معاوية هو قتل فكري أو إفناء جسدي، فإن استطاع أن ينجز كليهما فلا حائل في نظره يحول دون فعل ذلك. لو وضعتُ يدي في يده، لم أسلم على ديني، لأنه لا دين له. نعم دينه السلطة والإمارة والتسلط على الناس. أما ما تعلق بخوف الله فهو لا يخاف الله في شيء.

---

[175] بحار الأنوار ج 44 ص 33.

الثانية : المسؤولية الإجتماعية للإمام (ع) : يقول (ع) لو لم اضطلع بمسؤولية الإمامة لكنتُ قادراً على عبادة الله تعالى وحدي، لكني بسبب المسؤولية الملقاة على عاتقي أنظر إلى مصلحة الأمة، أنظر إلى مصلحتكم ومصلحة ابنائكم. فموقفي هو موقف المسؤول عن أمةٍ كاملةِ، ولستُ مسؤولاً عن نفسي فحسب. وحتى لو ذللتم أنفسكم له عن طريق خيانتكم لي، فسيأتي يوم أرى فيه ابناءكم يقفون ذليلين أمام قصورهم، لأنكم خذلتم ابناءكم بخيانتكم تلك !

الثالثة : بُعداً لما كسبته أيديكم : يُقال في اللغة العربية: بُعداً له أي سُحقاً وهلاكاً له، تلك العبارة تُقال للدعاء عليه. فالإمام (ع) يدعو على عملهم بالهلاك لأنهم هتكوا حرمة الدين، وفضلّوا الحاكم الظالم الذي لا يدين بسنّة رسول الله (ص) على ولي الأمة من ذرية محمد (ص).

أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم :

وما أن أصبح المال والركون إلى الدنيا أحد أسباب تضارب الولاءات في جيش الحسن (ع)، حتى قام (ع) بتذكيرهم مرة أخرى بحقيقة أن الموت في ذات الله عزّ وجلّ أمضى من الحياة في معصيته، فقال (ع) لهم :

(أما واللهِ ما ثنانا عن قتالِ أهلِ الشامِ ذِلّةً ولا قلّةً، ولكن كنُّا نقاتلُهم بالسلامةِ والصبرِ، فشيّبَ السلامةُ بالعداوةِ، والصبرُ بالجزعِ، وكنتُم في

مسيرِكم إلى صفّينَ ودينُكم أمامَ دنياكُم، وقد أصبحتْم اليومَ ودنياكُم أمامَ دينِكم، وكنّا لكمْ وكُنتم لنا، وقد صُرتم اليومَ علينا، ثم أصبحتُمْ تصدّونَ قتيلينِ، قتيلاً بصفّين تبكونَ عليهِ، وقتيلاً بالنّهروانِ تطلبُونَ بثأرهِ. فأما الباكي فخاذلٌ، وأما الطالبُ فثائرٌ. وإنَّ معاويةَ قد دعا إلى أمرٍ ليسَ فيهِ عزٌّ، ولا نصفةٌ. فإن أردتُم الحياةَ قبلناهُ منُه، وأغضينا على القذى، وإنْ أردتُم الموتَ بذلناهُ في ذاتِ اللهِ، وحاكمناهُ إلى اللهِ بظباتِ السيوفِ). فكان جوابهم: البُقيةُ البُقيةُ، والحياةُ على الموتِ والجهادِ[176].

في هذه الخطبة يشخص الإمام الحسن (ع) المشكلة في أهل الكوفة في أربع نقاط ، هي :

الأولى : طريقُ قتال أهل البغي : قال (ع) أن الطريق لقتال أهل البغي من أهل الشام كان لابد أن يتم عن طريق السلامة والصبر، أي بصدق النية والبراءة من العيوب الفادحة في الدين وتلك هي السلامة، والصبر على المكاره. ولكن ما أن بدأ معاوية بضخ المال، وشراء ذمم الناس حتى تحولت صفة صدق النية والبراءة من العيوب الدينية إلى عدواة، وتحول الصبر إلى جزع بحيث لا يستطيع الشخص منكم أن يتحمل المكاره في سبيل الله .

الثانية : دينكم أمام دنياكم : كنتم في الماضي وأنتم تحاربون في صفين

[176] بحار الأنوار ج 75 ص 107.

تضعون دينكم أولاً، وتتركون دنياكم وراء ظهوركم وهذا هو ما يطلبه الشرع والدين. أما اليوم فقد أصبحتم، وبسبب ميولكم نحو الدنيا، إلى وضع دنياكم أولاً، وترك دينكم. وبذلك أصبحتم أعداءً لنا.

الثالثة : آثار صفين والنهروان : الجهاد يصقل معدن الإنسان، فمن كان معدنه ذهباً يبقى ذهباً، ومن كان غير ذلك يبقى معدنه كما كان . يقول الإمام (ع) لهم أنتم الآن تضجون وتبكون قتيلين، الأول في معركة صفين ضد معاوية، والثاني في معركة النهروان ضد الخوارج. فإن كنتم تبكون حقيقة فإنما أنتم تخذّلون الناس عن الجهاد، وإن كنتم تبكون للطلب بالثأر فإنكم تطلبون لمجرد الثأر، لا بسبب إبتغاء وجه الله ، ولا بسبب إيمانكم لما تطلبون .

الرابعة : التخيير بين الحياة والموت : هناك خياران ، الأول : خيار معاوية، وهو يُريد الحكم على غير شرع الله، والحياة لكم. والثاني: خيار الإسلام، الذي يدعو إلى الموت في سبيل الله، ومقارعة معاوية بظباتِ السيوف.

وهكذا أدرك الإمام (ع) أن جيش الكوفة غير قادر على القتال، وأنّ أقحامه في قتال غير متوازن مع معاوية، يعني هزيمة عسكرية قاسية، وإنهزاماً للمبدأ. لأن انتصاراً عسكرياً لمعاوية يعني سحق فكرة الولاية، خصوصاً وأن الناس لم تختبر ولاية أهل البيت (ع) بما فيه الكفاية، ولم تتعود على معاناتهم الحقيقية في سبيل الدين.

3 – خيانة النخبة

لم ينحصر الأمر في عدم رغبة عموم الناس في القتال، ولا في انتقال الولاء لأولئك الثلاثة من قادة الجيش إلى معاوية، بل تعدى إلى خيانة أصحاب الشرف، وهم النخبة من أصحابه (ع). وبلغ الأمر ذروته عندما بلغه كتاب قيس بن عبادة، يخبره عن توجه أهل العراق إلى معاوية، فدعا (ع) حينئذٍ أصحابه وقال لهم :

(يا أهلَ العراقِ ما أصنعُ بجماعتِكم معي وهذا كتابُ قيسِ بنِ سعد[177]، يخبرني بأنَّ أهلَ الشرفِ منكُم قد صاروا إلى معاوية. أما واللهِ ما هذا بمنكَرٍ منكم؛ لأنكم أنتم الذين أكرَهتم أبي (ع) يومَ صفين على الحكَمين، فلما أمضى الحكومةَ وقَبَلَ منكم، إختلفتُم، ثم دعاكم إلى قتالِ معاويةَ ثانيةً فتوانيتم. ثم صارَ إلى ما صارَ إليهِ من كرامةِ اللهِ إياهُ. ثم إنّكم بايعتموني طائعينَ غيرَ مُكرهين، فأخذتُ بيعَتكم وخرجتُ في وجهي هذا. واللهُ يعلمُ ما نويتُ فيهِ، فكانَ منكم إلى ما كانَ. يا أهلَ العراقِ! فحسبي منكُم، لا تغروني في ديني فإني مسلّمُ هذا الأمر إلى معاوية...)[178].

---

[177] في الطبقات الكبرى لابن سعد: "ولم يزل قيس بن سعد مع علي (ع) حتى قتل علي (ع)، فصار مع الحسن بن علي (ع). فوجهه على مقدمته يريد الشام" . ج 6 ص 34.

[178] الفتوح ج 3 ص 291.

هذه الخطبة كشفت الوجه الحقيقي لأولئك الناس الذين عاشوا في تلك الفترة في المدينة المنكوبة ، مدينة الكوفة . كان موقف الإمام الحسن (ص) صائباً في التعامل معهم، نشرحه في النقاط الأربعة التالية :

الأولى : خيانة النخبة : تعدُّ خيانة النخبة من أعظم المعاصي التي تصيب الحركات الدينية. لأن الإمام أو الزعيم إنما يعتمد على النخبة في تنظيم العمل الإجتماعي مع الأمة. وقراءة دقيقة في خطاب الإمام الحسن (ع) يكشف ذلك فهو يقول: هذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية. فإذا كان أهل الشرف، وهم النخبة التي تطيع الإمام وتنقل أفكاره إلى الناس قد تخلوا عنه (ع)، فكيف يتم التحرك الإجتماعي بدونها؟

وطبيعة تغير سياسة تلك النخبة من أهل الشرف، كان غريباً. فلم تكن لديهم الجرأة على مواجهة الإمام الحسن (ع) في البداية. وكانوا يُظهِرون له الولاء والسمع والطاعة ولسان حالهم يقول: نحن السامعون المطيعون لك فمرنا بأمرك. ولكن الحسن (ع) أكتشف خيانتهم عبر رسالة قيس بن سعد. وهذا في غاية الخطورة، لأن ذلك الموقف كان أمراً قد دُبرَ بليلٍ. أي أنه كان خيانة بكل معنى الكلمة. وكونه خيانة : لأنهم خانوا الثقة التي وضعها فيهم الإمام (ع).

الثانية : التاريخُ يعيدُ نفسه : يخاطبهم (ع) بأنهم هم أنفسهم الذين طالبوا الإمام علي (ع) بالتحكيم في صفين، وعندما انتهى التحكيم وضعوا اللومَ

عليه (ع)، وهو الذي منعهم من التحكيم من البداية، وقال لهم: (عباد الله! إمضوا على حقكم، وصدقكم، وقتال عدوكم، فإن معاوية، وعمراً، والضحاك، ومن معهم ليسوا بأصحاب دين، ولا قرآن، وأنا أعْرَف بهم منكم، فقد صحبتهم أطفالاً، وشر رجال، ويْحَكم والله ما رفعوها إلا خديعةً، ووهناً، ومكيدةً)[179].

الثالثة : بيعتكم لي دون إكراه : ذكّرهم (ع) بأنهم قد بايعوه بملء إرادتهم، ولم يجبرهم أحد على ذلك. والبيعة بين ولي الأمر والرعية ملزِمة شرعاً. ولا يستطيعون أن يتلاعبوا بالبيعة بتلك الطريقة، ولكن كما قال الإمام (ع) أنهم لا دين لهم.

الرابعة : القرار الأخير : أعلن (ع)، وبسبب المبررات الموضوعية التي طرحها، فإنه سوف يعقد معاهدة هدنة مع معاوية، لعدم اكتمال شروط الخلافة، والقتال. وبذلك طبّق الحسن (ع) وصية والده (ع) في عدم ركوب الأهوال.

لم يكن أمام الإمام (ع) إلا إمضاء الهدنة مع معاوية، وهو (ع) كاره لها. لأن قتال معاوية لم يكن ليتم في الوضع الذي شرحناه للتو. فكيف يُقاتَلُ معاوية، وأركان جيش الحسن (ع) قد استسلموا للعدو قبل البدء بالقتال.

---

[179] تاريخ الطبري ج 4 ص 34.

أصبح عهد الهدنة الذي تحدث عنه الإمام (ع) سابقاً، هو الخيار الوحيد الذي لا مفر منه. فعن طريق الهدنة يستطيع الإمام (ع)، وهو عزيز الجانب، أن يشترط شروطاً واقعية على معاوية. ولسوف تبقى تلك الشروط في عنق معاويةٍ وفى بها أو تراجع عنها أو خالفها.

ولو أفترضنا أنّ الإمام الحسن وأهل بيته وأخيه الحسين (ع) قد دخلوا الحرب مع معاوية بتلك الطريقة، واستشهدوا جميعاً لكانت تلك نهايةً لدور ائمة أهل البيت (ع) في الحياة الدينية والاجتماعية للمسلمين. وهذا مخالف لوصية رسول الله (ص). فقد أوصى (ص) علياً (ع) وآل البيت (ع) بالصبر والإنتظار حتى يقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً. فكان في التدبير الآلهي أن تمر عشرين سنة ليتكرر ما حصل للحسن (ع) مع الإمام الحسين (ع) مع ظروفٍ مختلفةٍ. فصمدت فكرة الإمامة الشرعية عندها لما رأى الناس تفاني أهل البيت (ع) في سبيل دينهم ومبدأهم.

تنبأ الإمام أمير المؤمنين (ع) بأنّ معاوية سوف يستولي على حكم المسلمين، وتدين له العباد ويطول ملكه فيُميت الحق ويُظهر الباطل، فينتشر الظلم في كل مكان. وقد صدق علي بن أبي طالب (ع)، فقد تحقق كل ما تنبأ به من ملك بني أمية، وظلمهم العباد، وفسادهم في الأرض.

المرحلة الثالثة: الإلتزام بعدم ركوب الأهوال

في هذه المرحلة انكشف للإمام الحسن (ع) استحالة الدخول في حربٍ مع معاوية بجيشٍ لا يضمن ولاءه، وبقادةٍ تغريهم الدراهم والدنانير على حساب ولائهم لإمامهم (ع)، ورأى من أفعال النفاق منهم ما لا

يوصف بكلماتٍ، فكان لابد له من عدم ركوب الأهوال، كما أوصاه أبوه (ع). ومن أجل فهم تسلسل الأحداث، فسوف ندرس هدنته (ع) مع معاوية، وخطبته (ع) التفصيلية التي شخّص بها معالم الطريق، وأرسى قواعد الإمامة الشرعية التي تختلف عن مباني الخلافة. فلربما استولى الظالم بطريق السياسة على الخلافة، لكنه لا يستطيع أن يستولي على الإمامة، لأن الإمامة الشرعية طريقُ علمٍ لا يصل إلى فضيلتها إلا من إختاره الله تعالى لذلك. فهنا عنوانين رئيسين: الهدنة مع معاوية ، وخطبة الإمام الحسن (ع) التفصيلية :

1 – الهدنة مع معاوية

عندما أدرك الإمام (ع) القدرة القتالية المحدودة لجيشه، ورأى المصلحة الشرعية في مهادنة معاوية، كتب إليه :

(أما بعدُ. فإنَّ خطبيَ انتهى إلى اليأسِ منْ حقٍّ أحييتَهُ، وباطلٍ أمتَّهُ. وخطبُكَ خطبُ من انتهى إلى مواردِهِ، وإنّي أعتزلُ هذا الأمر وأخلّيهِ لكَ. وإنْ كانَ تخليتِي إياهُ شرّاً لكَ في معادِكَ. ولي شروطٌ أشترطُها، لأبتهظنَّكَ إنْ وفيتَ لي بها بعهدٍ، ولا تخف إنْ غدرتَ. وستندم يا معاوية كما نَدِمَ غيُرك، ممّنْ نهضَ في الباطلِ أو قعدَ عن الحقِ، حين لم ينفعْ الندمُ والسلام)[180].

في هذه الرسالة حقائق مهمة نذكرها في نقاط أربع ، هي :

---

[180] بحار الأنوار ج 44 ص 33.

الأولى : اليأسُ من إحقاق الحق : يقول الإمام (ع) بكل مرارة بأن حاله (ع) حالَ من انتهى إلى عدم الأمل بإحقاق الحق بسبب دسائس هذا الطاغية. فهذا المراوغ المتمرد على الولاية الشرعية استخدم كل الحيل من أجل أن يصرع الحق ويتغلب عليه، ويحكم باسم القبيلة الأموية. وأن حال معاوية هو حال من وصلَ إلى غاية مطامعه في الحكم والسلطة. ذلك لأن اسلوب الغدر والتحايل الذي استخدمه لعبَ بعقول الناس، فحرفهم عن المجرى الديني الذي جاء به الإسلام، وجاهد به المؤمنون، وماتوا من أجله.

الثانية : إعتزال أمرُ الخلافة : ثم أعلن (ع) أنه قرر اعتزال أمر الخلافة، فقال (ع) له: خذها الآن وقد قاتلتَ من أجلها، وفعلتَ الأفاعيل حتى تفوز بها، فلتكن شراً عليك، وقد أَمتَّ الدين، وأحييتَ البدع، فحسابك عند الله تعالى أشدّ الحساب.

الثالثة : شروط الإمام (ع) : قال (ع) أن لي شروطاً أشترطها عليك في كتابٍ لاحقٍ. وكانت شروط الإمام (ع) هي أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنّة رسوله (ص)، وأن يوقف سبَّ أمير المؤمنين (ع) من على المنابر، وأن يعطي الأمان للناس جميعاً، وبالخصوص لأصحاب علي بن أبي طالب (ع). وسوف نشرحها عندما ندرس وثيقة الهدنة بإذنه تعالى .

الرابعة : الندم يوم لا ينفع الندم : حذّره وتنبّأ له بأنه سوف يندم بما فعله يوم لا ينفع الندم على حقٍ قعدَ عنه، وباطلٍ عملَ به. والله عز وجل يُمهل الظالم لكنه لا يهمله سبحانه، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والخلاصة أن الإمام الحسن (ع) لم يثق بمعاوية، وعلم بإحتياله، غير أنه لم يجد بداً من إجابته إلى ما التمس من ترك الحرب وإنفاذ الهدنة، لما كان عليه أصحابه من ضعف في البصيرة في حقه، وإفساد الأمر عليه، والتخلف عنه (ع)، وما انطوى عليه كثيرٌ منهم في إستحلال دمه، وما كان من خذلانِ قادة جيش له أهمهم عبيد الله بن العباس، ومصيره إلى عدوه، وميل الجمهور منهم إلى العاجلة، وزهدهم في الآجلة. فتوثق (ع) لنفسه من معاوية بتوكيد الحجة عليه، والاعذار فيما بينه وبين الله تعالى، وعند كافة المسلمين[181].

وهكذا انتهت خلافة الإمام الحسن (ع) التي استمرت ستة أشهر وثلاثة أيام .

وثيقة الهدنة

ولما انتهى الأمر إلى المهادنة مع معاوية، كتب الإمام (ع) وثيقة الهدنة بشروطها، في الخامس عشر من جمادي الاولى سنة 41 للهجرة، استهدفَ منها صيانة الإمة بمالها، ونفوسها، وأعراضها، وأمِلَ منها بالحفاظ على ما تبقى من المؤمنين الصادقين.

---

[181] الإرشاد ص 172.

نستطيع ان نجزّأ الوثيقة بأفكارها الدينية والإجتماعية، فتكون مؤلفة من خمسة أفكار اساسية، هي:

1 - العمل بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ص).

2 - العهد للإمام الحسن (ع) بعد موت معاوية.

3 - رفع سب أمير المؤمنين (ع) من على المنابر.

4 - إجراء نظام عطاء مالي معين من بيت المال في الكوفة لبني هاشم، وأصحاب أمير المؤمنين (ع)، من اليتامى والأرامل.

5 - إعطاء الأمان لجميع الناس في أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم. وبالخصوص لشيعة الإمام علي (ع)، وعدم إيذائهم، أو التعرض لهم. وعدم البغي على ذرية النبي (ص)، خصوصاً الحسن والحسين (عليهما السلام)، ومن تعلق بهما.

وفقرات الوثيقة متناثرة في المصادر التاريخية، ويمكن جمعها وصياغتها بالشكل التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن عليٍّ بن أبي طالبٍ، معاوية بن أبي سفيان. صالحه: على أن يعمل فيهم بكتاب الله، وبسنّة رسوله (ص)[182].

وليس لمعاوية بن أبي سفيان: أن يعهد لأحدٍ - من بعده - عهداً

---

[182] المناقب ج 3 ص 195.

بل يكون الأمر للحسن من بعده[183]، فإنْ حدث به حدث، فلأخيه الحسين[184].

وأن يترك سبّ أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة، وان لا يذكر عليّاً الا بخير[185].

وإستثناء ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألفٍ، على معاوية أن يحمل إلى الحسين كلّ عامٍ ألفي ألف درهمٍ. وأن يفضّل بني هاشم في العطاء... وأن يفرّق في أولاد من قُتِلَ مع أمير المؤمنين يوم الجمل، وأولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهمٍ، وأن يجعل ذلك، من خراج (دار أبجرد)[186].

وعلى أنّ الناس آمنون، حيث كانوا من أرض الله، في شامهم، وعراقهم، وحجازهم، ويمنهم، وأن يؤمّن الأسود والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنْة[187].

وعلى أمان أصحاب عليٍّ حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة عليٍّ بمكروهٍ، وأنّ أصحاب عليٍ وشيعته آمنون على أنفسهم، وأموالهم، ونسائهم، وأولادهم، وأن لا يتعقّب عليهم شيئاً، وأن لا يتعرّض لأحدٍ منهم

---

[183] تاريخ الخلفاء ص 19، البداية والنهاية ج 8 ص 41.

[184] عمدة الطالب ص 52.

[185] مقاتل الطالبيين ص 26.

[186] تاريخ الطبري ج 6 ص 92. دار أبجرد: ولاية بفارس على حدود الأهواز.

[187] مقاتل الطالبيين ص 26. والإحنْةُ: الحقدُ في الصدور.

بسوءٍ، ويوصل إلى كلّ ذي حقٍ حقّه. وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله، وميثاقه، وما أخذ الله على أحدٍ من خلقه، بالوفاء بما أعطى من نفسه.

وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي، ولا لأخيه الحسين، ولا لأحدٍ من أهل بيت رسول الله (ص) غائلةً سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفقٍ من الآفاق[188]. شهد عليه بذلك الله، وكفى بالله شهيداً، والسلام)[189].

وعندما وصل الكتاب إلى معاوية، أعاد معاوية كتابة جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة، والأيمان المغلّظة، وأشهد على ذلك جميع رؤوساء أهل الشام. وكتب بهامشه: (وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه، بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه)[190]. ووجه به إلى عبد الله بن عامر، فأوصله إلى الحسن (ع)[191].

تحليل أفكار الوثيقة

في هذه الوثيقة أفكاراً شاملة نوضحها ضمن المحاور العشرة التالية:

---

188 بحار الأنوار ج 44 ص 65.

189 الإمامة والسياسة ص 200.

190 بحار الأنوار ج 44 ص 65.

191 الإمامة والسياسة ص 200.

الأول : معنى الصلح : كلمة (صالحَ) في اللغة العربية تعني: سالَمَ، أو سالمَهُ، وسلكَ معه مسلك المسالمة في الإتفاق. ولا تعني البيعة ولا ما يتعلقُ بها. ولذلك لم يكن معاوية بعد المعاهدة أميراً للمؤمنين. ولم يسمه الحسن (ع) بأمير المؤمنين قط. لأن معاوية في نظر أهل التقوى والإيمان ليس أهلاً لإمارة المسلمين، بل هو متمرد على الإمام علي (ع) في زمانه، فقاتله (ع) باعتباره خارجاً عن طاعة الإمام الشرعية. وتمرد أيضاً على الإمارة الشرعية للحسن (ع). فمعاهدة الصلح هي عملية مسالمة لم تتضمن بيعةً لمعاوية بحيث ترقى إلى مستوى الصلح، وألزمت معاوية بعدم الإعتداء على أهل البيت (ع)، وعدم الإعتداء على أتباعهم. وإنما تمت لظروف عدم مناصرة الناس للإمام الحسن (ع).

الثاني : العمل بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ص) : وهو أن يسلك معاوية مع الإمام الحسن (ع) مسلك المسالمة على أن يعمل بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ص). والعمل بالقرآن الكريم والسنة الشريفة تعني عدم قتل الإبرياء، وتطبيق العدالة بين الناس، وعدم التعدي على رموز الإسلام كالإمام علي بن أبي طالب (ع). وتعني أيضاً إرجاع الحقوق إلى أهلها. فمسلك المسالمة يعني تطبيق رحمة الإسلام بالناس بالرغم من اختلاف آرائهم.

الثالث : العهد من بعده إلى الحسن (ع) ثم إلى الحسين (ع) : اشترط عليه إن مات معاوية أن تكون ولاية العهد للحسن (ع)، فإن حدثَ به

حدثٌ فالأمر للحسين (ع). وهذا الشرط يعني أن الحسن (ع) يعلم أن فترة ما بعد الهدنة هي فترة زمنية استثنائية. فالخلافة بالأصل لهم (ع) بنص السنّة النبوية الشريفة، ولكن هدنة الإمام (ع) لم تكن لتعقد لولا تدهور ميول الناس.

الرابع : ترك سبّ أمير المؤمنين (ع) : دأب المتمرد على الخلافة الشرعية على سبّ الإمام علي بن أبي طالب (ع) من على منابر الشام، وقدحه في اذانهم بعد الشهادتين بالسبّ واللعن، وكذلك كان الأمر في قنوتهم في الصلاة، وهو الذي قال الله تعالى فيه على لسان نبيه (ص): (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[192]. فكان علي (ع) نفس النبي (ص)، ومنزلته كمنزلة هارون من موسى (ع) إلا أنه لا نبي بعده، بينما كان (ع) لبني أمية مادةً للطعن واللعن.

الخامس : القضايا المالية في بيت مال الكوفة : كان بيت المال في الكوفة بيد الإمام الحسن (ع) قبل المعاهدة، لأنه خليفة المسلمين والحافظ على بيت مال المسلمين. وكان فيه حوالي خمسة ملايين درهم. ولكن بعد المعاهدة اقتضى نقل بيت مال الكوفة إلى المركز، فكان من بنود الوثيقة أن يحمل للحسين (ع) منه كل عام مليوني درهم يوزعه على الفقراء من

---

[192] سورة آل عمران: الآية 61.

بني هاشم وغيرهم، ومليون آخر على من قُتل في صفين.

حَرَمَ معاوية أتباع الإمام علي (ع) من العطاء الذي كان مقرراً من بيت المال. وكان المسلمون يستلمون ذلك المبلغ الزهيد مما يتجمع من الخراج والغنائم ونحوها. ثبتها الإمام الحسن (ع) في معاهدة الهدنة، لأن معاوية لا يخشى الله في فقراء الأمة وأيتامها، فتكون حرب التجويع له هي أمضى وسيلة لتركيع المعارضين لحكمه. بينما كان الإمام علي (ع) يجعل الناس سواسية في العطاء ممن أحبوه أو كرهوه. قال الإمام علي (ع) موجهاً كلامه إلى قبيلتين تبغضانه وهما: باهلة، وغُنية، وهو يوزع عطايا بيت المال: (يا باهلة اغدوا خذوا حقكم مع الناس، والله يشهد أنكم تبغضوني وأني أبغضكم)[193].

السادس : الأمان للناس جميعاً : أخذ الإمام الحسن (ع) على معاوية في تلك المعاهدة أن يضمن للناس الأمان الإجتماعي، فلا يُرهبهم، ولا يكرههم على شيء، وتلك هي طبيعة الإسلام فهي تضمن الحفاظ على نفوس الناس، وأموالهم، وأعراضهم.

السابع : الأمان لأصحاب علي (ع) : كان أصحاب الإمام علي (ع) مستهدفون من قبل معاوية، فقد قتل الكثير منهم أمثال : عبد الله بن عبد المدان الحارثي وابنه في نجران، وحسان بن حسان عامل الإمام علي (ع)

---

[193] الغارات ص 12.

على الأنبار، وعبد الرحمن بن عبيد الله في اليمن، وغيرهم كثير.

الثامن : عدم البغي على الحسن والحسين (ع) : وهذا تأكيدٌ آخر على الإتفاق على عدم البغي وعدم التعرض للحسن والحسين (ع)، بل عدم التعرض لأهل البيت (ع) جميعاً، سراً ولا جهراً. وكان المعروف عن معاوية أنه كان يغدر بالمعارضين، خصوصاً أصحاب الإمام علي (ع)، فكان يسجنهم ثم يقتلهم.

التاسع : عدم تسمية معاوية بالإمارة : هادنَ الإمام الحسن (ع) معاوية للظروف التي ذكرناها سابقاً، هادنه على أن "لا يقيم عنده شهادة ..."[194]، بل أسقط إمرة المؤمنين عنه. وفي هذا تأكيد على عدم أهلية معاوية لإمرة المؤمنين وإدارة الدولة. فهي ليست مبايعة له، كما يزعم البعض. بل كانت مهادنة، اقتضى الزمن والظرف الصعب أن تتم بتلك الطريقة.

في كتاب (علل الشرائع) نقلاً عن أحدهم: " فسمعت القاسم بن محيمة يقول: ما وفى معاوية للحسن بن علي (ع) بشيء عاهده عليه، وإني قرأت كتاب الحسن (ع) إلى معاوية يعدُّ عليه ذنوبه إليه، وإلى شيعة علي (ع)، فبدأ بذكر عبد الله بن يحيى الحضرمي، ومن قتلهم معه. فنقول رحمك الله : أنّ ما قاله يوسف بن مازن من أمر الحسن (ع) ومعاوية عند

---

[194] التاريخ الكبير ج 8 رقم 3375 رواها الشيخ الصدوق بأسناده عن يوسف بن مازن الراسبي.

أهل التمييز والتحصيل تسمى المهادنة والمعاهدة. ألا ترى كيف يقول: ما وفى معاوية للحسن بن علي (ع) بشيء عاهده عليه وهادنه ولم يقل بشيء بايعه عليه" [195].

العاشر : ما بين سطور الوثيقة : تدلُّ وثيقة الهدنة على أنّ من تبقى من خاصة شيعته لا يقومون لجيش معاوية. وإنما هادنه (ع) خوفاً على أمته ودينه، وخوفاً على ما تبقى من شيعته المخلصين الصادقين.

2 – الخطبة التفصيلية للإمام الحسن (ع) بعد الهدنة

ولما تمت كتابة الوثيقة، وتم التوقيع عليها، خرج الإمام الحسن (ع) للقاء معاوية، وكان الإمام (ع) في المدائن.

وبعد ذلك تحرك الركبان إلى النخيلة، ولما اجتمعا قام معاوية خطيباً فصعد المنبر ثم تكلم. فقال، خلافاً لنصوص الإتفاق: "أيها الناس هذا الحسن بن علي، وابن فاطمة، رآنا للخلافة أهلاً، ولم يرَ نفسه لها أهلاً، وقد أتانا ليبايع طوعاً"[196]. ثم دعا الحسن (ع) للخطاب، فقام الإمام خطيباً. وسوف نقسّم خطبة الإمام الحسن (ع) إلى أجزاء حتى نشرح معانيها وأهدافها، ثم نربط كلّ ذلك في قضية عدم ركوب الأهوال.

---

195 علل الشرائع الباب 159 ص 212.

196 الإحتجاج على أهل اللجاج ج 2 ص 8.

مفتاح الخطبة :

يقول (ع): (الحمدُ للهِ المستحمَدُ بالآلاءِ وتتابعِ النّعماءِ، وصارفِ الشدائدِ والبلاءِ عن الفهماءِ وغيرِ الفهماءِ، المذعنينَ مِنْ عبادهِ، لامتناعهِ بجلالهِ وكبريائهِ، وعلوّهِ عنْ لحوقِ الأوهامِ ببقائهِ، المرتفعُ عنْ كنْهِ تظنياتِ المخلوقينَ، من أنْ تُحيطَ بمكنونِ غيبهِ رواياتُ عقولِ الرائينَ، وأشهدُ أن لا الهَ إلاّ اللهُ وحدُه في ربوبيّتهِ، ووجودهِ ووحدانيتهِ، صمداً لا شريكَ لهُ، فرداً لا ظهيرَ لهُ معهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، إصطفاهُ وأنتجبهُ وأرتضاهُ وبعثَهُ داعياً إلى الحقّ سراجاً منيراً، وللعبادِ مما يخلفُونَ نذيراً، ولما يأملونَ بشيراً، فنصِحَ للأمّةِ، وصدعَ بالرسالةِ، وأبانَ لهم درجاتِ العمالةِ، شهادةً عليها أموتُ وأُحشر، وبها في الآجلةِ أقربُ وأُحبر)[197].

افتتح الإمام الحسن (ع) تلك الخطبة البليغة بحمد الخالق عز وجل، ووصفه بصفات المجد والتعظيم، ثم تشهد بالشهادتين ، فهنا أمرين :

الأول : التمجيدُ والحمدُ لله تعالى : ابتدأ الإمام (ع) خطبته بالصفات الآلهية، فحمده (ع) بالنعم العظيمة التي أنزلها سبحانه على البشر، تلك النعم المتواصلة المتتابعة التي لا تنقطع، فما أن تنتهي نعمة حتى تبدأ نعمة أخرى رحمةً بالإنسانِ وعطفاً عليه. هو الله الذي يصرف الشدائد والمحن والابتلاءات عن هذا المخلوق مهما كانت درجة علمه وفهمه، وهو

---

[197] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

الذي لا تصل إلى كنهِ معرفته عقول المخلوقين، وهو المرتفع عن أوهام المتوهمين من الإحاطة بوجوده. يضع الإمام (ع) تلك الفكرة بهذا التعبير: المرتفع من أن تحيط بمكنون غيبه عقول الرائين. وكلمة (الرائين) هي: من رأى مُحِّدثَهُ، بمعنى أن الإنسان كلما تصور الله سبحانه فإنه على خلافِ ما هو عليه. أي أن عقول المخلوقين لا تحيط بطبيعة وجوده وكنهِ علمه وتدبيره سبحانه.

الثاني : الإقرار بالشهادتين : ثم يعلن شهادة أن لا إله إلا الله، شهادة التوحيد، وأن محمداً عبدُه ورسولُه (ص)، إجتباه (ص)، وبعثه داعياً إلى الحق، منذراً بالحساب والعقاب، ومبشراً بالثواب. فنصحَ للأمة، وصدعَ بالرسالة، فبلغنا صِدقَ ما قالَ، ووصلنا حقيقةَ ما بُعِثَ به، فهو الصادقُ الأمينُ (ص).

عليٌّ (ع) من محمد (ص) ومحمدٌ (ص) من علي (ع):

ثم يفتتح القول بمكانة أمير المؤمنين علي (ع) من رسول الله (ص)، فرسول الله (ص) يخاطبُ علياً: أنتَ رجلٌ مني.

يقول (ع): (وأقولُ معشرَ الخلائقِ فاسمعُوا، ولكم أفئدةٌ وأسماعٌ فعُوا، إنّا أهلُ بيتٍ أكرمَنا اللهُ بالإسلامِ، وإختارَنا وأصطَفانا واجتَبانا، فأذهبَ عنا الرجسَ، وطهّرنا تطهيراً، والرجسُ هو الشكّ، فلا نشكّ في اللهِ الحقَّ ودينهِ أبداً، وطهّرنا من كلِّ أفنٍ وعيبةٍ مُخلصينَ إلى آدمَ نعمةً منهُ. لمْ يفترقْ الناسُ قطّ فرقتين إلاّ جعلَنا اللهُ في خيرِهما. فأدت الامورُ، وأفضت

الدهورُ، إلى أن بعثَ اللهُ محمداً للنبوّةِ واختارَهُ للرسالةِ، وأنزلَ عليهِ كتابَهُ، ثم أمرَهُ بالدّعاءِ إلى اللهِ تعالى، فكانَ أبي أولَّ منْ استجابَ للهِ ولرسولهِ، وأولّ منْ آمنَ وصدّقَ اللهَ ورسولَهُ، وقد قالَ اللهُ تعالى في كتابهِ المنزل على نبيّهِ المرسل: (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ...)[198]، وأبي الذي يتلُوه وهو شاهدٌ منهُ، وقد قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم حينَ أمرَهُ أن يسيرَ إلى مكّة والموسم ببراءة: (سِرّ بها يا عليّ فإني أمُرِتُ أنْ لا أسيرَ بها إلا أنا، أو رجلٌ مني وأنتَ هو). فعليٌّ من رسول الله ورسول الله منه)[199].

يذكر الحسن (ع) هنا أهم صفات الإفتراق بين أهل البيت (ع) وبين معاوية، فيضعها (ع) ضمن الأفكار الثلاث التالية :

الأولى : صفاتُ أهل البيت (ع) وفضلهم : يخاطب (ع) أهل العقول والفكر، ويقول لهم: نحن أهلُ بيت النبي (ص) أكرمنا الله بالإسلام، واختارنا من دون خلقه لصفات ثلاث :

أ – محو الرجس عنا: فقد أذهب اللهُ الرجسَ عنا، فقال تعالى: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[200]. والرجس هو الشك في المعتقد، فنحن لا نشك بالله ودينه مطلقاً.

---

[198] سورة هود: الآية 17.

[199] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[200] سورة الأحزاب: الآية 33.

ب – إكتمال عقولنا: طهرنا الله من كل أفنٍ وعيبةٍ. والأفن: هو النقص في العقل. فقد اكتملت عقولنا بمعرفة صفات الله سبحانه، وطرق عبادته، ووسائل القرب منه.

ج – نحن مع أهل العقل والتقوى والخير: وطالما اختلف الناس على أساس الخير والشر، والعقل والجهل، والطاعة والمعصية، فقد جعلنا الله تعالى من أهل الخير والعقل والطاعة دائماً.

الثانية : ظروف النبوة والرسالة : بعد أن طوت البشرية مراحلَ في تاريخها القديم بعثَ اللهُ محمداً (ص) للنبوة، وأنزل عليه القرآن، ثم أمره تعالى بالدعوة لدينه، فكان علي بن أبي طالب (ع) أول من استجاب لدعوة الله تعالى ورسوله (ص) ، وأول من آمن وصدّق به.

الثالثة : عليٌّ (ع) من رسول الله (ص) ورسول الله (ص) من علي (ع):
يقول (ع) أن في أمير المؤمنين علي (ع) وردت خصلتان :

أ – الخصلة الأولى : قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ...)[201] ، والمعنى أن النبي (ص) كان على بيّنةٍ من أمر ربه تعالى. والشاهدُ عليُّ بن أبي طالب (ع). فعليٌّ (ع) يشهد للنبي (ص) بصدق ما بلّغَ به. وتلك منزلة عظيمة لعلي (ع) وقربه من رسول الله (ص). وقد ورد عن الحافظ أبي نعيم في هذه تفسير الآية قول ابن عباس

[201] سورة هود: الآية 17.

عن علي بن أبي طالب (ع) يقول : (رسول الله (ص) على بيّنة وأنا الشاهد)[202].

ب – الخصلة الثانية: السير بسورة براءة: أمره (ص) أن يسير بسورة براءة ويذهب بها إلى مكة لإبلاغ المشركين، فالنبي (ص) كان مأموراً أن يأخذها هو أو علي . وهذا هو قوله (ص): سِرْ بها يا علي فإني أمرتُ أن لا أسير بها إلا أنا، أو رجلٌ مني وهو أنتَ. فعليٌّ (ع) من رسول الله (ص)، له ميزة خاصة، ووظيفة استثنائية، وهي وظيفة الإمامة من بعده (ص).

تقديمُ عليٍّ (ع) في جميع المواطن :

يستمر الإمام الحسن (ع) في ذكر مناقب علي بن أبي طالب (ع)، وعلاقته برسول الله (ص).

يقول (ع): (وقالَ لهُ نبيُّ اللهِ (ص) حينَ قضى بينَهُ وبينَ أخيهِ جعفر بن أبي طالب، ومولاهُ زيد بن حارثة في إبنةِ حمزة (أما أنتَ يا عليّ فمني وأنا منكَ، وأنتَ وليُّ كلِّ مؤمنٍ من بعدي)، فصدّق أبي رسولَ اللهِ سابقاً ووقاهُ بنفسهِ. ثمّ لم يزلْ رسولُ اللهِ في كلِّ موطنٍ يقدّمهُ ولكلِّ شديدةٍ يرسلُه، ثقةً منهُ بهِ وطمأنينةً إليهِ، لعلمهِ بنصيحتهِ للهِ ورسولهِ، وأنّهُ أقربُ المقرّبينَ من اللهِ ورسولهِ، وقد قالَ اللهُ عزّ وجلّ: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ.

[202] تفسير الميزان ج 10 ص 196 .

أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[203] فكان أبي سابقَ السابقينَ إلى اللهِ عزّ وجلّ، وإلى رسولِهِ، وأقربَ الأقربينَ وقد قالَ اللهُ تعالى: (لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً...)[204])[205].

يشدد (ع) في هذا المقطع على مكانة علي (ع) من رسول الله (ص)، فهو أقربُ المقربين، وسابقُ السابقين، وأقرب الأقربين. فهنا نقطتان:

الأولى : أنتَ مني وأنا منك : تلك أعظم أقوال رسول الله (ص) في علي بن أبي طالب (ع)، وكأنه (ص) يقول إنّ طينتنا واحدة، تؤمن بالتوحيد، وتضحي في سبيل الله بكل ما تملك، ولا تكترث لهذه الدنيا إلا بما يحبُّ الله ويرضاه. فأنت مني وأنا منك، كإننا نسيجٌ واحدٌ، من مادة واحدة، ذو أهداف واحدة. ويضيفُ (ص) فوق ذلك بأنك يا علي وليُّ كلِ مؤمنٍ ومؤمنة من بعدي. وتلك شهادةٌ واضحة بالولاية والخلافة من بعده (ص). وهل هناك دليلٌ أقوى من ذلك على منزلة علي (ع) في الإسلام ؟

الثانية : أنتَ سابقُ السابقين : يقول (ع) أن أمير المؤمنين (ع) كان:

أ – أقربُ المقربين إلى الله تعالى : أي أنه مقرّبٌ بدرجات التفضيل إلى طاعته عز وجل . وقد قال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ

---

[203] سورة الواقعة: الآية 10-11.

[204] سورة الحديد: الآية 10.

[205] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

الْمُقَرَّبُونَ)[206]. والمعنى أنهم المقربون من الله بكرامته لهم .

ب – سابقُ السابقين : فهو (ع) سبق الجميع بالإيمان برسالة محمد (ص)، والدفاع عن الإسلام، والدفاع عن نبي الإسلام (ص)، والتضحية بحياته (ع) من أجله، فقد سبق الجميع في الفضيلة والمنزلة الرفيعة.

ج – أقربُ الأقربين إلى رسول الله (ص): وهو أقرب هاشمي إلى رسول الله (ص) بالتضحية والفداء ، فالقرابة هنا ليست قرابة الدم، وإنما هي قرابة الدين والإيمان بالعقيدة الواحدة . قال تعالى : (لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً...)[207] .

فالفرق بين المقرَّب من الله تعالى والأقرب من رسوله (ص) هو أن الأقرب : هو الأعظم في القرب ، وهو من أفعال التفضيل. فهو (ع) أقرب إلى رسول الله (ص). والمقرّب : اسم مفعول من قرَّبَ وهو من القرب أي على مسافة قريبة منه ، (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) [208].

جُمِعتْ لعليٍّ (ع) كل الفضائل:

بعد ذلك ، يعدد الإمام الحسن (ع) فضائل علي بن أبي طالب (ع) التي حاول الأمويون حذفها من قاموس الدين. فكان مجرد ذكر تلك الفضائل من قبل أي إنسان يعدُّ جهاداً عظيماً في سبيل الدين، لأن بذكرها

---

[206] سورة الواقعة: الآية 10-11.

[207] سورة الحديد: الآية 10.

[208] سورة الواقعة : الآية 11 .

إحياءٌ لسنّةِ رسولِ اللهِ (ص).

يقول (ع): (فأبي كانَ أوّلُهم إسلاماً وإيماناً، وأوّلُهم إلى اللهِ ورسولهِ هجرةً ولحوقاً، وأوّلُهم على وجْدهِ ووسعهِ نفقةً قالَ سبحانَـــهُ: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[209]. فالناسُ منْ جميعِ الأممِ يستغفرُونَ لهُ بسبقهِ إيّاهُم إلى الإيمانِ بنبيّهِ، وذلك أنَّهُ لم يسبقهُ إلى الايمانِ بهِ أحدٌ، وقد قالَ اللهُ تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ...)[210]. فهو سابقُ جميعِ السابقينَ، فكما أنَّ اللهَ عزّ وجلّ فضَّلَ السابقينَ على المتخلفينَ والمتأخّرينَ، فكذلك فضَّلَ سابقَ السابقينَ، وقدْ قالَ اللهُ عزّوجلّ: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...)[211]. فهوَ المجاهدُ في سبيلِ اللهِ حقاً، وفيهِ نزلتْ هذهِ الآية، وكانَ ممنْ استجابَ لرسولِ اللهِ، عمُّهُ حمزةُ، وجعفرُ بنُ عمّهِ، فقُتِلا شهيدين رضيَ اللهُ عنهما، في قتلى كثيرةٍ معهما منْ أصحابِ رسولِ اللهِ، فجعلَ اللهُ تعالى حمزةَ سيّدَ الشهداءِ مِنْ بينِهم، وجعلَ لجعفرَ جناحينَ يطيرُ بهما مع الملائكةِ كيفَ يشاءُ مِنْ بينِهم، وذلكَ لمكانِهما من رسولِ اللهِ، ومنزلتِهما وقرابتِهما منهُ، وصلّى رسولُ اللهِ على حمزةَ سبعينَ صلاةٍ، من بينِ الشهداءِ الذينَ

---

[209] سورة الحشر: الآية 10.

[210] سورة التوبة: الآية 100.

[211] سورة التوبة : الآية 19.

استشهدوا معهُ)[212].

في هذا المقطع يذكر (ع) فضائل أمير المؤمنين (ع)، ويعيدها من زاوية كونه (ع) مركز الفضائل في عشيرته من بني هاشم. فهنا ثلاثة أمور :

الأول : علي (ع) أولهم إسلاماً وإيماناً : يُعيدُ الإمام الحسن (ع) فضائل أمير المؤمنين علي (ع) ويثبتها، لأن بني أمية لم يكن لهم عدو كعليّ بن أبي طالب (ع)، فالحسن (ع) يعيد ويكرر فضائل أبيه (ع) حتى لا يفسح المجال للعدو بالتعدي على أهل البيت (ع). فعلي (ع) هو الأول في الإسلام والإيمان، والأول في الهجرة واللحوق برسول الله (ص)، والأول في التفقه في سبيل الله، والناس من جميع الأجيال يستغفرون له إلى يوم القيامة بدليل الآية الكريمة: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[213] .

الثاني : أنه (ع) سابقُ جميعِ السابقين : فهو السابقُ إلى مرضاته تعالى، والسابقُ إلى الجهاد في سبيله، وهو السابقُ على جميع من جاء بعده ممن جاهدَ وناصرَ الإسلامَ. فينبغي أن لا يُبخَسَ فضله (ع) . بل هو (ع)

---

[212] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[213] سورة الحشر: الآية 10.

سابقٌ جميع من صاحب رسول الله (ص). فلِمَ هذا الإنكار لفضيلة علي (ع) في أسبقيته للإسلام ؟ !

الثالث : فضل حمزة وجعفر (رض) : وهما من أوائل من استجاب لله تعالى ولرسوله (ص)، فُقتلا شهيدين، وأضفى رسول الله (ص) عليهما أجمل الصفات، فحمزة كان سيد الشهداء، وجعفر بن أبي طالب وُصِفَ بالطيار حيث جعلَ اللهُ له جناحين يطير بهما مع الملائكة كيفما شاء. صلى النبي (ص) على حمزة سبعين صلاةً تعظيماً لأمره، وتقديراً لفضله في الإسلام.

يذكر الإمام الحسن (ع) فضائل علي (ع) ويعيدها، لأن الناس في تلك الفترة بدأت بسلب فضائل علي (ع) وتغييبها ، وإضافة فضائل لآخرين لا يستحقونها .

مكانةُ رسولِ الله (ص) من ربه تعالى :

ثم شرح الإمام الحسن (ع) للناس مركز رسول الله (ص) وفضله عند الله عز وجل، على صعيد الأسرة، والمسجد، والصلاة عليه (ص).

فيقول (ع): (وكذلكَ جعلَ اللهُ تعالى لنساءِ النبيّ المحسنةُ منهنَّ أجرينِ، وللمسيئةِ منهُنَّ وزرينِ ضِعفينِ، لمكانهّنَ مِنْ رسولِ اللهِ، وجعلَ الصلاةَ في مسجدِ رسولِ اللهِ بألفِ صلاةٍ في سائرِ المساجدِ، إلا المسجد الحرام: مسجدُ خليلهِ إبراهيمَ بمكّة، وذلكَ لمكانِ رسولِ اللهِ من ربّهِ. وفرضَ اللهُ عزّ وجلّ الصلاةَ على نبيّهِ على كافّةِ المؤمنينَ، فقالوا يا رسولَ اللهِ

كيفَ الصلاةُ عليكَ، فقالَ قولوا: (اللّهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمد)، فحقَّ على كلِّ مسلمٍ أن يصلّي علينا مع الصلاةِ على النبيّ، فريضةً واجبةً)[214].

في هذا المقطع يعرض (ع) ثلاثة شواهد حول مكانة رسول الله (ص) ، هي :

الأول : نساءُ النبي (ص) : ربما يشير الإمام الحسن (ع) بصورة عابرة إلى ما حصل في معركة الجمل، وخروج أحد نساء النبي (ص) على خليفة المسلمين الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وقد أُمرنَّ أن لا يخرجن من بيوتهن بنص القرآن المجيد: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...)[215]، وذكرَّ بالآية القرآنية: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ...)[216]، وتلك إشارةٌ عابرةٌ، إلا أن الأصل في كلامه هو مكانة رسول الله (ص) وفضله على العالمين.

الثاني : الصلاةُ في مسجده (ص) بألف صلاة : يذكر (ع) بأن مسجد النبي (ص) يأتي من ناحية الفضل بعد المسجد الحرام درجة. ففي الصلاة في مسجد النبي (ص) ثواب ألف صلاة من غيره لمكانة رسول الله (ص).

---

[214] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[215] سورة الأحزاب: الآية 33.

[216] سورة الأحزاب: الآية 32.

الثالث : الصلاة عليهم مع النبي (ص) فريضة واجبة : يقول (ع) أن الصلاة على النبي (ص) وأهل بيته (ع) واجبة، فجعل (ص) صيغتها: (اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد)، فأمرَ بذكرهم ذكراً دائمياً مع رسول الله (ص) إلى يوم القيامة. يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[217]. فالصلاةُ من الله تعالى هي الرحمة بالنبي (ص)، والصلاة من الملائكة تعني استغفارها له، وتعني أيضاً أنه مُجاب الدعوة، خصوصاً وأنه يملك الشفاعة للمؤمنين. والصلاة من المؤمنين تعني الدعاء بطلب الرحمة والمغفرة . وفي نهاية المطاف فإن كل صلاة على النبي (ص) هي دعوة مستجابة للمؤمنين بغفران الذنوب.

إدخال أهل البيت (ع) في فضائل محمد (ص):

ثم يذكر الإمام الحسن (ع) أن أهل البيت (ع) هم جزءٌ لا يتجزأ من فضائل رسول الله (ص)، فأوجب الله لهم (ع) كل ما أوجب لرسوله (ص) من الفضل .

فيقول (ع) : (وأحلَّ اللهُ تعالى خُمسَ الغنيمةِ لرسولِ اللهِ، وأوجبَها لهُ في كتابهِ، وأوجبَ لنا منْ ذلكَ ما أوجبَ لهُ، وحرّمَ عليهِ الصدقةَ وحرَّمها علينا معهُ، فأدخلَنا – ولهُ الحمدُ – فيما أدخلَ فيهِ نبيَّهُ، وأخرَجنا ونزّهَنا مما أخرجَه منهُ ونزّهَهُ عنهُ، كرامةً أكرَمنا اللهُ عزّ وجلّ بها، وفضيلةً فضّلنا بها

---

[217] سورة الأحزاب: الآية 56.

على سائرِ العبادِ، فقالَ اللهُ تعالى لمحمدٍ (ص) حينَ جحدَهُ كَفَرةُ أهلِ الكتابِ وحاجّوهُ : (... فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[218]، فأخرجَ رسولُ اللهِ من الأنفسِ معهُ أبي (ع)، ومنَ البنينَ أنا وأخي، ومنَ النساءِ أمي فاطمة (ع)، منَ الناسِ جميعاً. فنحنُ أهلُه، ولحمُه، ودمُه، ونفسُه، ونحنُ منهُ وهوَ منّا، وقدْ قالَ اللهُ تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[219]. فلما نزلتْ آيةُ التطهيرِ جمَعنا رسولُ اللهِ أنا وأخي وأمّي وأبي، فجلَّلنا ونفسَه في كساءٍ لأمّ سلمة خيبري، وذلك في حجرتِها وفي يومِها، فقال: (اللهمَّ هؤلاءِ أهلُ بيتي، وهؤلاءِ أهلي وعترتي، فأذهِبْ عنهُم الرجسَ وطهّرَهم تطهيراً)، فقالتْ امُّ سلمة: أأدخلُ معهُم يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ لها رسولُ اللهِ: (يرحمُكِ اللهُ أنتِ على خيرٍ، وإلى خيرٍ، وما أرضاني عنكِ، ولكنها خاصة لي ولهم)[220].

في هذا المقطع من خطبته (ع) يشرح الفضائل التي منحها الله تعالى لهم (ع) مع رسوله (ص) ، ويجملها في ثلاث ، هي :

الأول : تخصيص الخمس لهم (ع) وتحريم الصدقة عليهم : يقول (ع) بأن الله تعالى أحلّ لهم الخمس وحرّمَ عليهم الصدقة . وخمس الغنيمة هي

---

[218] سورة آل عمران: الآية 61.

[219] سورة الأحزاب: الآية 33.

[220] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

خمس كلّ ما يغنمه الإنسان في عمله أو ما أتاه من موارد. أو في موارد أخرى ذكرناها مفصلاً في كتاب (العدالة الحقوقية في الإسلام) . وقد يدعي البعض بأن الخمس منحصرٌ بغنيمة الحرب، وهذا ليس صحيحاً، لأن الحياة في الإسلام ليست حروباً دائمية، وليست غنائمَ دائمية، فماذا يأكل الفقراء من ذرية النبي (ص) وقت السلم وقد مُنعوا من الصدقة ؟ إذن الخمس هو ما يقابل الصدقة، وهما يُدفعان من قبل الغني في كل وقت، يستلمهما الفقراء أو الإيتام والأرامل في أوقات الحرب والسلم. وتخصيص خمس الغنيمة هو تكريمٌ لرسول الله (ص) وأهل بيته (ع).

والغنيمة في اللغة العربية معنيان : إما ما يؤخذ من الأعداء في الحرب، أو هو المَغْنَمُ أي المكسب. وغنِمَ الشيءَ: فاز به، أو ربحه، أو ناله بلا مشقَّة ، وعكسه غرِمَ. ومشقَّةُ الحرب أعظمُ من الربح في التجارة. وبذلك يكون معنى إخراج الخمس شاملاً لكل ما غنمه الإنسان في حياته المالية .

الثاني : إدخال أهل البيت (ع) فيما أدخل الله نبيه (ص) : يشكر الإمام (ع) الله تعالى على فضله فيما تفضل به على أهل البيت (ع) حيث أدخلهم فيما أدخل نبيه (ص) في كل مكرمةٍ وفضلٍ. وأهمُّ فضلٍ هو جعل الأطهار الخمسة من أهل البيت (ع): فاطمةُ وأبوها وبعلها وبنوها من نفسٍ واحدةٍ، فهم أهلُ رسولِ اللهِ (ص)، ولحمُهُ ودمُهُ، ونفسُهُ، وهو منهم، وهم منه . وتلك من أعظم الفضائل التي تُمنح للإنسان على الإطلاق.

الثالث : آية التطهير : وفضيلة أخرى تعدُّ من فضائل أهل البيت (ع) العظيمة أيضاً وهو قوله تعالى: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[221] فقد أذهب الله عنهم الرجس، والرجس هو الشك في الله تعالى، وطهرهم من الآثام، ورفع عنهم المعاصي والأوهام بجميع أشكالها وأنواعها، وتلك منزلةٌ لم يصلها أحدٌ غيرهم (ع).

مكانة أهل البيت (ع) في الكتاب والسنّة :

ثم يطرح الإمام الحسن (ع) مكانة أهل البيت (ع) في الكتاب والسنّة.

فيقول (ع) : (ثمَّ مكثَ رسولُ اللهِ بعدَ ذلكَ بقيّةَ عمرِهِ، حتى قبضَهُ اللهُ، يأتينا في كلِّ يومٍ عندَ طلوعِ الفجرِ فيقول: (الصلاةُ يرحمُكُم اللهُ، إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويطهّركَم تطهيراً)، وأمرَ رسولُ اللهِ بسدِّ الأبوابِ الشارعةِ في مسجدهِ غيرَ بابنا، فكلموُه في ذلكَ فقالَ: (أما إني لمْ أسدّ أبوابَكم، ولم أفتحْ بابَ عليٍّ منْ تلقاءِ نفسي، ولكنّي أتبعُ ما يُوحى إليّ، وإنَّ اللهَ أمرَ بسدِّها وفتحَ بابَه) فلمْ يُكنْ منْ بعدِ ذلكَ أحدٌ تصيبُه جنابةٌ في مسجدِ رسولِ اللهِ ويولدُ فيهِ الاولادُ، غيرَ رسولِ اللهِ، وأبي علي بن أبي طالب، تكرمةً من اللهِ تعالى، وفضلاً إختصّنا بهِ على جميعِ الناسِ، وهذا بابُ أبي قرينَ بابِ رسولِ اللهِ في مسجدِهِ، ومنزِلنا منْ منازلِ رسولِ اللهِ، وذلكَ أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه أن يبني مسجدَهُ فبنى فيه عشرةَ ابياتٍ تسعةً لبنيهِ

---

[221] سورة الأحزاب: الآية 33.

وأزواجهِ وعاشرُها وهو متوسّطُها لأبي، وها هو بسبيلٍ مقيمٍ، والبيتُ هو المسجدُ المطهّرُ، وهو الذي قالَ اللهُ تعالى: (أهلُ البيتِ) فنحنُ أهلُ البيتِ، ونحنُ الذينَ أذهبَ اللهُ عنا الرجسَ، وطهرّنا تطهيراً)[222].

يؤكد (ع) المرة تلو الأخرى بالمكانة المتميزة لأهل البيت (ع)، ويضعها في النقاط الثلاث التالية :

الأولى : أهل البيت (ع) معه (ص) في المسجد : عاش أهل البيت (ع) مع رسول الله (ص) في مسجده، فقد كان المسجدُ محاطاً بعشرة بيوت أو غرف، تسعةٌ منها للنبي (ص) وزوجاته، والعاشرة لعلي (ع)، وفاطمة (ع). كانت لتلك الغرف أبوابٌ مفتوحةٌ على المسجد، فأغلقها النبي (ص) جميعاً عدا باب علي (ع) وفاطمة (ع). فأصبح الداخل إلى أي غرفة من الغرف أن يدخل أو يخرج من باب الغرفة ذاتها، وهي من الجهة الخارجية للمسجد. وإذا أراد الدخول إلى المسجد فله بابٌ رئيسيٌ آخر، عدا غرفة علي (ع) وفاطمة (ع)، فإنهما يستطيعان الدخول إلى المسجد من الباب الداخلي لغرفتهما.

فكلّمه البعض من المسلمين آنذاك بذلك فقال (ص): أنا لم اترك باب علي (ع) مفتوحة بقراري، بل أنا مأمور بذلك من الوحي. فكانت تلك الحجرة التي أمر الوحي بفتحها على المسجد جمعت علياً وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام). وفي تلك القضية رمزيةٌ متعلقةٌ بطهارتهم

---

[222] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

(ع)، فطهارتهم التي ذكرها القرآن الكريم كطهارة المسجد ذاته .

الثانية : الدعوة إلى صلاة الفجر : كان النبي (ص) يطرق باب فاطمة (ع) وعلي (ع) والحسن والحسين (ع) وقت الفجر، ويدعوهم إلى صلاة الفجر، فالنبي (ص) يريد أن يكون أهلُ بيته أقرب الناس إلى الله تعالى ، وتلك فضيلة أخرى من فضائل أهل البيت (ع).

الثالثة : نحنُ أهلُ البيت : قالها الإمام الحسن (ع) عالية واضحة: نحن أهلُ البيتِ الذين مدحنا الله في كتابه المجيد، ونحن الذين أذهب الله عنا الرجس، وطهرنا تطهيراً. قالها أمام معاوية وأمام الملأ بصورة جلية واضحة. ولم يكن هناك شخصٌ أقربُ إلى رسول الله (ص) من الحسن (ع)، فهو إمام الأمة وزعيمها وقائدها في تلك الفترة، وإن خذله الناس في مقارعته ذلك الظالم. ومعاهدة الهدنة لا تخدش من إمامته شيئاً، فهو الإمام المُطاع، قامَ أو قعدَ، وهكذا قال جده رسول الله (ص).

صفاتُ الحسن بن علي (ع) :

يعدّد الإمام (ع) الفضائل التي منحها الله لهم، وتنكُر الناس لها، وتنمر معاوية عليهم .

يقول (ع) : (أيّها الناسُ أني لو قمتُ حولاً فحولاً، أذكرَ الذي أعطانا اللهُ عزّ وجلّ، وخصَّنا بهِ منَ الفضلِ في كتابهِ، وعلى لسانِ نبيّهِ، لم أُحصِهُ. وأنا ابنُ النذيرِ والبشيرِ، والسراجِ المنيرِ الذي جعلَهُ اللهُ رحمةً

للعالمينَ، وأبي عليٍّ وليُّ المؤمنينَ، وشبيهَ هارونَ، وإنَّ معاويةَ بنَ صخرٍ زعمَ أني رأيتَه للخلافةِ أهلاً، ولمْ أرَ نفسي لها أهلاً، فكذِبَ معاويةُ، وأيمَ الله، لأنا أولى الناسَ بالناسِ في كتابِ اللهِ، وعلى لسانِ رسولِ اللهِ غير أنّا لم نزلْ أهلَ البيتِ مخيفينَ، مظلومينَ مضطهدينَ مُنذْ قُبِضَ رسولُ اللهِ، فاللهُ بيننا وبينَ من ظلمَنَا حقَّنا، ونزا على رقابِنا، وحمّلَ الناسَ على أكتافِنا، ومنعَنا سهمَنا في كتابِ اللهِ من الفيءِ والغنائمِ، ومنَعَ أُمّنَا فاطمةَ إرثَها منْ أبيها، إنّا لا نسمي أحداً، ولكن أقسمُ باللهِ قَسَماً تالياً لو أنَّ الناسَ سمِعُوا قولَ اللهِ ورسولِهِ لأعطتْهم السماءُ قطرَها، والأرضُ بركَتَها، ولما أُختلِفَ في هذهِ الأمّةِ سيفان، ولأكلُوها خضراءَ خضرةً إلى يومِ القيامةِ، واذاً ما طمعتَ فيها يا معاوية، ولكنّها لما أُخرِجتْ سالفاً من معدنِها، وزُحزِحتْ عن قواعدِها، تنازعتْها قريشٌ بينها، وترامتْها كترامي الكرة، حتى طمعتَ أنتَ فيها يا معاوية وأصحابُكَ من بعدِكَ، وقد قالَ رسولُ اللهِ: (ما ولّتْ أمةٌ أمرَها رجلاً قطّ، وفيهم منْ هوَ أعلمُ منهُ إلا لم يزلْ أمرُهم يذهبُ سِفالاً، حتى يرجَعوا إلى ما تَركوا) ، وقد تركتْ بنو اسرائيلَ، وكانوا أصحابُ موسى، هارونَ أخاهُ وخليفتُه ووزيرُه وعكَفوا على العجلِ، وأطاعوا فيهِ سامريَّهم، وهم يعلمونَ: أنه خليفةُ موسى. وقد سمعتْ هذهِ الأمة رسولَ اللهِ يقولُ ذلكَ لأبي: (أنتَ مني بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلا أنَّهُ لا نبيَّ بعدي)، وقد رأوا رسولَ اللهِ حينَ نصبَّهُ لهم بغديرِ خمٍ؛ وسمِعُوه نادى له بالولايةِ، ثم أمرَهم أن يبلِّغَ الشاهدُ منهم الغائبَ، وقد خرجَ رسولُ اللهِ حذراً

من قومهِ إلى الغارِ لما أجمعوا على أن يمكرُوا بهِ وهو يدعوهم، لما لم يجدُ عليهِم أعواناً، ولو وَجِدَ عليهمْ أعواناً لجاهدَهم)[223].

يجمل الإمام (ع) ما حصل لهم من قِبلِ الناس، وما عانوه (ع) مع علو شأنهم، وما أفاض الله تعالى عليهم من ارتباطهم برسول الله (ص). وفي ذلك أمور ستة نبحثها :

الأول : صفاتُ الحسن (ع) : يقول (ع) أن الله تعالى أفاضَ عليه (ع) نعماً عظيمةً، منها أنه ابن البشير النذير، وأنه ابن السراج المنير، وأنه حفيدُ محمد (ص) خاتم الأنبياء والمرسلين. عليٌّ أمير المؤمنين(ع) أبوه، وأمه فاطمة الزهراء (ع) ، وهو وليُّ المؤمنين، بل علي (ع) خيرُ الخلقِ بعد رسول الله (ص). فالحسنُ (ع) إمتدادٌ لتلك الشجرة المباركة شجرة النبوة، ومعدن الرسالة، وهو الذي وصفه الله تعالى، بالطاهر ضمن مجموعة طاهرين، والمضحي في سبيل الله بطعامه ضمن مجموعة مضحين، وهو الذي نزلت فيه وفي أخيه الحسين (ع) آية: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ...)[224].

الثاني : كذب معاوية : وبعد أن عدّدَ صفات أهل البيت (ع) وارتباطهم برسول الله (ص)، أعلن للملأ بأن معاوية بن صخر إنسانٌ كاذب، فلا

---

[223] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[224] سورة آل عمران: الآية 61.

الإمام الحسن (ع) يراه أهلاً للخلافة، ولا الإمام (ع) يرى نفسه غير مكلفٌ بها. فكذب معاوية من طرفين. الخلافة بالنسبة للحسن (ع) هي مسؤولية تقتضي حفظ حقوق المسلمين وحفظ مبادئ الدين. أما بالنسبة لمعاوية فهي سلطة، وإمتيازات، وأكاذيب، ومراوغة سياسية حتى يكسب منافعها. وبكلمة فإن الحسن (ع) يرى في الخلافة مسؤولية لثواب الآخرة إذا أقيمت بصورتها الصحيحة، ويراها معاوية سلطة للدنيا، فيتقاتل على حيازتها.

الثالث : اضطهاد أهل البيت (ع) : بعد أن مهّد الإمام (ع) الطريق لتنوير الناس بقاعدة أهل البيت (ع) وأفضليتهم في المجتمع الإسلامي، عرج على التلميح لتاريخهم (ع)، ومظلوميتهم منذ وفاة رسول الله (ص)، فقد مُنِعوا حقوقهم في إرشاد الأمة، ومُنِعوا سهمهم في بيت المال، ومَنَعُوا فاطمة الزهراء (ع) إرثها من أبيها. ولو حصلوا (ع) على حقوقهم المشروعة لأنفقوها على الفقراء وأهل الحاجة. فأهل البيت (ع)، وبسبب طهارتهم المعنوية، لا ينظرون إلى المال كوسيلة جمع أو إدخار، بل ينظرون إليه كوسيلة لسد حاجة الفقراء والمحرومين. والتصرف بالمال عندهم (ع) على ذوي الحاجة عبادة كبقية العبادات.

الرابع : لو أطاعوا نبيهم (ص) لأكلوها خضراء إلى يوم القيامة : فلو أطاع الناس قول رسول الله (ص) في أهل بيته (ع)، وعزفوا عن محاربتهم لأكلوها خضراءَ خضرةً إلى يوم القيامة. أي لتوحدت الأمة على مبدأ واحد، وتركزت الجهود على تعليمهم، وتقريبهم إلى خالقهم، عبر الأخوة،

والإنسجام بدل القتال والصراع وظلم العباد.

الخامس : طمع بنو أمية بالخلافة : ولكن معاوية وأصحابه من بني أمية طمعوا بالخلافة والولاية، وقد قال رسول الله (ص) أن الأمم التي تولي أمرها إلى الجهال وتترك أهل العلم والتقوى وتحاربهم ينزل قدرها إلى أسفل الدرجات، وهكذا كانت بنو إسرائيل عندما تركت هارون أخو موسى وخليفته ووزيره، وعبدوا العجل الذي صاغه لهم السامري، فعبدوا العجل خيانة وعصياناً لموسى (ع) وهم يعلمون بأن هارون هو خليفة موسى (ع).

وهذه الأمة التي حاربت أهلَ بيتِ نبيها (ص) لا تختلف عن أمة موسى التي حاربت هارون (ع)، وهي تعلم مكانة علي (ع) من محمد (ص) كما كانت بنو إسرائيل تعلم مكانة هارون (ع) من موسى (ع).

السادس : الولاية مُنحت لعلي (ع) في غدير خم : وقد قال رسول الله (ص) وهو يخاطب علياً (ع) : أنتّ مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. فعليٌّ (ع) منه (ص) بتلك المنزلة العظيمة، ولكن حال المسلمين آنذاك كحال اليهود زمن موسى (ع) . وإن كان اليهود قد عبدوا العجل الذي صنعه له السامري خلافاً لتعليمات موسى (ع) ، فقد خضع هؤلاء لذواتهم ومصالحهم فحاربوا هارون هذه الأمة ، وأزاحوا أهل بيت النبوة (ع) من مكانهم الطبيعي الذي وضعه لهم رسول الله (ص) بأمرٍ من الله تعالى .

خذلان الأمة مرة بعد أخرى:

يشرح الإمام (ع) كيفية خذلان الأمة لأبيه الإمام علي (ع)، ثم خذلانه (ع) هو نفسه.

يقول (ع) : (وقدْ كفَّ أبي يدَهُ، وناشدَهم واستغاثَ أصحابَه فلمْ يُغَثْ، ولمْ يُنصرْ، ولو وَجِدَ عليهِم أعواناً ما أجابَهم، وقد جُعِلَ في سعةٍ كما جُعِلَ النبيُّ في سعةٍ، وقد خذلتني الأمة، وبايعتْكَ، وقد جُعِلَ هارونَ في سعةٍ حين استضعَفَهُ قومُهُ وعادُوه، كذلكَ أنا وأبي في سعةٍ منَ اللهِ حينَ تركتنا الأمة، وبايعتْ غيرَنا، ولم نجدْ عليهِم أعواناً، وإنما هي السننُ والأمثالُ، يتبعُ بعضُها بعضاً)[225].

في هذا المقطع يبيّن (ع) : أن علياً كفَّ يده بسبب تلك الأحداث الجسيمة ، فلم يركب الأهوال. هنا يذكِّر الإمام الحسن (ع) بنظرية والده (ع) وهي : (... وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأهْوَالِ)[226]. فكان يناشدهم ويستغيث الناس فلم يغثه (ع) أحد، ولم ينصروه، بل ذهب الجمع إلى حيث السلطة والإمتيازات، وتركوا أبا الحسن (ع) وحيداً في الساحة. ولو وجد أنصاراً مؤمنين مخلصين لاتخذ طريقاً آخر، وحاربهم. إلا أنها السننُ والأمثالُ، وهكذا ما حصل لهارون (ع) مع قومه، واليوم يحصل مع الحسن (ع)

---

[225] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[226] شرح نهج البلاغة (م) ج 3 ص 37 – 57.

وقومه .

نحن بقيةُ النبوة :

يحذرهم (ع) بأنه لا مفرَّ لهم من الله تعالى إلا سلوك سبيل أهل بيت النبوة (ع). فيقول (ع): (أيّها الناسُ إنكم لو إلتمستم بينَ المشرقِ والمغربِ، رجلاً جدّهُ رسولُ اللهِ، وأبوُه وصيُّ رسولِ اللهِ، لم تجدوا غيري وغيرَ أخي، فاتّقوا اللهَ ولا تضلّوا بعدَ البيانِ، وكيفَ بكم، وإني قد هادنتُ هذا[227] – وأشارَ بيدهِ إلى معاوية – (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[228])[229].

في هذا المقطع من الخطبة يقرُّ (ع) هو وأخيه الحسين (ع) بصلتهما برسول الله (ص)، ولا يوجد في الدنيا غيرهما بتلك المنزلة من الصلة والرحم به (ص). وهو بعد أن يوبخهم على عدم مناصرتهم له (ع)، وعلى خذلانه كما خذل اليهود هارون (ع)، يقول لهم أني قد هادنتُ هذا. والآية الشريفة : (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[230] تعني إنَّ هذا الأمر إمتحان لكم ليُظهِرَ به اللهُ ما في باطنكم، فالله يريد به أن يمتحنكم ويمتعكم إلى حين، وإلى أجل معلوم إستدراجاً وإستمهالاً !

---

[227] في النص : (بايعتُ هذا)، وهو مخالف لسياق كلام الإمام (ع)، والصحيح (هادنتُ هذا).

[228] سورة الأنبياء: الآية 111.

[229] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

[230] سورة الأنبياء: الآية 111.

لقد خامركم الطغيان والجحود :

ثم يختم (ع) خطبته البليغة بالقول : (أيّها الناسُ إنّه لا يعابُ أحدٌ بتركِ حقّهِ، وإنّما يعابُ أنْ يأخذَ ما ليسَ لهُ، وكلُّ صوابٍ نافعٍ، وكلُّ خطأٍ ضارٍّ لأهلهِ وقد كانتْ القضيةُ ففهّمناها سليمانَ، فنفعتْ سليمانَ، ولم تضرّ داودَ، فأما القرابةَ فقدْ نفِعت المشركَ، وهي واللهِ للمؤمنِ أنفعُ. ايّها الناسُ اسمعُوا وعوا، وإتّقوا اللهَ وراجعوا، وهيهاتَ منكم الرجعةَ إلى الحقِّ، وقد صارعَكم النكوصُ، وخامركم الطغيانُ والجحودُ، أنلزمكموها وأنتمْ لها كارهونَ. والسلامُ على من إتّبع الهدى)[231].

يتحدث الإمام الحسن (ع) في آخر خطبته عن واقع الناس آنذاك، ويضعه ضمن نقاط ثلاث ، هي :

الأولى : لا يُعابُ أحدٌ بترك حقه : يقول (ع) أن الحق يضيعُ أحياناً بفعل الظروف القاهرة، وأنصع أمثلتها : عدم وجود الناصر، أو انصراف الناس عن الحق، مع وجود الظالم المتعطش للدماء. والعيب كل العيب على الذي يسلب الحق ويصادره بظلمٍ، فالظالم لا يستطيع فرض ظلمه على الآخرين إلا بوجود من يعينه على ذلك من الأمة.

---

[231] رواها الشيخ الطوسي في الامالي باسناد معتبر عن علي بن الحسين (ع)، ص 567.

الثانية : مثالُ داود وسليمان (ع) : يشير (ع) إلى قوله تعالى : (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)[232]. والقصة أن داود (ع) ووصيه من بعده سليمان (ع) ، كانا يتشاوران في حكمٍ على قضية دخول غنم القوم زرعاً فأفسدته، فبعث الله تعالى لسليمان (ع) من يفهمه الحكم. وداود (ع) كان يعلم ذلك الحكم. وكان الحكم واحداً، لكنهما (ع) إختلفا في كيفية إجرائه عملاً. حكَمَ داود (ع) لصاحب الحرث برقاب الغنم، بينما حكم سليمان (ع) له بمنافعها في تلك السنة من ضرع وصوف ونتاج. صدّق الله تعالى حكم سليمان (ع)، فكان هو حكمه النافذ في النهاية.

وخلاصة المثال أن النتيجة واحدة إن أخذ معاوية السلطة غصباً وقهراً أو لم يأخذها، ذلك أن دور أهل البيت (ع) في حياة المسلمين يبقى دوراً حاسماً ضرورياً في كل الأحوال، لأنهم (ع) هم أهل العلم والتقوى، ومن اختارهم الله لحفظ رسالته. فدور أهل البيت (ع) العلمي والروحي باقٍ إن أخذ معاوية الحكم أو لم يأخذه.

الثالثة : حنينهم إلى حكم الظالم : يقول (ع) مخاطباً أهل الكوفة: وقد راودكم الحنين إلى الماضي، وقد صارعكم النكوص ، وخامركم الطغيان والجحود. والنكوص هو: الرجوع إلى حكم الظالم. وفي اللغة: نكص على

---

[232] سورة الأنبياء: الآية 78 – 79.

عقبيه يعني رجع عما كان عليه من خير. لقد أخذهم الحنين إلى حكم الظالم، وأخذتهم النشوة بالطغيان وجحود نعمة الولاية عليهم.

ثم استدل بكتاب الله : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)[233]، فهل إلزمَكم على أمر ولاية أهل البيت (ع) التي أوصى بها النبي (ص) وأنتم لها كارهون ؟

وتلك الجملة الختامية من أفضل ما قيل في خيانتهم ابن رسول الله (ص)، وتأميرهم لحاكمٍ لم يراعِ فيهم حرمة الإسلام!

[233] سورة هود: الآية 28.

الفصل الرابع

حكمة الإمام الحسن (ع):
أصول الدين

أولاً: في صفات الله تعالى. ثانياً: في نبوة محمد (ص).
ثالثاً: في ولاية أهل البيت (ع) .

مقدمة

نبحث في هذا الفصل ، وفي الفصل القادم في ميزان الحكمة عند الإمام الحسن (ع) في حياته العامة ، خصوصاً في تثبيت أصول الدين عند الناس ، وجهاده في بناء الإنسان الذي أراده الإسلام أن يُبنى . فقد عاش الإمام الحسن (ع) مع الناس، يرشدهم إلى طرق الهداية، ويشرح لهم صفات الخالق عز وجل، وطبيعة عبادته، وكان يفصّل في تبيان أفضلية خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (ص)، ويشرح طبيعة الإمامة الشرعية لأهل البيت (ع) التي اختلف الناس حولها، وكانت مدار صراعٍ بين قوى الخير والشر.

خصائص الإمام (ع)

لابد أن تكون للإمام (ع) خصائص عظيمة في التأثير على فكر الآخرين وسلوكهم، موالين كانوا أو غير موالين. فالإمام (ع) يتصف بأربع صفات ، هي :

أولاً : يكون قدوة حسنة : ونموذجاً مثالياً للآخرين، أي أنه إذا أمر بالقتال مثلاً يكون هو أول من يقاتل مع جنوده، وإذا أمر بالزهد يكون هو أول زاهد فيهم، وإذا أمر بطلب العلم يكون هو أعلمهم، وهكذا كان الإمام الحسن (ع).

والإنسان، بطبيعته، يرغب في رؤية إمامه متخلياً عن الدنيا، ويسعد في رؤية همّ قائده منصبٌّ على هداية الناس إلى السعادة الأبدية. ولذا ترى الإمام أمير المؤمنين علياً (ع) كان يرقع لباسه ويقول: (أما والله لقد رقعت مدرعتي حتى استحييتُ من راقعها حتى قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلتُ: أغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى. ما لعليٍّ لذةٌ تفنى ونعيمٌ يبلى)[234].

ثانياً : أن يكون إمام فكر مع كونه إمام عمل : فهو كالقرآن الناطق يترجم أفكار الكتاب السماوي الخاتم إلى شخصية قرآنية، ويترجم أفكار السنّة النبوية إلى شخصية يكون سلوكها قريب من سلوك النبي (ص). وإمامة الحسن (ع) عاشت مع الأمة وستعيش في وجدانها إلى أبد الدهر. فهو الإمام الحق الذي طبّق التكاليف الشرعية على نفسه أولاً، ثم دعا الناس إليها ثانياً. أي أنه لم يدعو الناس إلى صفة فاضلة ويستثني نفسه منها، فقد كان إمام الفكر والعمل . وقد قال تعالى يدين حالة اليهود: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)[235].

ثالثاً : تكامل شخصيته (ع) من حيث يشدُّ بعضها بعضاً : فقد جمعَ الفضائلَ جمعاً متميزاً، فالحسن (ع) كان زاهداً في حياته، لكنه كان بطلاً

---

[234] أمالي الشيخ الصدوق ص 718.

[235] سورة البقرة: الآية 44.

في الحروب، ولكن ما أن تضع الحرب أوزارها، حتى تراه من أعظم أهل البلاغة كما كان قبل لحظات أعظم الفرسان.

وبكلمة أخرى، لم يؤثر زهد الإمام الحسن (ع) على شجاعته في الحرب، وشجاعته في الحرب لم تؤثر سلباً على بلاغته في الوعظ والإرشاد، وبلاغته لم تؤثر على تواضعه لله تعالى وتواضعه مع الناس. وهذا ما أصطلح عليه بالأفضلية. فالإمام الحسن (ع) في زمانه كان أفضل الناس في العلم، والإيمان، والتقوى، والزهد، والعبادة، والإنابة، والفصاحة، والشجاعة، والصبر، ونحوها من صفات الفضيلة. وتلك قضية عقلية مسلَّمة لا يحتاج الإستدلال عليها إلى كثير من المؤونة.

رابعاً : تَمسُّكُ الإمام (ع) بمبدأه مهما كان الثمن : وبتعبير آخر اعتصامه بالحق مهما كانت الظروف. وإذا كان التمسك بالمبدأ بتلك الدرجة من القوة يعني الأفضلية أيضاً ، فإن الحسن (ع) كان أفضل من تمسك بمبدأه، ولم يتردد البتة في قراره، بل كان حاسماً حازماً في جميع مراحل حياته (ع).

والمشكلة أحياناً تكمن في أن القلّة من الأتباع ترى ما يراه الإمام. بينما تُخطئ الأكثرية تقدير الموقف، بل قد تعارضه. فيثبت الإمام على مبدأه مهما كلّفه ذلك . وهذا ما حصل مع أمير المؤمنين (ع) عندما عارضه من عارضَ من الناس، إلا أنه ثبت على موقفه حتى النهاية. وكان الخطبُ مشابهاً للحسن (ع)[236].

---

[236] السبط المجتبى (بتصرف) ص 222– 224.

وفيما يلي نتحدث عن حكمة الإمام الحسن في أصول الدين، فبندأ بكلماته في صفات الله تعالى ، ثم صفات رسول الله محمد بن عبد الله (ص)، ثم صفات أئمة أهل البيت (ع).

في صفات الله تعالى

يستدل الإمام الحسن (ع) على صفات الله تعالى بما وصف به نفسه، ويتحدث عن عظمته وخالقيته، وعن عجز الإنسان عن إدراك كنه خالقه عز وجل، ويدعوه لعبادته عبادة علم وإدراك ووعي. ففيما يلي عناوين مختلفة يجمعها قاسم مشترك هو التفكر والتدبر في صفاته تعالى .

بين جواد الخالق وجواد المخلوق:

تختلط أحياناً صفات الخالق مع صفات المخلوق، فيتحير الناس في ذلك، فيسئله سائلٌ عن معنى كلمة الجواد، يقول (ع) : (إنَّ لكلامِكَ وَجْهينَ، فإنْ كُنتَ تسألَ عنْ المخلُوقِ، فإنَّ الجوادَ الذي يؤدّي ما افُترِضَ عليهِ، والبخيلَ الذي يبخَلُ بما افُترِضَ عليهِ. وإنْ كُنتَ تسألَ عنْ الخالقِ، فهو الجوادُ إنْ أعطى، وهُوَ الجوادُ إنْ منعَ. لأنهُ إنْ أعْطى عبداً أعطاهُ ما ليسَ لهُ، وإنْ منعَ مَنَعَ ما ليسَ لهُ)[237].

---

[237] مجمع البحرين . مادة (جود).

يتحدث الإمام (ع) عن صفة لغوية مشتركة وهي صفة الجود بين الخالق والمخلوق. والجود لغةً مصدر جادَ، وهي الكرم والسخاء، فيضعها (ع) في الموارد الثلاثة التالية :

الأول : التمييز بين صفة المخلوق وصفة الخالق عز وجل : الجودُ صفةٌ تحملُ صاحبها على بذل الخير بدون عِوَض. وعندما تُطلق تلك الصفة بصورة عامة، فلابد من التمييز فيها بين أن تكون صفةً لإنسانٍ مخلوقٍ ضعيفٍ أو صفةً لخالقٍ جبارٍ عظيمٍ. والكثير من الناس من يصف البشر بالكرم والجود، ويصف الله سبحانه وتعالى بالكرم والجود أيضاً. فأين يقع الفارق ؟ لابد من معرفة الفارق بين جود المخلوق وجود الخالق عز وجل في الموردين الثاني والثالث .

الثاني : صفة كرم المخلوق : فإذا كانت صفة الجود خاصة بالمخلوق، فهذا يعني أن الكريم أو الجواد أدى ما عليه من واجب العطاء والإحسان. وقد قال تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ...)[238]. فالإنسان الجواد الكريم إنما يُحسن لنفسه، فالدنيا دارُ عملٍ ولا حسابٍ، والآخرةُ دارُ حسابٍ ولا عملٍ. فالجواد الكريم الذي ينفق من ماله على الفقراء وأهل الحاجة إنما يجدُ ثوابه في الآخرة.

---

[238] سورة الإسراء: الآية 7.

والجود أو الكرم من الفضائل التي كان يتحلى بها العرب، وتُعدُّ من أبرز فضائل العظماء، ولذلك يُضرب المثل في الكرم برسول الله (ص) بحيث قيل: ما سُئل رسول الله (ص) شيئاً إلا إعطاه، ويأتي بعده أهل بيت النبوة (ع) المشهورون بالكرم والجود. ثم من بعدهم أمثلة تاريخية في الجود كحاتم الطائي، وهاشم بن عبد مناف، وعبد الله بن جُدْعَانَ.

وفي كل ذلك فإن الكريم إنما يؤدي ما فرضَ اللهُ عليه من الكرم. فالله تعالى هو المتفضل على الإنسان بالرزق الوفير. أما البخيل فهو الذي يحبس ما فرضَ اللهُ عليه من العطاء. إذن في مثال المخلوق نجد الكريم ونجد البخيل. وهما موصوفان متضادان تماماً. وفي كل الحالات تبقى فضيلة الكرم عند الإنسان فضيلة نسبية محدودة مقارنة بكرم الخالق عز وجل .

الثالث : صفةُ كرمِ الخالقِ عز وجل : فهو الجوادُ إن أعطى وهو الجواد إن منع، بمعنى أن الكرم والجود من الصفات الثبوتية للخالق، فإن أعطى فعطاؤه كرماً ورحمةً، وإن منع فإن منعه تدبيراً منه. والإنسان لا يملك شيئاً بالأصل، فإن أعطاه الله تعالى فإنما أعطاه وهو لا يملك شيئاً لأن الملك لله تعالى. وإن حرمه فذلك تدبيرٌ منه تعالى، والإنسان يجهل المصلحة في ذلك عموماً. وما الإنسان في الدنيا إلا مستخلَفٌ على ما رُزقَ، والمستخلَف هو المؤتمَن على المال، فملكية المال عند الإنسان هي إئتمان مؤقت ينتهي بموته. فلا أحدٌ من البشر ينقل ثروته المادية إلى الحياة الأخرى. والرزق بيده تعالى لا بيد الإنسان، كما يقول : (... إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

بِغَيْرِ حِسَابٍ)[239]. نعم يسعى الإنسان في الدنيا حتى يجد الرزق ، لكن تحديد الرزق وقرار أعطائه بيد الله سبحانه وتعالى .

لا يوصف الخالقُ إلا بما وصف به نفسه :

قال الإمام الحسن (ع) في وصف الخالق عز وجل: (مَنْ أرضى الخالِقَ، لمْ يبالِ بسخطِ المخلوقِ، ومَنْ أسخطَ الخالقَ فقُمنَ أنْ يُسلَّطَ عليهِ سَخَطُ المخلوقِ، وإنَّ الخالقَ لا يوصفُ إلاّ بما وَصفَ بهِ نفسُهُ، وأنّى يُوصفُ الذي تعجِزُ الحواسُّ أنْ تدرِكُه، والأوهامُ أنْ تنالَهُ، والخطراتُ أنْ تَحدَّهُ، والأبصارُ عنْ الإحاطةِ بهِ! جلَّ عما وصَفَهُ الواصفونَ، وتعالى عما يَنعتُهُ الناعِتُونَ، نأى في قربهِ، وقَرُبَ في نأيهِ، قريبٌ في بعدهِ، وفي قربهِ بعيدٌ، كيّفَ الكيفَ، فلا يقالُ لهُ: كيفَ. وأيّنَ الأينَ، فلا يقالُ لهُ: أينَ، إذ هو مبدعُ الكيفوفيّةِ، والأينونيّةِ...)[240].

دأب أئمة أهل البيت (ع) على وصف الخالق عز وجل بما وصف به نفسه في القرآن الكريم، ولا يتجاوزونه إلى ما وراء ذلك. وفي هذا المقطع يضع الإمام (ع) ثلاث قواعد في التعامل مع طبيعة وصف الخالق عز وجل ، هي :

---

[239] سورة آل عمران: الآية 37.

[240] الكافي ج 1 ص 138.

الأولى : رضا الخالق سبحانه أولاً : الأصل في هذه الحياة الدنيا هو رضا الخالق عز وجل عن أفعالنا، بغض النظر عن موافقة المخلوقين لذلك أو رفضهم. فالمحور في أعمالنا ونشاطنا الشخصي والإجتماعي هو السعي لمرضاة الله تعالى، فالعبادة تُرضي الله ، والعقل المبني على عدم الشك في الخالق يُرضي الله ، وكذلك حسن التعامل مع الناس، وتصحيح أفعالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. ومن علامة اليقين أن الذي ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف لا يبالِ بسخط المخلوق لأن هدفه هو رضا الله عز وجل، ولأن يقينه يُفصح عن مساندته تعالى له في كل الأحوال.

وفي المقابل فإن الذي يكون همه إرضاء الناس، وعدم الإكتراث لرضاه تعالى، فإن الله يسلط عليه من الناس من لا يرضى عنه ويسخط عليه، وتلك معادلة يختبرها الكثير من الناس في حياتهم على هذه الأرض.

الثانية : الخالق يصفُ نفسه ولا يصفه غيره : لاشك أن الوصف مرتبطٌ بالموصوف. فكيف يستطيع الإنسانُ العاجز وصف الخالق الذي لا تدركه الحواس، بل تعجز الأفكار عن تصوره، وتعجز الأبصار عن الإحاطة به. وطالما وَصَفَ اللهُ عز وجل نفسَه لنا، كان علينا حينئذٍ الأخذ بذلك الوصف. وهكذا جاء الوصف، فقال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْعَظِيمُ)[241]، وقال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[242].

فهو الحيُّ، القيوم، الذي لا يشغله نومٌ ولا غفلةٌ، العالِمُ بما في ضمائر الناس، المُطلِعُ على أسرار الخلائق، المحيطُ بهم من كل جانب، المالكُ المطلق للسموات والأرض، المدبر لكل الوجود والموجودات، الذي يمنح الشفاعة لمن اختص به تعالى، الرحمن، الرحيم، مالك كل شيء، المتنزه عن النقائص (القدوس)، المصدِّق لرسلهِ بالمعجزات (المؤمن)، الرقيب على كل شيء (المهيمن)، القوي الغالب (العزيز)، العظيم (الجبار)، له أعظم الكبرياء (المتكبر)، الحكيم.

الثالثة : عجزُ الواصفين عن وصفه تعالى : كلُّ من وصفه عجزَ عن وصف حقيقته، فهو تعالى بعيدٌ في قربه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[243]، وقريبٌ في بعده (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)[244].

---

241 سورة البقرة: الآية 255.

242 سورة الحشر: الآيات 21 – 24.

243 سورة ق: الآية 16.

244 سورة الزخرف: الآية 84.

ومن ذلك العجز في وصفه تعالى هو العجز في معرفة الكيفية والإنية الخاصة به سبحانه وتعالى.

فالكيف: في اللغة اسم مبهم غير متمكن، والكيفية هي حالة الشيء وصفته. والكيف هو من صفات المخلوق كالتغير والحاجة. فالمخلوق يتغير جسمه وفكره بالحركة والسكون والشكل والهيئة، وكذلك تتغير حاجته من زمن إلى زمن. والله سبحانه لا يشبهه شيءٌ من خلقه، ولا يوصف بأوصافهم. قال تعالى: (... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[245].

والأين: أينَ في اللغة : أسمٌ يتضمنُ معنى الشرط للمكان . وفي الفلسفة إصطلاح (الإنية) يعني تحقق الوجود العيني للشيء . وأطلق الفلاسفة لفظ (الإنية) على واجب الوجود لذاته، لكونه أكمل الموجودات في الوجود قوة.

يقول (ع) أن الله هو الذي خلق الكيف، أي هو الذي خلق حالة الشيء وصفته. وهو الذي خلق تغير الأجسام بالحركة والسكون والشكل والهيئة، وهو الذي خلق حاجة الإنسان للطعام والشراب والزواج وغيرها. وهو الذي خلق المكان، وخلق الوجود العيني للموجودات من كائنات وأشياء. فهو سبحانه خلق المكان أو الأين، ولكنه لا يتحيز بمكان. وهو الذي خلق الكيف أو حالة الشيء وصفته في التغير والحاجة وهو متنزهٌ عنه، بل هو تعالى منزهٌ عن الأشياء التي خلقها من الناحية التركيبية أو الجسمية أو الذاتية.

---

[245] سورة الشورى: الآية 11.

قال أهل الفلسفة في قوله: كيّف الكيف فلا يقال كيف: لا تحتاج العلّة إلى المعلول ولا ترقى إلى مرتبته، فالمكان المخلوق له متأخر عنه في الوجود، لا يمكن تصور إحتياجه إلى المكان، إذا كان الكيف مخلوقاً له لم يتصور له في ذاته كيف[246].

قال العلامة المجلسي (ت 1111 هـ) بخصوص ما ذكرناه : " إشارة إلى أن قربه بالأشياء وبعده عنها ليس بالإلتصاق والإفتراق ، إذ لو كان كذلك لامتنع أن يكون قريباً في حال بعده ، وبعيداً في حال قربه ، بل يكون قريباً باعتبار إحاطته علماً بالأشياء ، وقهره قدرة عليها ، وبعيداً عنهم باعتبار عدم مجانسته ومشابهته عنهم ، وعن عقولهم وإدراكاتهم باعتبار أنها لا يمكنها أن تحوم حمى ذاته وصفاته " [247].

أنتَ الحيُّ القيومُ :

المعروف عن الإمام الحسن (ع) كثرة العبادة، وشدة الخشوع، وكان كثيراً ما يتوجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء: (يا مَنْ بسلطانهِ ينتَصِرُ المظلومُ، وبعونهِ يعتَصِمُ المكلومُ، سَبَقتْ مشيّتُكَ، وتمّتْ كلِمتُك، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبما تمضيهِ خبيرٌ، يا حاضرَ كلَّ غيبٍ، وعالِمَ كلَّ سرٍّ، وملجأَ كلِّ مضطرٍّ ، ضَلَّتْ فيكَ الفهُوم، وتقطّعتْ دونَكَ العلومُ.

---

[246] شرح أصول الكافي ج 4 ص 165.

[247] بحار الأنوار ج 4 ص 290 .

أنتَ اللهُ الحيُّ القيومُ، الدائمُ الديمُومُ، قد ترى ما أنتَ بهِ عليمٌ، وفيهِ حكيمٌ، وعنهُ حليمٌ، وأنتَ بالتّناصرِ على كشفهِ، والعونُ على كفّهِ غيرَ ضائقٍ، وإليكَ مرجعُ كلَّ أمرٍ كما عن مشيّتِكَ مصدرُهُ، وقد أبنتَ عنْ عقودِ كلَ قومٍ، وأخفيتَ سرائرَ آخرينَ، وأمضيتَ ما قضيتَ، وأخّرتَ ما لا فوتَ عليكَ فيهِ، وحملتَ ما تحمّلت في غيبِكَ، ليهلَكَ منْ هلَكَ عنْ بيّنةٍ، ويحيا من حييَّ عن بيّنةٍ، وإنّكَ أنتَ السّميعُ العليمُ، الأحدُ البصيرُ، وأنتَ اللهُ المستعانُ وعليكَ التّوكّلُ. وأنتَ وليُّ منْ تولّيتَ، لكَ الأمرُ كلُّهُ، تشهَدُ الإنفعالَ، وتعلمُ الإختلالَ، وترى تخاذلَ أهلَ الخبالَ، وجنُوحُهم إلى ما جنَحُوا إليهِ منْ عاجلٍ فانٍ، وحُطامٍ عُقباهُ حميمٌ آنٍ، وقعودُ مَنْ قعدَ، وإرتدادُ منْ إرتدَّ، وخلوّي من النصّارِ، وانفرادي عنْ الظهّارِ، وبكَ أعتصمُ، وبحبلِكَ أستمْسِكُ، وعليكَ أتوكّلُ...)[248].

في هذا الدعاء البليغ يشتكي (ع) لله تعالى بقلّة الأنصار، وردّة الناس، فيعتصم بالله ويتمسك بحبله. ففي هذا الدعاء أفكار جليلة نرتبها في ثلاث نقاط ، هي :

الأولى : أنتَ على كل شيءٍ قدير: يتوسل (ع) بالله سبحانه عبر صفاته التي وصفها لنا تعالى، ويقول بأن سلطانه الذي لا يُقهر هو الأمل الذي يحدو المظلوم ، وهو المعتصَم الذي يَعتصمُ به المجروح أو المكلوم فينتصر به. فكلمته تعالى تامة على كل ما حدث وما يحدث، ومشيئته

---

[248] مهج الدعوات ص 47.

سبقت ما حصلَ وما يحصل. فهو على كل شيء قدير، وهو الخبير بما وقعَ والعالِمَ بما سيقع، وهو العارفُ بالأسرار، والحاضرُ في الغيب والشهادة، وهو ملجأ المضطرين، وحصن المحرومين. لقد قصرت البشرية عن فهم طبيعة الخالق عز وجل ، وعجزت كل علومها عن تشخيص طبيعة بارئ الخلائق سبحانه. فضلّتْ فيك الفهوم يا ربّ، وتقطعت دونك العلوم.

الثانية : إليك ترجعُ أمور الأشياء : فمع إقرارنا بالعجز في فهم طبيعة الخالق عز وجل، إلا إننا نعلم أن الله تعالى بكل شيء عليم، فإليه ترجع أمور الأشياء كلها، فهو الحيُّ القيومُ، وهو الدائم الذي لا يفوت ولا يموت. يعلمُ سبحانه ما في ضمير الناس، لكن حكمته أنه لا يأخذ الناس بالعاجلة، بل يدبرهم بالتأني والتمهل. وكلُ إمهالٍ منه تعالى هو تدبيرٌ وحكمة. وفي النهاية فإن كل شيء يرجع إليه، فلا شيء يقفُ أمام مشيئته سبحانه. والأشياءُ كلها تخضع إلى إرادته، والأمور كلها تذعن إلى تدبيره.

الثالثة : إليكَ ترجعُ أمور الناس : كلُّ أمور الخلق ترجعُ إليه سبحانه من أسرارٍ، وخفايا، وإعلانٍ، وحياةٍ، ومماتٍ، وهلاكٍ، وفناءٍ، وإختلالٍ، وتخاذلٍ، وجنوحٍ، وإرتدادٍ. فأمور الناس ترجعُ إليه، يديرها بالحكمة والتدبير، فيمضي ما قضى، ويخفي ما أسرَّ الناس، ويرزق بتدبيرٍ، ويمنع بحكمةٍ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، وهو السميع العليم، والبصير العالِمُ بالخفيات، عليه يتوكل المتوكلون، يعلمُ سبحانه ما يجدُّ في الخلق من إختلال القلوب

والعقول، وانفعال النفوس، وتخاذل أهل الجهل، وتماسك أهل العلم، وجنوح الجاهلين إلى حطام الدنيا، وتركهم ما أُمروا به، وإرتداد من أرتد منهم.

ثم يشتكي (ع) إلى الله تعالى خلّوهِ من الأنصار الذين ينصرون دينه، فهو (ع) لا ظهير له إلا الله، فبقدرته تعالى يعتصم، وبحبله سبحانه يتمسك، وعليه يتوكل، وعليه يعتمد.

التقرب إلى الله تعالى بالطاعات:

في قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[249] يشرح الإمام (ع) تلك الآية القرآنية بالقول: (أيها الناسُ إنهُ منْ نَصحَ للهِ وأخذَ قولَهُ دليلاً هُديَ للتي هيَ أقومُ، ووفقهُ اللهُ للرشادِ وسددّهُ للحسنى، فإنَّ جارَ اللهِ آمنٌ محفوظٌ، وعدوُهُ خائفٌ مخذولٌ، فأحترِسوا منْ اللهِ بكثرةِ الذكرِ، وأخشوا اللهَ بالتقوى، وتقرَبّوا إلى اللهِ بالطاعةِ، فإنهُ قريبٌ مجيبٌ، قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[250].

فاستجيبوا للهِ وآمنوا بهِ، فإنهُ لا ينبغي لِمَنْ عرفَ عظمةَ اللهِ أنْ يتعاظمَ، فإنَّ رفعةَ الذينَ يعلمونَ عظمةَ اللهِ أنْ يتواضَعوا، والذينَ يَعرفُونَ ما

---

[249] سورة الرعد: الآية 28.

[250] سورة البقرة: الآية 186.

جلالُ اللهِ أن يتذلّلوا لَهُ، وسلامةُ الذينَ يعلمونَ ما قدرةُ اللهِ أنْ يستسلِموا لهُ، ولا ينكِروا أنفسَهم بعدَ المعرفة، ولا يضلُّوا بعدَ الهدى...) [251].

يشرح (ع) قاعدة إطمئنان القلب بذكر الله تعالى، ويضعها في موارد أربعة، هي :

الأول : النصيحةُ للهِ والهدي بالذكر الحكيم : معنى النصيحة لغةً هو الصفاء والإخلاص، والنصيحةُ لله تعني الصفاء والإخلاص لله وحده. فإذا أخلص الإنسان لربه، وصفا عمله له تعالى، هداه عز وجل لكلِ شيءٍ فيه خيراً، وسداداً، وتوفيقاً. ذلك لأن الإنسان يعيشُ في عالمٍ له طرقٌ متعددة ومتقاطعة كطرق الخير والشر، والمنفعة والمفسدة، والجدّ واللهو، والإيمان والعبث، فيحتاج إلى هداية آلهية، ويحتاج إلى هداية ذاتية من داخل نفسه تهديه إلى سلوك الطريق. وتلك الهداية الذاتية لا تأتي إلا بتدبيرهِ سبحانه . فعن طريق إخلاص المرءِ لربه تتكشف له طرق الهداية التي ترشده إلى التوفيق، وتسدد له طريقه إلى مرضاته تعالى.

الثاني : الإحتراس بكثرة الذكر : يدعو (ع) بالإحتراس من غضبه تعالى بالتعود على كثرة ذكره ، وأن جارَ اللهِ آمنٌ محفوظٌ، أي أن التقرب إليه تعالى بالعمل الصالح، والعبادة المقبولة يعدُّ وكأنه مجاورة الله تعالى. وقد وَصَفَ سبحانه مجموعة المؤمنين والمؤمنات بالقول: (...وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ

---

[251] تحف العقول ص 163.

كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[252]، (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[253].

فمن يعوّد نفسه على ذكر الله كثيراً يكون آمناً من غضبه تعالى، ومحفوظاً من شر الناس. والمؤمن الذاكر مطمئنٌ قلبه، أما الخائف المخذول فهو الذي يحارب الله، فيحاربه تعالى بالوسائل الآلهية الخفية على الإنسان ، فيجعله منهزماً مكسوراً من داخل نفسه ، لا يقدر على شيء .

الثالث : التقرب إليه تعالى بالطاعة : إنَّ أفضل طريقة في التقرب إليه تعالى هي بطاعته ، فالمطيعُ هو جارُ اللهِ بالمعنى المجازي، أي أنه لا يمكن كسب رضاه تعالى إلا بطاعته طاعة صادقة لا يشوبها غشٌ أو نفاقٌ. فالله عز وجل قريبٌ من المؤمنين، بل هو أقربُ إلى المؤمن من عقله ونفسه وقلبه. والدليل على ذلك قوله تعالى: (... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[254]، (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...)[255]. فالقرب الآلهي هو القرب العقلي من الله تعالى الذي يشعر به المؤمن في كل الأوقات .

---

[252] سورة الأحزاب: الآية 35.

[253] سورة الرعد: الآية 28.

[254] سورة ق: الآية 16.

[255] سورة البقرة: الآية 186.

الرابع : معرفة الله تعالى تقتضي التواضع والتذلل والإستسلام : فالمؤمن العارف بالله، وهو الذي بذل عمره وجهده في معرفته تعالى، لا يمكن أن يتعاظم ويتكبر على غيره. ذلك لأنه يعرف مبلغ ضآلته وصغره أمام الله، فيصبح التواضعُ صفةً دائمةً له، لأنه يعرف عظمة خالقه. ويعلمُ صغرَ كلَّ شيءٍ دونه. فكيف يتعاظم على غيره وقد شخُصت أمامه حقيقة الأشياء؟

إذن حال العارف بجلاله تعالى يتذلل له، ويسحق ذاته ووجوده في الله، لأن المخلوق لا يساوي شيئاً أمام عظمة خالقه. وكذلك العارف بقدرة الله يستسلم لسلطانه وجبروته تعالى، فيعلم أن قدرة الله أعظم من قدرة المخلوقين جميعاً. وعند إكتمال ذلك المقدار من العلم والمعرفة تتفتح بصيرة الإنسان الداخلية فيرى ما لا يراه الآخرون من الهدى والمعرفة.

فلابد للإنسان ، على ضوء حكمة الإمام (ع) ، أن يستجيب لله تعالى، ويؤمن به إيماناً مبنياً على العلم والمعرفة والحكمة، واستيعاب الفكرة القائلة بأن التقرب إليه تعالى لا يتم إلا بصدق المجاورة الذهنية والقلبية لخالق الوجود. عندها يطمئن قلب المؤمن بوجوده تعالى ، بصورة وصفها القرآن الكريم بأنها أقرب إليه من حبل الوريد.

صفات أخرى للآلوهية :

يشرح الإمام الحسن (ع) صفات أخرى للخالق عز وجل : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يكُنْ لهُ أولٌ معلومٌ، ولا آخرٌ متناهٍ ، ولا قَبْلٌ مُدرَكٌ، ولا بعدٌ محدودٌ، ولا أمدٌ بحتّى، ولا شخصٌ فيتجزأ، ولا اختلافُ صفةٍ فيتناهى. فلا تدرِكُ العقولُ وأوهامُها، ولا الفكرُ وخطراتُها، ولا الألبابُ وأذهانُها صفتَهُ،

فيقول: متى؟ ولا بدئَ ممَّ؟ ولا ظاهرَ على ممَّ؟ ولا باطنَ ممَّ؟ ولا تاركَ فهلاّ؟ خلقَ الخلقَ فكانَ بديئاً بديعاً، إبتدأَ ما أبتدعَ، وأبتدعَ ما إبتدأَ، وفعلَ ما أرادَ، وأرادَ ما إستزادَ، ذلكُم اللهُ ربُّ العالمينَ)[256] .

يشرح (ع) في هذا المقطع بعض صفات التوحيد ، ضمن النقاط الثلاث التالية :

الأولى : في الصفات السلبية : هي الصفات التي تدلّ على سلب ما لا يليق بالله تعالى ، يشرحها الإمام (ع) في سبعة موارد ، هي :

1 - لم يكن له أولٌ معلومٌ : الأول في اللغة ضد الآخر. والأول هو من يأتي قبل غيره في الوقت أو الترتيب. وليس لله عز وجل إبتداء، ولم يأتِ أحدٌ قبله في الوقت أو الترتيب سبحانه وتعالى . وتسمى أيضاً بالقدِم الذاتي، ومعناها عدم افتتاح الوجود .

وفي قوله تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[257] معانٍ ، هي : أن الأول هو قبل كل شيء بلا ابتداء ، كان هو ولم يكن شيء موجوداً ؛ والآخر ، بعد فناء كل شيء ، بلا انتهاء تفنى الأشياء ويبقى هو . والمعنى في قول الإمام (ع) : (الذي لم يكن له أول معلوم ، ولا آخر متناهٍ) أنه هو أول قبل أي شيء نعلمه، فهو الأول

---

[256] التوحيد ص 45.

[257] سورة الحديد : الآية 3 .

مطلقاً، وهو الآخر مطلقاً .

2 - **ولا آخرٌ متناهٍ** : (الآخر) في اللغة هو أحد شيئين يكونان من جنس واحد. ويسمى في الفلسفة بالبقاء ، وهو عدم اختتام الوجود. ودليل ذلك قوله تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[258] ، فهو الآخر لا شيء بعده ، أي هو الآخر مطلقاً .

3 - **ولا قَبْلٌ مُدرَكٌ** : معنى الإدراك هو كشف ما في النفس من الشيء المعلوم من طريق التعقل بالبرهان أو الدليل أو الخبر . فيكون معنى : ولا قَبْلٌ مُدرَكٌ ، هو أن قوة الإدراك عند الكائنات المخلوقة لا تستطيع إدراك الخالق عز وجل . وإذا كان عقل الإنسان القوة المهيئة لقبول العلم ، فكيف يستطيع ذلك العقل إدراك ما كان قبل إيجاده .

4 - **ولا بعدٌ محدودٌ** : البُعد هو إتساع المدى . والمحدود هو الذي يكون إطاره ضيقاً ، وأفقه قليلاً . يُقال في العربية محدود الفكر أي سطحي ، ضيق الأفق . فيكون المعنى أن الله سبحانه لا يحدّه أفق ، ولا يحيطه سياج ، ولا تحده علامات .

5 - **ولا أمدٌ بحتى** : معنى الأمد : هو الوقت والزمان ، وحتى: حرفُ جرٍ

---

[258] سورة الحديد : الآية 3 .

يدلُّ على الإنتهاء، ويدلُّ أيضاً على الغاية. فيكون المعنى ليس لله عز وجل وقتٌ على الإنتهاء ولا زمانٌ له على وصول الغاية، بل هو سبحانه لا يحدّه زمان، ولا يحدده أمد . وينطبق ذلك على الصفات السلبية ، التي هي البقاء أو عدم إختتام الوجود .

6 – **ولا شخصٌ فيتجزأ** : الشَّخصُ كلُ جسمٍ له ارتفاعٌ وظهورٌ، ويغلب الوصف على الإنسان . وفي المعاني الفلسفية: الشخص هو الذاتُ الواعيةُ لكيانها ، المستقلةُ في إرادتها. والشخص يتجزأ ، فالإنسان يتجزأ إلى أجزاء متنوعة كالعظم والجلد والدم والشعر ونحوها . وربما يتجزأ إلى أطراف ورأس وبطن ونحوها. فالله سبحانه يتنزه عن التجزأ سبحانه وتعالى .

7 – **ولا اختلاف صفةٍ فيتناهى** : معنى التناهي هو : تناهى الشيء بلغ نهايته . ومعنى ما قاله الإمام الحسن (ع) هو: ليس هناك اختلاف في صفاته ، فتبلغ نهايتها . فصفاته سبحانه أبدية أزلية ، وهي مهما وسعت فإنها لا تبلغ النهاية . قال تعالى في كتابه الكريم في سعة كلماته : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [259].

الثانية : عدم إدراك العقول كنهَهُ سبحانه : لا تدركه عقول البشر لأنه

---

[259] سورة لقمان : الآية 27 .

تعالى : (... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[260] ، (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)[261] . فعلمُ المخلوقات محدود لا يستوعب كنهه سبحانه وتعالى ، ولا يعرفونه حق معرفته . وعدم إمكانية معرفة كنهه راجعٌ سببه إلى امتناع ذلك في نفسه ، فلا وسيلة لدى الخلق تسمح لهم بالإحاطة بذلك . فالبشر قاصر عن الوصول إلى ذلك .

وعن الإمام الصادق (ع) قال : (سبحان من لا يعلم أحدٌ كيف هو إلا هو ، ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصيرُ، لا يُحدُّ ولا يُحسُّ ولا يُجسُّ، ولا تدركه الأبصار ولا الحواسُّ ، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا صورةٌ ولا تخطيطٌ ولا تحديدٌ)[262]. وهو موازٍ لما قاله الإمام الحسن (ع) قبله.

الثالثة : إبداع الخلق الذي خلق : إذا تأمل الإنسان في خلق الله عز وجل لوجد أن كل ما خلقه تاماً كاملاً متقناً أشد الإتقان ، فالله بديع السموات والأرض ، وذلك دليل عظمته وقدرته . فما أن تنظر إلى الكون وترى النجوم والمجرات والكواكب لتيقنت أنها تتحرك بنظام كامل ، كلٌ يسير في فلكه ، ولا يحيد ، ولا يصطدم بآخر .

وإذا خفضتَ عينيك إلى الأرض، لرأيتها متناسقة في الإيجاد

---

[260] سورة الشورى : الآية 11 .

[261] سورة طه : الآية 110 .

[262] بحار الأنوار ج 3 ص 290 .

والأسباب والوظائف ، فمن المطر الذي ينزل على الأرض، فيُنبت الزرع ، إلى الرياح التي تحرك الغيوم وتسوق اللقاح لكي تثمر الأشجار ، إلى الشمس التي تشرق كل يوم وتنظّم الزمن وتُدفئ الأرض ، إلى الجبال المتناسقة والأنهار والوديان . فقد أبدع الباري عز وجل في خلقه الذي خلقَ ودبرَ .

قال العلامة المجلسي (ت 1111 هـ) : " معلوم هذه الصفة والصفات التي بعدها موضحات مؤكدات، إذ لو كان له أول لكان معلوماً ، وهكذا . قوله (ع): فيتناهى أي اختلاف في الصفات ينافي الأزلية والأبدية كما مر قوله (ع): فتقول متى ؟ أي لو كانت العقول تبلغ صفته لكان كسائر الممكنات فكان يصح أن يقال : متى وجد ؟ ومن أي شيء بدئ ؟ على المجهول "[263].

في الرد على من شبّه الله بخلقه:

يقول (ع) في حديث له عن صفات الله تعالى أيضاً : (كلُّ جسمٍ مغذّىً بغذاءٍ، إلا الخالقُ الرازقُ، فإنهُ جسّمَ الأجسامَ، وهو ليسَ بجسمٍ ولا صورةٍ، لمْ يتجزّأ، ولمْ يتناهَ، ولمْ يتزايدَ، ولمْ يتناقصَ، مبرّأٌ مِنْ ذاتِ ما ركّبَ في ذاتِ مَنْ جسّمَهُ، وهو اللطيفُ الخبيرُ، الواحدُ الأحدُ، الصمدُ، لمْ يلِدْ، ولمْ يولَدْ، ولمْ يكُنْ لهُ كفواً أحدٌ. منشئُ الأشياءِ، ومجسّمُ الأجسامِ، ومصوّرُ الصورِ. لو كانَ كما تقولُ المشبّهةُ لمْ يُعرَفْ الخالقُ مِنَ المخلوقِ، ولا

---

[263] بحار الأنوار ج 4 ص 289 .

الرازقُ مِنَ المرزوقِ، ولا المنشِئُ منَ المُنشَأ. لكنهُ المنشِئُ، فرّقَ بينَ مَنْ جسَّمَهُ وصوَّرهُ، وشيّأهُ وبيّنَهُ، إذا كانَ لا يشبهُهُ شيءٌ).

قال السائل: فالله واحد، والإنسان واحد، فليس قد تشابهت الوحدانية؟

أجاب (ع) : (أحلْتَ – ثبّتكَ اللهُ – إنما التشبيهُ في المعاني، وأمّا في الأسماءِ فهي واحدةٌ، وهي دلالةٌ على المسمّى، وذلك أنَّ الانسانَ وإنْ قيلَ: واحدٌ فانهُ يُجزّأ، إنهُ جثّةٌ واحدةٌ وليسَ بإثنين. و[لكن] الإنسانَ نفسَهُ ليسَ بواحدٍ، لأنَّ أعضاءَهُ مختلفةٌ، وألوانَهُ مختلفةٌ غيرُ واحدةٍ، وهو أجزاءٌ متجزأةٌ، ليسَ سواءٌ، دمُهُ غيرُ لحمهِ، ولحمَهُ غيرُ دمهِ، وعصَبهُ غيرُ عروقهِ، وشعرَهُ غيرُ بشرهِ، وسوادَهُ غيرُ بياضهِ، وكذلكَ سائرُ جميعِ الخلقِ، فالإنسانُ واحدٌ في الإسمِ، لا واحدٌ في المعنى، واللهُ جلَّ جلالَهُ واحدٌ لا واحدٌ غيرهُ، ولا إختلافَ فيهِ، ولا تفاوتٌ، ولا زيادةٌ، ولا نقصانٌ، فأمّا الإنسانُ، المخلوقُ، المصنوعُ المؤلَّفُ، فمِنْ أجزاءٍ مختلفةٍ، وجواهرٍ شتّى، غير إنّهُ بالإجتماعِ شيءٌ واحدٌ).

قال السائل: فقولك: اللطيف، فسّره لي، فإني أعلم: أن لطفه خلاف لطف غيره للفصل، غير أنّي أحبّ أن تشرح لي.

أجاب (ع): (إنّما قلت: اللطيفُ للخلقِ اللطيفِ، ولعلمِهِ بالشيءِ اللطيفِ، ألا ترى إلى أثرِ صنعَهُ في النباتِ اللطيفِ وغيرِ اللطيفِ، وفي الخلقِ، مِنْ أجسامِ الحيوانِ، مِن الجرجسِ[264]، والبعوضِ، وما هو أصغرُ

---

[264] الجرجس : البعوض الصغار .

منهُما، مما لا يكادُ تستبينُهُ العيونُ، بلْ لا يكادُ يُستبانُ لصغرِهِ، الذكرُ مِنَ الأُنثى، والمولودُ مِنَ القديمِ، فلمّا رأينا صُغرَ ذلكَ في لطفِهِ، واهتداءِهِ للسفادِ، والهربِ مِنَ الموتِ، والجمعِ لما يصلُحُهُ ممّا في لججِ البحارِ، وما في لحاءِ الأشجارِ، والمفاوزَ والقفارِ، وأفهامِ بعضُها عن بعضٍ منطِقُها، وما تُفهِمُ بهِ أولادَها عنها، ونقلها الغذاءَ إليها، ثم تأليفُ ألوانِها: حمرةً معَ صفرة، وبياضاً مع حُمرة، عَلِمنا: أنَّ خالقَ هذا الخلقُ لطيفٌ، وإنَّ كلَّ صانعِ شيءٍ فمنْ شيءٍ صنَع، واللهُ الخالقُ اللطيفُ الجليلُ، خلقَ وصنعَ لا منْ شيءٍ).

قال السائل: وغير الخالق الجليل خالق؟

أجاب (ع): (إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى يقولُ: (... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[265] فقدْ أخبرَ: أنَّ في عبادهِ خالقينَ وغيرِ خالقينَ، منهم عيسى (ع) خلَقَ منَ الطينِ كهيئةِ الطيرِ بإذنِ اللهِ، فنفخَ فصارَ طائراً بإذنِ اللهِ. والسامريُّ خلقَ لهم عِجلاً جسداً لهُ خوارٌ).

قال السائل: إنّ عيسى خلق من الطين طيراً، دليلاً على نبوته، والسامريّ خلق عجلاً جسداً لنقض نبوة موسى (ع)، وشاء الله أن يكون ذلك كذلك، إن هذا لهو العجب.

أجاب (ع): (إنَّ للهِ إرادتينِ ومشيئتينِ: إرادةُ حتمٍ وإرادةُ عزمٍ، ينهى وهو يشاءُ، ويأمرُ وهو لا يشاءُ، أو ما رأيتَ أنّهُ نهى آدمَ وزوجتَه أنْ يأكلا مِنَ الشجرةِ، وهو شاءَ ذلكَ، لو لمْ يشأ لمْ يأكلا، ولو أكلا لغلبتْ مشيئتهما

---

[265] سورة المؤمنون: الآية 14.

مشيةُ اللهِ. وأمرَ إبراهيمَ بذبحِ إبنهِ إسماعيلَ (ع) وشاءَ أنْ لا يذبَحَهُ، ولو لمْ يشأ أنْ لا يذبحهُ لغلبتْ مشيئةُ إبراهيمَ مشيةِ اللهِ عزّ وجلّ).

قال السائل: أنك قلت: السميع البصير، سميع بأذنٍ وبصير بالعين؟

أجاب (ع): (إنهُ يسمعُ بما يُبصرُ، ويرى بما يسمعُ، بصيرٌ لا بعينٍ مثلَ عينِ المخلوقينَ، وسميعٌ لا بمثلِ سمعِ السامعينَ، لكن لمّا لا تخفى عليهِ خافيةٌ، مِنْ أثرِ الذرةِ السوداءِ، على الصخرةِ الصماءِ، في الليلةِ الظلماءِ، تحت الثرى والبحارِ، قلنا: بصيرٌ لا بمثلِ عينِ المخلوقينَ. وسميعٌ بما لمْ تشتَبِه عليهِ ضروبُ اللغاتِ، ولم يشغلُهُ سمعٌ عنْ سمعٍ. قلنا: سميعٌ لا بمثلِ السامعينَ).

قال السائل: يعلم القديم، الشيء الذي لم يكن، أن لو كان كيف كان يكون؟

أجاب (ع): (أما سمعتَ اللهَ يقولُ: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[266]، وقولُهُ: (... وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ...)[267]، وقالَ حاكياً قولُ أهلِ النارِ: (... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ...)[268]، وقالَ: (... وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[269]، فقدْ عَلِمَ الشيءَ الذي لمْ يكنْ، أنْ لو كانَ

[266] سورة الأنبياء: الآية 22.

[267] سورة المؤمنون: الآية 91.

[268] سورة فاطر: الآية 37.

[269] سورة الأنعام: الآية 28.

كيفَ كانَ يكونُ)[270].

فلنشرح الآن كلام الإمام الحسن (ع) في النقاط السبع التالية :

الأول : ليس كمثله شيء : يشير (ع) في صفات الخالق عز وجل إلى قوله تعالى : (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[271]. فهو سبحانه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، فصفاته عز وجل غير صفات المخلوق. وليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، كما يقولون. فالخالق سبحانه ليس كمثله شيء .

وهو الذي خلق الأجسام ، وصورها ، وأكمل تركيبها وجمّلها ، لكنه ليس بجسمٍ ولا صورة . وهو الذي جزّأ المخلوقات وجعلها أجزاءً متراكبةً كالوجه واليد والرجل ، وجعلها في جسم واحد. ثم جعلها تتزايد خلال الزمن أو تتناقص، فالطفل ينمو ويكبر ، والكبير يضعف ويتضائل ، لكنه سبحانه مبرأٌ من الزيادة والنقص والتجزئة ، وهو اللطيف الخبير ، الواحد الأحد .

ولو كان سبحانه كما تقول المجسّمة له جسم وأبعاد وحدود لما اختلف الخالق عن المخلوق ، ولا الرازق عن المرزوق، فكلامهم لا يساوي شيئاً في ميزان الحقيقة ، لأنه ببساطة ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

---

270 بحار الأنوار ج 4 ص 82.

271 سورة الشورى : الآية 11 .

الثاني : اللهُ واحدٌ والإنسانُ أجزاء : قال علماء اللغة في التشبيه : أن معنى شبَّهَ هو إلحاقُ أمرٍ بآخر لصفة مشتركة بينهما . ويتكون من : مُشبَّه ، ومُشبَّه به ، وأداة تشبيه ، ووجه شبه . ولابد من أن يكون وجه الشبه في المشبَّه به أقوى منه في المشبّه . ويضرب مثال الأسد تشبيهاً للرجل بالشجاعة .

فليس من تماثل الشيئين في الاسم أن يتماثلا في الحقيقة أي المعنى . فللإنسان مثلاً رأس فيه مخ وللحشرة رأس فيه مخ، اتفقا في الاسم واختلفا في المعنى .

فالإنسان وإن قيل واحد إلا أنه يتجزأ ، فأعضاؤه مختلفة ، كاليد والرجل والرأس. ودمُ الإنسان يختلف عن لحمه ، وعصبه يختلف عن عروقه ، وشعرَهُ يختلف عن جلده ، وهكذا . فالإنسان واحدٌ في الاسم ، وليس واحداً في المعنى ، بل هو إجزاء مترابطة .

والاسم يدل على المسمى أي أن الاسم يصدق على صاحبه ، وينطبق عليه بسبب أن مسماه يتصف بالصفة التي يعبَّر عنها بذلك الاسم. فالله عز وجل واحد ، هو فعلاً بلحاظ مسماه هو واحد، بدون أجزاء.

الثالث : الخالقُ لطيفٌ بمن خلق : معنى اللطيف في اللغة هو الذي يعلم دقائق الأمور وخفاياها ، ويعلمُ ما في ضمائر العباد وما في صدورهم. قال

تعالى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[272] ، فهو تعالى يدبر خلقه ، يخلقهم على أكمل وجه ، ثم يدبر حياتهم . وهذا لا يتعلق بالإنسان فقط ، بل كل كائن خلق في النباتات صغيرة كانت أو كبيرة، والحيوانات والحشرات مهما كان حجمها . فكيف يهتدي هذا الكائن الصغير كالبعوض مثلاً إلى التعرف على أنثاه ، فيتم التكاثر ، ثم يهتدي إلى طعامه، ثم يستمر في حياته حتى يأتيه زمن حتفه ، وهو على هذا الصغر. هذه كلها تدل على أن الله تعالى لطيفٌ بالخلق ، يعلم ما خلق ، ويدبر ما خلق ، أي لا يتركه دون تدبير . فاللطف يدل على علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة والرزق إلى تلك الأشياء التي خلقها سبحانه .

الرابع : من خلق شيئاً فهو بإذنه تعالى : ميزَّ الله تعالى بين الخالق عز وجل وبين المخلوقات ، فقال : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[273]. فحصَرَ خلق المخلوقات بيده سبحانه ، ومنحَ القدرة المحدودة لبعض عباده كعيسى (ع) بخلق شيء كهيئة الطير بإذنه ، فقال على لسان عيسى (ع) : (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْـــرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

---

[272] سورة الأنعام : الآية 103 .

[273] سورة النحل : الآية 17 .

...)[274]. فعيسى (ع) لم يَخلُقْ من عدم ، بل نفخَ فيه ، فتحول إلى طيرٍ بإذن الله تعالى. فعيسى (ع) ليس خالقاً ولا مدبراً ، بل أن تحول الطين إلى طير لم يكن بيد عيسى (ع) بإستقلالية ، بل كان بإذن الله تعالى ، تم ذلك لأن عيسى (ع) كان بحاجة إلى معجزة أمام بني إسرائيل ، فتمت بتحول الطين إلى طير بإذن الله . وخلق الله تعالى هو الصنع والتقدير والإبداع من عدم .

أما السامري فهو الذي أغوى بني إسرائيل ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فأضلَّ الكثير من بني إسرائيل ، قال تعالى على لسان موسى : (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)[275]. وصناعة ذلك العجل من الذهب الذي استعاره اليهود من فرعون ، كان بمثابة الإيجاد أو الخلق ، مع أنه كان جامداً ليست فيه حياة.

الخامس : إرادة الحتم وإرادة العزم : إرادة الحتم هي الإرادة التكوينية ، وهي ما تعلقت بأفعال العباد بإختيارهم وإرادتهم. وهذه الإرادة مرتبطة بفكرة أن فعل العبد لا يقع في ملكه إلا بإرادته تعالى . أي أن الله يريد فعل

---

[274] سورة آل عمران : الآية 49 .

[275] سورة طه : الآية 97 .

الإنسان ، وإذا لم يرد أبطله بطريقة من الطرق، أو عن طريق مقدمة من المقدمات.

أما إرادة العزم فهي الإرادة التشريعية من أوامر ونواهي. وأثر هذه الإرادة هو إفهام العباد بما يريده الله تعالى منهم ، توضحت هذه الإرادة عبر كتاب الله المجيد، وسنّة رسوله (ص) وأهل بيته (ع) .

مثّل الإمام الحسن بمثالين: الأول : مثالُ آدم وحواء فقد نهاهما من أن يأكلا من الشجرة ، لكن مشيئته كانت أن يأكلا منها. فأكلا منها ، فتحققت مشيئته . ولو لم يشأ لم يأكلا أبداً، لأن مشيئته تعالى هي الغالبة.

والمثال الثاني هو : أمر إبراهيم (ع) بذبح ابنه إسماعيل (ع)، وكانت مشيئته تعالى أن لا يذبح ابنه . ولو لم يشأ لذبح إبراهيم (ع) ابنه ، ولكن مشيئة الله تعالى هي الغالبة ، فتحققت مشيئته تعالى.

السادس : لا يبصرُ بعينٍ ولا يسمعُ بأُذن : من صفات الله عز وجل أنه بصيرٌ لا بعين مثل عيون المخلوقات ، فهو يسمعُ بما يبصر ، ويرى بما يسمعُ . أي أن الله عز وجل لا يتصف بصفات المخلوقات . فصفة المخلوق أنه يرى بالعين ويسمع بالأُذن ، والله سبحانه متنزهٌ عن ذلك ، فليس له جسمٌ ولا حدٌ محدودٌ ، وليس له صفةٌ ترتسم في عقول المخلوقات. ومن وَصَفَهُ بصفةِ المخلوق ، فقد وصفه بما يحصل في عقل الإنسان المخلوق فقط ، وثبّت للخالق عز وجل ما يعقل من صفات المخلوقات، وهذا غير الحقيقة . لكن الحقيقة والواقع هو أن الخالق عز وجل منزهٌ عن مخلوقاته في صفاتهم وكينونتهم .

السابع : عالِمُ الشيء الذي لم يكن : علمُ الله تعالى يشمل كل شيء: علم ما كان في الماضي ، وما يكون في الحاضر ، وما سيكون المستقبل، ويعلمُ ما لم يكن. ويعلمُ كيفية أيُّ شيءٍ لو كان ، أي لو خُلِقَ كيف سيكون. فهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل في كل شيء ، وفي كل أمر . فلا يحجب علمه سماءً بعيدةً ، أو أرضاً مقفرةً ، أو بحراً لُجياً مظلماً، قال تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[276] .

والآيات التي ساقها الإمام (ع) تفسر هذه الفكرة . فالآية الأولى تقول : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) [277]. هذه الآية الكريمة تعكس أحد البراهين العقلية في إثبات وحدانية الله تعالى ونفي تعدد الخالق ، ويسمى بـ (دليل التمانع). وهذا البرهان مؤلفٌ من مقدمتين : الأولى : وجود الإنسجام والتناسق والوحدة في عالم المخلوقات. والثانية : لو كان يحكم هذا الكون أكثر من إله لما انتظم ولدخل في دوامة الفساد والخلل. إذن ندرك بالبداهة أن هذا الكون منشأه إلهٌ واحدٌ حكيمٌ قادرٌ . فلا خالق ولا مدبر إلا الله سبحانه وتعالى .

---

[276] سورة الأنعام : الآية 59 .

[277] سورة الأنبياء : الآية 22 .

أما الآية الثانية ، وهي : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)[278] ، فهي تعطي نفس المعنى ، وهو حقيقة وجود الخالق المدبر الواحد المستحق للعبادة والخشوع ، بديع السموات والأرض .

والآية الثالثة : (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)[279] ، والآية الرابعة : (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[280]. نستخلص من هاتين الآيتين الكريمتين أن الشاهد على كون النار إنما هي جزاء لهم لا ينفك عنهم ، لأن الله تعالى يعلم الشيء الذي لم يكن ، أن لو كان من مصير هؤلاء المجرمين ، كيف كان ، يكون . أي أنه تعالى يعلم أنهم لو أخرجوا من النار ، لعادوا لمعاصيهم السابقة التي ارتكبوها وأوصلتهم إلى هذا العقاب . فهو سبحانه يعلم ما كان وما لم يكن، وطبيعة ما كان ، وطبيعة ما لم يكن. فهو تعالى محيطٌ بكل شيء .

في الجبر والتفويض والقدر:

في هذا الموضوع الشائك يكتب له الحسن البصري (ت 110 هـ)

---

[278] سورة المؤمنون : الآية 91 .

[279] سورة فاطر : الآية 37 .

[280] سورة الأنعام : الآية 28 .

متسائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإنكم معشر بني هاشم، الفلك الجارية واللجج الغامرة، والأعلام النيرة الشاهرة، أو كسفينة نوح (ع) التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون، كتبت اليك يابن رسول الله عند إختلافنا في القدر، وحيرتنا في الإستطاعة، فأخبرنا بالذي عليه رأيك، ورأي آبائك عليهم السلام، فان من عِلْمِ اللهِ عِلْمِكُم وأنتم شهداء على الناس، والله الشاهد عليكم، (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[281].

فيجيبه الإمام الحسن (ع) بعد البسملة والتحية: (مَنْ لمْ يُؤمنْ بالقدرِ خيرُهُ وشرُّهُ، وأنَّ اللهَ يعلمُهُ فقدْ كفرَ، ومَنْ أحالَ المعاصي على اللهِ فقدْ فجرَ. إنَّ اللهَ لمْ يُطَعْ مُكرهاً، ولمْ يُعصَ مَغلوباً، ولمْ يهمِلْ العبادَ سدىً من المملكةِ، بل هو المالكُ لما ملَّكهم، والقادرُ على ما عليهِ أقدَرهم، بلْ أمَرَهم تخييراً، ونهاهُم تحذيراً، فإن إئتمروا بالطاعةِ لمْ يجدوا عنها صادّاً، وإن انتهوا إلى معصيةٍ فشاءَ أنْ يمُنَّ عليهم بأن يَحُولَ بينهم وبينها فعلَ، وإنْ لمْ يفعلْ فليسَ هو الذي حَمَلَهم عليها جبراً، ولا ألزموها كرهاً، بل منَّ عليهِمْ بأنْ بصَّرهم وعرَّفهم وحذَّرهم، وأمرَهم ونهاهُم، لا جبْلاً [282] لهم على ما أمرهم بهِ فيكونوا كالملائكةِ، ولا جبراً لهم على ما نهاهُم عنهُ، (... فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)[283] والسلامُ على مَنْ إتبعَ الهدى)[284].

---

[281] سورة آل عمران: الآية 34.

[282] معنى جَبَلَ فلاناً على الشيء :فطره وطبعه عليه ، كمن جبله على الخير .

[283] سورة الأنعام: الآية 149.

[284] تحف العقول ص 231.

واللافت للنظر أنّه وبعد سنوات يسأل الحسنُ البصري الإمامَ الحسين (ع) سؤالاً مشابهاً، فيأتيه جواب مشابه.

ويكتب له أهل البصرة كتاباً، يسألونه فيه عن حقيقة الأمر في الجبر والتفويض، فيكتب (ع) لهم: (مَنْ لمْ يُؤمِن باللهِ قضاؤُه وقدرُه فقدْ كفَرَ، ومَنْ حَملَ ذنبهُ على ربّهِ فقدْ فَجرَ. إنَّ اللهَ لا يُطاع إستكراهاً. ولا يعصى لغلبةٍ، لأنه المليكُ لما ملّكهم، والقادرُ على ما أقدرهم، فإنْ عمِلوا بالطاعةِ لم يَحلْ بينهم وبين ما فعلوا، فإذا لم يفعلوا فليسَ هو الذي أجبرهم على ذلكَ، فلو أجبرَ اللهُ الخلقَ على الطاعةِ لأسقطَ عنهم الثوابَ، ولو أجبرَهم على المعاصي لأسقطَ عنهُم العقابَ، ولو أهملَهم لكانَ عجزاً في القدرةِ، ولكن له فيهم المشيئةَ التي غيّبها عنهم، فإن عمِلوا بالطاعاتِ كانت لهُ المنّةُ عليهِم، وإن عمِلوا بالمعصيةِ كانتْ الحجةُ عليهم)[285].

يختصر الإمام الحسن (ع) فكرة التفويض والجبر والقدر في أفكار أساسية ، نجملها في ثلاث نقاط ، هي :

الأولى : وجوب الإيمان بالقدر : يسند الله تعالى التقدير إلى نفسه ، كما قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) [286] ، وفي القضاء يقول : (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

[285] جمهرة رسائل العرب ج ص 25.

[286] سورة الأعلى : الآية 2 – 3 .

فَيَكُونُ)[287]. وبعبارة أوضح أن القضاء هو الحكم بالشيء ، والقدر هو تقدير الخلق والرزق والآجل . ذكرهما الإمام الرضا (ع) بدقة ، وقال (ع): (القدر هو الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء ، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين)[288] . بمعنى ثانٍ أن القدر هو التخطيط أو الإرادة الآلهية: كن فيكون ، والقضاء هو التنفيذ . فلابد من الإيمان بالقدر والقضاء ، وأن الله تعالى هو الذي يقدّر الخلق والرزق والآجال . وقضاؤه حتم على جميع المخلوقات والأشياء.

الثانية : أن الله لا يُكرَه ولا يُغلَب : والله سبحانه وتعالى لا يقضي ولا يقدِّر إلا بالحق ، كما يقول : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ...) [289]، أي أمرَ ربك وأوجبَ عليكم ألا تعبدوا إلا إياه. وقوله تعالى : (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[290]، أي أنه إذا أراد أمراً ، فإرادته تخلق الشيء وتكوّنه. وقوله تعالى : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)[291] ، أي قضاءً محكماً ، وحُكماً مبرماً .

---

[287] سورة البقرة : الآية 117 .

[288] الكافي ج 1 ص 158 .

[289] سورة الإسراء : الآية 23.

[290] سورة البقرة : الآية 117 .

[291] سورة الأحزاب : الآية 38 .

فالإنسان لا يتدخل في إرادة الله تعالى، والله سبحانه لم يهمل العباد، فكلُّ شيء له في ميزان ، وكلُّ عملٍ في كتاب ، ولكل شيءٍ أجلٌ مسمى ، فهو القادر عليهم . والله تعالى كلفَّ العباد تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً ، ولم يُطع مُكرهاً .

الثالثة : أمرَهم تعالى ثم تركَ لهم التخيير : أي أن الله تعالى أمر العباد وحذّرهم وأنذرهم وبشرّهم، ثم ترك لهم التخيير بين الفعل من عدمه. فإن إئتمروا بالطاعة فذاك ، وإن انتهوا إلى معصيةٍ فلا يجبرهم عليها ، بل يفتح لهم أبواباً ليحول بينهم وبينها بفعل . يبصّرُ اللهُ العبادَ ، ويعرّفهم ، ويحذرهم ، ويؤمرهم ، وينهاهم . كل ذلك كي لا يقعوا في دائرة العقاب. فالله تعالى يريد لعباده أن يكونوا في ظلِّ مرضاته ، وتحت رحمته ، ولذلك سهلَّ لهم أبواب التوبة والمغفرة والإنابة ، فإذا أصروا على المعصية ، وعاندوا ، وصمّوا آذانهم عن الموعظة فذاك شأنهم ، وعليهم مواجهة تبعات تلك المعصية وآثارها .

صفات الله تعالى: في القنوت

وكان (ع) يدعو في قنوته: (اللهمَّ إنّكَ الربُّ الرؤوفُ، الملكُ العطوفُ، المتحننُ المألوف، وأنتَ غياثُ الحيرانِ الملهوفِ، ومرشدُ الضّالِ المكفوفِ، وتشهَدُ خواطرَ اسرارَ المسّرين، كمشاهدتِكَ أقوالَ الناطقينَ. أسألُكَ بمغيباتِ علمكِ في بواطنِ أسرارِ المسرّينَ إليكَ أنْ تصليَّ على محمدٍ وآلهِ صلاةً يسبقُ بها من إجتهدَ من المتقدمينَ، ويتجاوزُ فيها منْ

يجتهدُ من المتأخرينَ، وأنْ تصلَ الذي بيننا صلةَ من صنعته لنفسك، واصطنعتَهُ لغيبِكَ، فلم تتخطفهُ خاطفاتِ الظننِ، ولا ارداتِ الفتنِ حتى نكونَ لكَ في الدنيا مطيعينَ، وفي الآخرةِ في جواركَ خالدينَ)[292] .

في هذا القنوت معانٍ عظيمةٍ ، يسأل الإمام الحسن (ع) ربه تعالى الهداية والرحمة ، ويستغيث به استغاثة الحيران الملهوف ، الذي لا يرى من الدنيا الفانية غير الضبابية، ويدعو بأن يصل بينه وبين الإمام الحجة (ع) الذي اصطفاه لنفسه تعالى ، وجعله حافظاً لدينه آخر الزمان ، وأن يحفظ عمره من واردات الفتن ، وخاطفات الظنن . وهذا دعاء يثبت عظمة أهل البيت (ع) الذين كانوا يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى لحفظ إمام سوف يولد بعد قرنين من الزمان، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بما أوصاهم به جدهم رسول الله (ص).

في نبوة محمد رسول الله (ص)

رسول الله محمد (ص) مصدر عزّ أئمة أهل البيت (ع)، فقد عاشوا في بيته ومسجده (ص) والوحي ينزل عليه (ص)، فهم من نسل الدوحة المحمدية. ارجعوا فضائلهم بعد الله عز وجل إلى جدهم رسول الله (ص)، فعلمهم مستمدٌ منه، وأخلاقهم مطابقة لاخلاقه (ص)، وسيرتهم (ع) عطرة كسيرته (ص).

---

[292] مهج الدعوات ص 297.

صفاتُ رسول الله (ص):

يقول الإمام الحسن (ع) في الإقرار بنبوة محمد (ص): (أشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، إمتنَّ علينا بنبوّتهِ، واختصَّهُ برسالتهِ، وأنزلَ عليهِ وحيَّه، واصطفاهُ على جميعِ خلقهِ، وأرسلَهُ إلى الإنسِ والجنِّ، حينَ عُبِدت الأوثانُ وأُطِيعَ الشيطانُ، وجُحِدَ الرحمنُ، فصلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وجزاهُ أفضلَ ما جزى المسلمينَ)[293].

يقرُّ (ع) في جميع خطبه ورسائله بشهادة التوحيد، ثم بشهادة النبوة لمحمد (ص). وفي ذلك أمور ثلاثة ، هي :

الأول : الشهادةُ لمحمد بن عبد الله (ص) بالنبوة : فرسول الله محمد بن عبد الله (ص) اختصه الله تعالى برسالته الخاتمة للبشرية جمعاء، وأيده الله تعالى بمعجزة القرآن، وسانده بالوحي، واختاره من بين جميع الخلق، واصطفاه ليكون حاملاً لرسالة الدين إلى البشر جميعاً في زمن كانت الوثنية وعبادة الأصنام والشرك قد طغت على العباد، فجهِلَ الناسُ خالقهم ومدبّرهم. جاء رسول الله محمد (ص) بالرسالة، وبلّغها بصدقٍ وأمانةٍ، فكان الصادق الأمين، البشير النذير، أفضل خلق الله قاطبة.

---

[293] شرح نهج البلاغة – (ح) ، ج 14 ص 11.

الثانية : صفاته (ص) : صفاتُ محمدٍ (ص) هي صفات الكمال، فهو صاحب الأخلاق العليا، كما قال تعالى في صفته: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[294]، وحامل الصفات الفاضلة، كما وصفه تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...)[295]. فكان رسول الله (ص) رحمةً بنا، لأن الله اختصه برسالته، فهو نبيُّ الرحمة، وشفيع الأمة . جاهد عبدة الأوثان والشرك، وحطم تماثيلهم وأصنامهم التي كانت تُعبد من دون الله. فأرجع بكمالِ سلوكهِ من شذَّ عن الطريق، وأرجعَ البشرية إلى طاعة الرحمن.

الثالث : الصلاة عليه (ص) : قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[296]. نقلت التفاسير القرآنية كيفية الصلاة على النبي (ص)، وأكدت قوله (ص) : (اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلّيتَ على آلِ إبراهيمَ إنكَ حميدٌ مجيدٌ، وباركْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ إنكَ حميدٌ مجيدٌ)[297].

ذكرت أغلب الكتب الحديثية معنى صلاة الله على النبي (ص) وآله، وصلاة الملائكة عليه، وصلاة المؤمنين عليه . فصلاة الله تعني :

---

[294] سورة القلم: الآية 4.

[295] سورة آل عمران: الآية 159.

[296] سورة الأحزاب: الآية 56.

[297] بحار الأنوار ج 27 ص 258 .

الرحمة، وصلاة الملائكة تعني : الاستغفار[298]، وصلاة المؤمنين تعني الدعاء.

أخبر الله تعالى عباده بمنزلة نبيه محمد (ص) عنده في الملأ الأعلى، بالثناء عليه عند الملائكة، والملائكة تدعو له. ثم أمر العالَم الأدنى بالصلاة عليه. قال تعالى في الصلاة على عباده المؤمنين أيضاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)[299]، (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[300]. فإذا كانت الصلاة من الله تعالى على المؤمنين جائزة عقلاً، فليس غريباً أن تكون الصلاة على محمدٍ وعلى آله الطاهرين من قبله تعالى أمراً ممكناً .

محمد (ص) أصدق الرسل:

في وصية الإمام علي (ع) لابنه الحسن (ع) يقول: (واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ (ص)، فَارْضَ بِهِ

---

[298] تفسير الجلالين ج 11 ص 210 . الآية 56 من سورة الاحزاب.

[299] سورة الأحزاب: الآيات 41 – 43.

[300] سورة البقرة: الآيات 155 – 157.

رَائِداً، وإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ)[301].

يشرح الإمام علي (ع) للحسن (ع) صفات رسول الله (ص)، ودوره (ص) في تبليغ رسالة الإسلام في نقاط ثلاث ، هي :

الأولى : صِدْق رسول الله محمد (ص) : كان رسول الله محمد (ص) صادقاً في تبليغ رسالة الإسلام، كان (ص) الأفضل والأطهر والأعلى رتبةً بين الرسل والأنبياء (ع)، ولذلك قال (ع): إن أحداً لم يُنبئ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسول (ص). فهو الصادق الأمين، خاتم الرسل والأنبياء، ولولا صدقه (ص) ما بلغتنا الرسالة السماوية بهذا القدر من الدقة والمصداقية.

الثانية : ارضَ به (ص) رائداً وقائداً : يدعوه (ع) للإيمان برسالته (ص) إيماناً راسخاً صادقاً. يقول (ع) بالحرف: ارضَ به (ص) رائداً، أي ارضَ به نبياً مرسلاً من قبل الله تعالى، يتقدم قومَهُ، وينيرُ لهم الطريق. وقد قيل أن الرائدَ لا يكْذِبُ أهْلَهُ. والمعنى : أن الرائد الذي يتقدم القوم هو الذي يرتاد ماءً أو يصل موضعاً يلجئون إليه من عدوٍ يطلبهم، فإن كذبوه كان فيه هلاكهم. والقائد هو من يكون له الأمر والنهي في المجتمع. فرسول الله (ص) هو الرائد والقائد، لأن في الإيمان برسالته طوق النجاة من العذاب.

---

[301] شرح نهج البلاغة (م)، ج 3 ص 37 – 57.

الثالثة : الشهادة الحسية برسول الله (ص) : يقول (ع) له: إنك مهما اجتهدت في النظر إلى نبوة رسول الله (ص) لا تصل إلى ما وصلتُ إليه لأنني عشتُ معه (ص) كل أحداث النبوة، بل عشتُ معه قبل بعثته وحتى وفاته (ص). كُنّ يا بُنيَّ على يقينٍ من صدق نبوة محمد (ص)، كما أنا على يقين من صدق نبوته (ص).

محمدٌ (ص) بلّغَ رسالةَ ربه تعالى :

في رسالته إلى معاوية، يقول الإمام الحسن (ع): (إنَّ اللهَ ﷻ، بعثَ محمداً رحمةً للعالمين، ومنّةً للمؤمنين، وكافّةً للناسِ أجمعين (لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)[302]، فبلّغَ رسالاتِ اللهِ، وقامَ بأمرِ اللهِ، حتى توفاهُ اللهُ غيرَ مقصّرٍ ولا وانٍ، وبعدَ أن أظهرَ اللهُ بهِ الحقَّ ومحقَ بهِ الشركَ، وخصَّ بهِ قريشاً خاصةً، فقالَ لهُ: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...)[303])[304].

في هذا النص يذكر الإمام (ع) صفة كمال النبي (ص)، واجتهاده في توصيل الرسالة السماوية إلى البشرية كافة. نشرحها ضمن نقاط ثلاث، هي :

---

[302] سورة يس: الآية 70.

[303] سورة الزخرف: الآية 44.

[304] شرح نهج البلاغة (ح) ج 4 ص 12.

الأولى : رسالة محمد (ص) رحمةُ الله تعالى بالعالمين : كانت بعثة محمد (ص) الرحمة الآلهية العظمى للبشرية، والتي لا تعادلها رحمةٌ أخرى. فعن تلك النعمة السماوية إكتمل الفهم الإنساني لطبيعة الخلق والخالق، وطبيعة الحساب والجزاء، وطبيعة الثواب والعقاب، وطبيعة الرحمة الآلهية بالإنسان من حيث قبول التوبة والمغفرة، وتنظيم الحسنات والسيئات، وقبول الدعاء وتحقيق الإجابة، وأن الله سبحانه أقرب إلى الناس من أنفسهم. تلك هي رسالة محمد (ص) رحمةٌ للعالمين، ومنّةٌ للمؤمنين.

الثانية : قام (ص) بوظيفته على أتم وجه : أتمَّ (ص) رسالته بأفضل الوجوه وأكملها. فقد بلّغ القرآن كاملاً كما نزل، وحفظَ ما بين الدفتين، وشرح العبادات والمعاملات، والسنن والأخلاق، والفضائل والآداب، فأصبح المؤمن بالإسلام مكتمل الفضائل والآداب مع خالقه ، ومكتمل السلوك مع أقرانه من البشر. وأوصى (ص) من بعده بأهل بيته (ع) وجعلهم قادة للأمة، يحتمي بعلمهم وحكمتهم أهل الأرض جميعاً من الإنحراف والزيغ والتبديل .

الثالثة : إكتمال الدين قبل وفاته (ص) : وعندما اكتمل الدين، وعَيَّنَ ولياً من بعده (ص)، وقال: (من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه)[305]، نزلت آية إكمال الدين: (... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ

---

[305] الإرشاد ص 94.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...)[306]، فاكتملت رسالة الإسلام إلى البشرية، ثم توفاه الله بعد ذلك بفترة قصيرة، بعد أن أظهر الله به الحق، ومحقَ به الشرك.

شهادةٌ للبشير النذير (ص) :

في خطبته التفصيلية بعد الهدنة، يقول (ع): (وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، إصطفاهُ وأنتجبهُ وأرتضاهُ وبعثَهُ داعياً إلى الحقِ سراجاً منيراً، وللعبادِ مما يخلفُونَ نذيراً، ولما يأملونَ بشيراً، فنصحَ للأمّةِ، وصدعَ بالرسالةِ، وأبانَ لهم درجاتِ العمالةِ، شهادةً عليها أموتُ وأُحشر، وبها في الآجلةِ أقربُ وأُحبر)[307].

في هذا المقطع يذكر الحسن (ع) أن شهادته لرسول الله (ص) هي شهادة حس وتجربة، وشهادة تقرّب إلى الله تعالى ورسوله (ص) . فهنا أفكار ثلاث ، هي :

الأولى : الشهادة بالنبوة : ففي كل خطبة أو رسالة يبدأها بحمد الله تعالى، ثم الإقرار بالشهادتين: شهادة التوحيد، وشهادة النبوة . وشهادة النبوة مقترنة بشهادة التوحيد ، وبتلك الشهادتين الخفيفتين على اللسان ، الثقيلين في

---

[306] سورة المائدة: الآية 3.

[307] أمالي الشيخ الطوسي ص 567.

الميزان تُفتح للإنسان أبواب الرحمة والمغفرة ، وتُسجل في صحيفة أعماله شهادة الإسلام .

الثانية : صفات النبوة : يقول (ع) في صفات النبي (ص) مجموعة من الفضائل هي:

أ – الإصطفاء : أن الله اصطفاه أي فضَّلَهُ واختاره على بقية البشر، وقد ورد في القرآن الكريم ما يُفيد معنى الإصطفاء: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)[308].

ب – الإنتجاب : أنتجبه لغةً من الإنتجاب وهو التخير والإصطفاء، ورجلٌ نجيبٌ أي نبيلٌ، فاضلٌ، كريمٌ. أي أن الله اصطفاه واختاره من بين البشر لفضلٍ وسابقةٍ لا يعلمها إلا الله تعالى.

ج – الإرتضاء : وأرتضاه أي اختاره وقبلَهُ عندما رآه أهلاً لتبليغ الرسالة، قال تعالى في الإرتضاء : (... وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ...)[309]. والإرتضاء هو الإختيار لما رأى فيه (ص) من مؤهلات تبليغ الرسالة من الصدق، والطهارة، والإيمان، وصفاء النفس، والتضحية في سبيل الله، ونكران الذات. فكان أهلاً لأداء تلك المهمة العظيمة.

ثم يقول: وبعثه داعياً إلى الحق. فبعد أن اصطفاه وأنتجبه وارتضاه للرسالة بعثه (ص) داعياً إلى الحق وسراجاً منيراً، مبشراً ونذيراً للبشرية،

---

[308] سورة آل عمران: الآية 33.

[309] سورة النور: الآية 55.

فكان بحق الرسول الكامل الذي صَدَقَ مع الله تعالى، ومع رسالته، ومع أمته (ص).

الثالثة: صفة شهادته الشخصية بالنبوة : ثم يقول (ع): أنا أشهد بصدق تلك الرسالة السماوية، وصدق رسولها (ص)، شهادةً حسيةً أموت عليها وأُحشر، في الدنيا والآخرة. فشهادتي في الدنيا هي شهادة حس وتجربة، وشهادتي في الآخرة هي شهادة تقرب إلى الله وسرور. أو كما قال (ع) حرفياً : شهادةً عليها أموتُ وأُحشر، وبها في الآجلة أقربُ وأُحبر. معنى أُحبر : يصيبني السرور، فالحبر هو السرور بما رأى، وفي قوله تعالى: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ)[310]. فشهادة الحسن (ع) لرسول الله (ص) هي شهادة الصدق والتجربة، ونتيجتها الفوز العظيم الذي يبعث على الشاهدَ السرور.

في ولاية أهل البيت (ع)

يكشف كلام الإمام الحسن (ع) أن الولاية الشرعية لأهل البيت (ع) كانت – على الرغم من أهميتها – من مصادر الإختلاف والصراع بين المسلمين، على عكس التوحيد والنبوة فقد كانت من موارد الإتفاق بينهم.

[310] سورة الزخرف: الآية 70.

الولاية أهم موارد الإختلاف :

ففي مناسبةٍ إحتدمَ فيها نقاشٌ حول الأئمة بعد رسول الله (ص)، قال الإمام الحسن (ع) : (... إنَّ الناسَ قدْ اجتَمعُوا على أمورٍ كثيرةٍ، ليسَ بينَهم إختلافٌ فيها، ولا تنازعٌ ولا فرقةٌ: على شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ وعبدُه، والصلواتِ الخمسِ، والزكاةِ المفروضةِ، وصومَ شهرَ رمضانَ، وحجَّ البيتِ، ثم أشياءَ كثيرةٍ منْ طاعةِ اللهِ، التي لا تُحصى ولا يعدُّها إلاّ اللهُ. وإجتمعوا على تحريمِ الزنا، والسرقةِ، والكذبِ، والقطيعةِ، والخيانةِ، وأشياءَ كثيرةٍ من معاصي اللهِ لا تُحصى ولا يعدُّها إلاّ اللهُ.

وأختلفوا في سننٍ أقتتلوا فيها، وصاروا فرقاً يَلعنُ بعضُهم بعضاً، وهي الولايةُ، ويبرأُ بعضُهم مِنْ بعضٍ، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، أيّهم أحقُّ وأولى بها، إلاّ فرقةً تتبعُ كتابَ اللهِ، وسنةَ نبيّهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ، فمَنْ أخذَ بما عليهِ أهلُ القبلةِ الذي ليسَ فيهِ اختلافٌ، وردَّ علمَ ما أختلفوا فيهِ إلى اللهِ، سلمَ ونجا بهِ من النارِ، ودخلَ الجنّةَ. ومن وفّقهُ اللهُ، ومنَّ عليهِ، وإحتجَّ عليهِ، بأن نوّرَ قلبَهُ بمعرفةِ ولاةِ الأمرِ مِنْ أئمتِهم ومعدنِ العلمِ أينَ هو، فهو عندَ اللهِ سعيدٌ، وللهِ وليٌّ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: (رَحِمَ اللهُ إمرءاً عَلِمَ حقّاً فقالَ فغَنِمْ، أو سكِتَ فسَلِم).

نحنُ نقولُ أهلُ البيتِ: أنَّ الأئمةَ منّا، وإنَّ الخلافةَ لا تصلُحَ إلاّ فينا، وإنَّ اللهَ جعَلنا أهلُها في كتابهِ وسنةَ نبيّهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ، وإنَّ العلمَ فينا ونحنُ أهلُه، وهو عندنا مجموعٌ كلُّهُ بحذافيرهِ، وإنّه لا يحدثُ شيءٌ إلى يومِ القيامةِ، حتّى أرشَ الخدشِ إلاّ وهو عندنا مكتوبٌ بإملاءِ رسولِ اللهِ

صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم، وخطَ عليٍّ (ع) بيدهِ ...)[311].

يتطرق (ع) إلى قضية اختلاف الناس في فكرة الولاية الشرعية، ويرجعها إلى أربع نقاط :

الأولى : إتفاق الكلمة على التوحيد والنبوة : يقول الإمام الحسن (ع) اتفقت الكلمة على الإيمان بالشهادتين: الشهادة بالتوحيد، والشهادة بالنبوة، والتسليم لفروع الدين كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والإجتماع على تحريم المعاصي كالزنا والسرقة والكذب والقطيعة والخيانة. ذلك أن تلك الأمور التي اتفقوا عليها لا تمسُّ مصالحهم الشخصية في الإمارة والحكم. فلا تتدخل الشهادتين في ضبط ابتعادهم عن الإسلام، لأن إعلان الشهادتين أمرٌ ميسورٌ للمؤمن وللفاسق على حدٍ سواءٍ، وكذلك التسليم لفروع الدين، فلا أحدٌ ينكر وجوب الصلاة والزكاة والصيام حتى لو كان الحاكم فاسقاً.

الثانية : اختلاف الكلمة على الإمامة : لكن الإختلاف بين الناس كان على الإمامة، لأن الناس عموماً تطمح للزعامة والسلطة، وما يتبعها من إمتيازات عظيمة. فالزعامةُ الدنيوية جنَّةُ الذين يحبون الدنيا وزخارفها، فعن طريقها يكسب هؤلاء المزايا التي لم يحلموا بها في حياتهم أبداً. فمِن حُلْمِ الطاعة التامة لهم من قبل الرعية، إلى حُلْمِ الزهو والخيلاء الذي ينتابهم،

---

[311] الإحتجاج ج 2 ص 6.

إلى إقتراف الظلم والقسوة بالمضطَهدين، وهم يحسبون أن الله سبحانه غافلٌ عن أفعالهم!

فتلك الإمتيازات جعلت الزعماء يتقاتلون على الفوز بها، ويتبرأون من بعضهم البعض أملاً في الزعامة. فتركوا ما أوصاهم به رسول الله (ص) من الإلتزام بولاة الأمر (ع) الذين طهرهم الله تعالى من الأوهام والشكوك، وأذهب عنهم رجس حب الدنيا وزينتها.

الثالثة : الفلاح لمن عرف الهداة من أهل البيت (ع) : يقول (ع) أن الفائز الحقيقي في هذه المعركة هو من وفقه الله تعالى، ومنَّ عليه بمعرفة ولاة أمره من الذين أوصى بهم رسول الله (ص) فهم معدن العلم، وولاة أمر الأمة، وهم سببُ النجاة من النار، والدخول في الجنة.

بعد ذلك قسّم (ع) من أخذ بالولاية الشرعية إلى قسمين: قسمٌ من أهل القبلة ممَن أخذ فكرة الولاية بالتسليم، فربما آمنوا بقلوبهم بولاية أهل البيت (ع)، ولكنهم لم يستطيعوا مناصرتهم لسببٍ من الأسباب. والقسم الآخر هو من نوّر الله قلبه بمعرفتهم (ع)، وطبّق تعليماتهم وأوامرهم، فهؤلاء عند الله من السعداء، بل هؤلاء أولياءٌ لله تعالى يجازيهم الله تعالى أعظم الجزاء.

الرابعة: لا تصلح الإمامة ولا الخلافة إلا في أهل البيت (ع) : يعلن الإمام الحسن (ع) بوضوح، وبقوة العبارة، وعلى الملأ أن الخلافة والإمامة لا تصلحان إلا في أهل بيت النبي (ص)، ذكرها الله تعالى في كتابه المجيد

فقال: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[312]، وذكرها رسول الله (ص) في سنته فقال (ص): (اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي)[313]، و(الأئمة بعدي اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب (ع) وآخرهم القائم المهدي (ع)، فهم خلفائي وأوليائي وحجج الله على أمتي بعدي)[314].

واجباتكم نحو الدين والولاية:

ولم يقتصر الإمام (ع) على شرح أصول الولاية، وأهميتها في الإسلام، بل كان (ع) يؤكد على واجبات المؤمنين تجاهها. فيكتب (ع) إلى أحد محبيه كتاباً يشرح فيه طبيعة الولاية، يقول فيه :

(إنَّ اللهَ تعالى بمنّهِ ورحمتهِ، لما فرضَ عليكُم الفرائضَ، لمْ يفرضْ ذلكَ عليكُم لحاجةٍ منهُ إليهِ، بل رحمةً منهُ إليكُم، لا إلهَ إلا هو، ليميزَ الخبيثَ منَ الطيّبِ، وليبتلي ما في صدورِكم، وليمحّصَ ما في قلوبِكم، ولتتسابقوا إلى رحمتهِ، ولتتفاضلَ منازلَكم في جنّتهِ، ففرضَ عليكُم الحجَّ والعمرةَ، وإقامِ الصلاةَ، وإيتاءِ الزكاةَ، والصّومَ، والولايةَ، وجعلَ لكُم باباً لتفتحوا بهِ أبوابَ الفرائضَ، ومفتاحاً إلى سبيلهِ، ولولا محمّدٌ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ، والأوصياءُ مِنْ ولدهِ، كنتُم حيارى.... لا تعرفونَ فرضاً مِنَ

---

312 سورة المائدة: الآية 55.

313 مسند أحمد بن حنبل ج 6 ص 292.

314 من لا يحضره الفقيه ج 4 ص 179.

الفرائضِ، وهلْ تُدخَلُ قريةً إلاّ مِنْ بابِها، فلمّا منَّ اللهُ عليكُم بإقامةِ الأولياءِ بعدَ نبيِكم (صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ) قالَ اللهُ عز وجل: (...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...)[315]، وفرضَ عليكُم لأوليائهِ حقوقاً، فأمرَكُم بأدائِها إليهم، ليحلَّ لكُم ما وراءَ ظهورِكم، مِنْ أزواجِكم وأموالِكم، ومأكلِكم ومشربِكم، ويعرفَّكم بذلكَ البركةَ والنماءَ والثروةَ، وليعلمَ مَنْ يُطيعَه منكم بالغيبِ، وقالَ اللهُ تباركَ وتعالى (... قُل لّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...)[316] ، فاعلَمُوا : أنَّ منْ يبخلَ، فإنما يبخلُ على نفسهِ، إنَّ اللهَ هو الغنيُّ وأنتمُ الفقراءُ إليهِ، لا إلهَ إلاّ هو، فاعملُوا مِنْ بعدِ ما شئتُم (... فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[317] والعاقبةُ للمتقينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ)[318].

في هذا النص يشرح الإمام الحسن (ع) مبدأ الولاية الشرعية والطبيعة المالية المرتبطة به. وفي ذلك أمور أربعة ، هي :

الأول: علّةُ فرض الفرائض : عندما فرضَ الله تعالى الواجبات، ونهى عن المحرمات لم يكن ليفعل ذلك لحاجةٍ منه إليهم، لكنه سبحانه وضع النظام الديني لمصلحة الناس، وتنظيم أمور معاشهم وحياتهم الإجتماعية

---

[315] سورة المائدة: الآية 3.

[316] سورة الشورى: الآية 23.

[317] سورة التوبة: الآية 105.

[318] بحار الأنوار ج 23 ص 100، وعلل الشرائع ص 249-250.

والعبادية. فهي رحمةٌ للعباد، وتمييزٌ بين الطيب والخبيث، وتفريق بين الخير والشر، وليعلمَ اللهُ الصادقين مع الله عن غيرهم، ثم فرض على الناس فروعاً للدين كالصلاة والصوم والحج. كلُّ ذلك كان لمصلحة من خلق، لأن الخالق الغني عز وجل عندما خلقَ البشر، دبرَّ شؤون حياتهم، ونظَّمَ أساليب معاشهم وسعيهم. وما تلك الواجبات والمحرمات إلا لتمحيص ما في قلوبهم، كي يتسابقوا إلى طاعته ورحمته تعالى.

الثاني : مفتاحُ الولايةِ قادرٌ على فتح أبواب الرحمة : ثم جعل لكم مفتاحاً لفتح المغاليق، ذلك المفتاح هو مفتاحُ ولاية الأوصياء من ذرية رسول الله (ص)، فبذلك المفتاح تفتحُ أبواب العلم والمعرفة، وتفتح أبواب الرحمة والمغفرة، وتفتح مغاليق العبادات والطاعات، وتفتح أسرار الفرائض والسنن. فما أن عيّنَ رسولُ الله (ص) الأولياءَ من بعده حتى نزلت آية إكمال الدين: (... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...)[319].

ومن أعظم ألوان الرحمة الآلهية هي شفاعة محمد وآل محمد (ع) في المؤمنين من أهل الذنوب، فهي بابُ رحمةٍ يعطي الأمل لأهل الذنوب بالتوبة، وعدم الرجوع إلى الذنب أبداً. ومفتاح الولاية إذن قادرٌ على فتح كنوز الرحمة الآلهية .

---

[319] سورة المائدة: الآية 3.

الثالث : حقوق أهل البيت (ع) : يقول (ع) إنّ الله تعالى فرض عليكم لذرية رسول الله (ص) حقوقاً عليكم تأديتها، حتى يحلَّ لكم ما تأكلوه مما رزقتموه. وهو (ع) وإن لم يصرح به إلا إنه يشير إلى حق الخمس من المال، الذي خصَّ الله به رسوله (ص) وأهل بيته (ع) تكريماً له، فقال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ...)[320]. وربطَ ذلك بالبركة والنماء لأموالكم، والطاعة بالغيب لربكم، والمودة في القربى لنبيكم (ص)، فقال تعالى: (... قُل لّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...)[321]. فتلك هي إشارة واضحة للحق المالي الذي فرضه الله تعالى على المؤمنين من الفائض من غنيمة أموالهم لعترة أهل البيت (ع) .

الرابع: من يبخل فإنما يبخلُ لنفسه : ثم يختمها (ع) بالقول بأن تلك الفريضة المالية، إنما تُرَدُّ لكم حسنةً في صحيفة أعمالكم. والناس تُمتحن عموماً بالمال، فإذا جاء الأمر بدفع المال، رأيت الكثير منهم يتردد ويبخل بالإنفاق. ولو شاء الله لجعل تدوير المال في المجتمع مختلفاً، ولكن سنّةُ التكوين إقتضت بأن يُمتحن الإنسانُ بمالهِ وثروتهِ. فأراد إمتحانكم واختباركم، وكان من تدبيره عز وجل أن يكون الأختبار في قضية خمس

[320] سورة الأنفال: الآية 41.

[321] سورة الشورى: الآية 23.

الغنيمة مرتبطاً بذرية رسول الله (ص)، مع ملاحظة أساسية وهي أن الله تعالى هو الغني وأنتم الفقراء إليه.

في وصف الأبرار (ع):

يشير (ع) إلى كلمة (الأبرار) الواردة في القرآن الكريم، ويقول: (كلُّ ما في كتابِ اللهِ عزّ وجلّ: (إِنَّ الأَبْرَارَ...)[322] فواللهِ ما أرادَ بهِ إلاّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ (ع)، وفاطمةَ (ع)، وأنا، والحسين (ع)، لأنّا نحنُ أبرارٌ بآبائِنا وأمهاتِنا، وقلوبُنا علتْ بالطاعاتِ والبرِّ، وتبرّأتْ مِنْ الدنيا وحبِّها، وأطعنَا اللهَ في جميعِ فرائضـهِ، وآمنّا بوحدانيتهِ، وصدّقنا برسولهِ)[323].

كلمةُ الأبرار التي ذُكرت ثلاث مرات في القرآن الكريم في سورة الإنسان، والإنفطار، والمطففين ، كانت تشير إلى أصحاب الكساء الخمسة الأطهار (ع). والأبرار هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، المطيعون لربهم. يقال في اللغة: رجالٌ أبرارٌ يعني رجالُ صدقٍ وخيرٍ وإحسانٍ وإصلاحٍ .

وتلك الآيات الكريمات تصوّر الأبرار بأنهم من أهل الصدق والطاعة في نعيمٍ دائمٍ لا يحول ولا يزول: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)[324].

---

[322] سورة الإنسان: الآية 5. وسورة الإنفطار: الآية 13. وسورة المطففين: الآية 22.

[323] المناقب ج 4 ص 2.

[324] سورة المطففين: الآية 22 – 24.

وهم أهل الطاعة والإخلاص، الذين يؤدون حق الله، وقد مُلئت قلوبهم معرفةً للهِ ومحبةً له تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)[325].

وهم الأبرار: القائمون بحق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في العقل والقلب والجوارح: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)[326].

فيقول (ع): نحنُ أبرارٌ مؤمنون صادقون بررنا بآبائنا وأمهاتنا، مُلئت قلوبنا بطاعة الله تعالى، وتبرأنا من الدنيا وشهواتها، وأطعنا الله في جميع واجباته، وتركنا جميع ما أمرنا الله تعالى بتركه، وآمنا بالواحد القهار، وصدقّنا رسوله (ص). فنحن الذين ينطبق عليهم صفةُ الأبرار في القرآن الكريم، بل كل ما في كتاب الله عز وجل (إِنَّ الْأَبْرَارَ...) هي صفة الأطهار الخمسة من محمد (ص) وآل محمد (ع).

أهلُ البيت (ع) عيشُ العلمِ وموتُ الجهل:

مجتمع المسلمين يحتاج إلى إلتماس طريق العلم، ذلك ما كان يقوله الإمام (ع)، ويدعوهم: (... إلتمِسوا ذلكَ عندَ أهلهِ، فإنهُم خاصةُ نورٍ يستضاءُ بهِم، وأئمةٌ يُقتدى بهِم. بهِمُ عيشُ العلمِ وموتُ الجهلِ، وهُم الذينَ

[325] سورة الإنسان: الآية 5- 8.

[326] سورة الإنفطار: الآية 13.

أخبَرَكم حلمُهُم عن جهلِهِم، وحكمُ منطقِهم عنْ صحتِهِم، وظاهرِهِم عنْ باطنِهِم، لا يخالفونَ الحقَ ولا يختلفونَ فيهِ. وقد خلتْ لهُم مِنَ اللهِ سنّةٌ، ومضى فيهِم مِنَ اللهِ حكمٌ، إنَّ في ذلكَ لذكرى للذاكرينَ، واعقلُوه إذا سمعتمُوه عقلَ رعايةٍ، ولا تعقلوُه عقلَ روايةٍ، فإنَّ رواةَ الكتابِ كثيرٌ، ورعاتُه قليلٌ...)[327].

هذه الجملة العظيمة: أهلُ البيتِ (ع) هم عيشُ العلمِ وموتُ الجهلِ، تحتاج إلى شرحٍ في نقاط ثلاث ، هي :

الأولى : آل البيت (ع) هم عيشُ العلمِ وموتُ الجهلِ : أن من طلبَ علماً لابد أن يطلبه من أهله، ولا يطلبه من غيرهم. وأهلُ العلمِ هم أهلُ بيتِ النبي (ص) الذين وصفهم (ص) بأنهم نورٌ يُستضاءُ بهم في ظلمات الجهل، وأنهم أئمة هُدى يرشدوننا في حياتنا إلى الطريق الذي أحبه الله تعالى، فنقتدي بهم في سلوكنا، ونتعلم منهم ما نزهدُ في حياتنا. بهمُ عيشُ العلمِ أي بوجودهم معنا حياةُ العلمِ، وموتُ الجهل. وحلمهم يخبرك عن جهل الناس بهم، فهم يصفحون عمن جهل حقهم، ويغفرون عمن تغاضى عن فضلهم. ومنطقهم يخبركَ بصحة إمامتهم، أي أن بلاغة أقوالهم، وعمق تفسيرهم لكتاب الله، وإحكام بنائهم للأوامر والنواهي الشرعية يكشف لك عن إمامتهم للأمة. وظاهرهم يكشفُ لك عن باطنهم (ع) .

---

[327] تحف العقول ص 163.

الثانية : لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه : ومع علمهم (ع) الجمّ هذا لهم صفة إخلاقية تميزهم عن جميع البشر، تلك الصفة هي أنهم لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، فجميعهم أتخذ الحق طريقاً له، مع عدم نصرة الأمة لهم، إلا أنهم كانوا يثبتون مع الحق، ويسيرون معه حثيما سار. ولا يختلفون في مبدأ الدين وجزئياته أبداً فيما بينهم، لأنهم متمسكون بالحق، فهم أناسٌ أطهارٌ متمسكون بنفس المبدأ، سائرون على نفس الطريق. هؤلاء هم أهل بيت النبوة (ع) .

الثالثة : اعقِلوا الأمرَ عقلَ رعايةٍ ولا تعقلوه عقلَ روايةٍ : أي أن أمرَ الدين أمرٌ صعبٌ، يُحاسب عليه الإنسان. فعلى المؤمن أن يعقله ويتفكر فيه عقلَ رعاية ومحافظة كما يرعى إسرته وماله ويحافظ عليهما. فعلى المؤمن أن يتمسك بالدين تمسك المحافِظ، قليل الكلام، كثير العمل والعبادة. وأن لا يعقل الدين عقل رواية، أي أن لا يكون لسانه أشدَّ حركة من عقله وجسمه في أداء العبادة، ومساعدة الناس، ومساعدة المحرومين. فالبعض من الناس يحب أن يتكلم أكثر من أن يعمل. ينهى الإمام الحسن (ع) عن ذلك ويقول: عليكم بأخذ الدين أخذ الرعاية والعمل، لا أخذ مجرد الكلام وعدم العمل. وهذه أهم وصية يوصينا بها الإمام الحسن (ع).

الفصل الخامس

حكمة الإمام الحسن (ع) :
الإنسان والحياة الدنيا

مقدمة . أولاً : في صفة الإنسان .
ثانياً : في صفة الحياة الدنيا .

مقدمة

لم تتوقف حكمة الإمام الحسن (ع) عند أصول الدين، بل تعدت إلى الإنسان، من حيث طبيعته، وطبيعة تعامله مع الله عز وجل، وطبيعة تعامله مع الناس في المجتمع. فكان كلامه (ع) كنزاً من كنوز المعرفة الاخلاقية والإجتماعية، وكان (ع) لا يألوا جهداً في بناء الإنسان المسلم الواعي المدرِك لحقيقة الوجود، والمدرِك لواجباته الإنسانية.

في صفة الإنسان

الإنسان هو محور اهتمام الرسالات السماوية ، وهو المحطة التي تدور حوله طرق الهداية والتوجيه ، ولعل الإهتمام بروحية الإنسان وعقله هو أول ما يقوم به الدين من فعاليات .

الإهتمام بروحية الإنسان :

كان الإمام الحسن (ع) يلحظ إهتمام الناس بطعامهم أكثر من اهتمامهم بعقولهم ودينهم، فيرشدهم إلى ما هو أصلح لهم، ويقول: (عَجِبتُ لمِنْ يُفكرُ في مأكولهِ، كيفَ لا يُفكرَ في معقولهِ، فيجنّبَ بطنَهُ ما يؤذِيهِ، ويُودِعَ صدرَهُ ما يُردِيهِ!)[328].

يضع الإمام (ع) هنا مبدأين عبر طرح سؤالين ، وهما :

---

[328] بحار الأنوار ج 1 ص 218.

الأول : لِمَ التفكير في المأكول دون المعقول ؟ غالباً ما يفكر الناس في طعامهم، فيختارون منه ما طابَ لإذواقهم، وما صَلَحَ لإجسامهم، لكنهم لا يفكرون فيما يدخلونه من أفكارٍ غريبةٍ في عقولهم وأذهانهم. فيتعجب (ع) كيف يفكر الإنسان في مأكوله، فيختار الأفضل والأجود له، وينسى المعقول من الفكر والأدب والاخلاق والدين، فلا يختار الأفضل لدينه وعقله. وكأنه (ع) يلمّح لهم بضرورة معالجة مشكلة خاصة بهم، وهي أنهم يحاولون مداراة لذتهم الجسدية، وينسون لذتهم الفكرية والروحية .

الثاني : لِمَ علاج البطن دون علاج العقل والنفس ؟ يسعى الإنسان إلى تجنب الطعام الذي يؤذي بطنه، لأن الألم الذي يسببه الطعام الرديء على الجسم لا يمكن تحمله، بينما يهمل نفس ذلك الإنسان ما يدخل فكره من أفكارٍ منحرفةٍ، وعقائدٍ جاهليةٍ، وانحرافاتٍ سلوكيةٍ، وهو غير مكترث لِما يدخل في عقله من فكرٍ يُرديه. والفكر الرديء غالباً ما يكون باباً لموت عقيدته، وانهيار دينه .

فتعجبُ الإمام الحسن (ع) هنا هو تعجبٌ ضمني أُريد منه أن يوقظ فيهم ضمير الغافل، وينبههم إلى فكرة أن أثر الفكر الرديء المخالِف لأصول الإسلام أعظم على العقل والقلب من أثر الطعام الرديء الذي يتجنبون أكله حفاظاً على بطونهم وأجسامهم.

غريزة الحيوان أعقل أحياناً من شهوة الإنسان:

يقول (ع) في الفارق بين عقول أكثر الناس وغريزة الحيوان: (أَنَّ الشّاةَ أعقلُ مِنْ أكثرِ الناسِ، تنزجرُ بصياحِ الرّاعي عنْ هَواها، والإنسانُ لا ينزجرَ بأوامرِ اللهِ وكتبهِ ورسلهِ)[329].

نستفيدُ من هذا المقطع من كلامه (ع) بملاحظتين ، هما :

الأولى : الفارق بين الحيوان والإنسان : لاشك أن الفارق بين هذين الكائنين هو وجود العقل والإرادة عند الإنسان، ووجود الغريزة عند الحيوان. والعقل يؤدي بالإنسان إلى اختيار طريق الخير، وتجنب طريق الشر. أما الحيوان فالغريزة تدفعه إلى اصطياد الحيوانات طعاماً له، فينهشها ويلتهمها سداً لجوعته، أو تدفعه الغريزة إلى ما فيه بقاء نوعه .

الثانية : طرق تأديب الشاة والإنسان : الشاة لا تنزجر إلا بصياح الراعي أو بإنزال العصا عليها، وهي تتحرك تبعاً لغريزتها في ذلك. أما الإنسان، وبسبب عقله وإدراكه فهو ينزجر بالموعظة الحسنة، والكلمة البليغة، والإنذار والوعيد. هذا هو حال الإنسان ذو العقل التام، والقلب الواعي.

أما الإنسان الذي أهمل عقله وركب هواه، فالشاة أعقل منه، كما يقول الإمام الحسن (ع). والمغزى أنها أعقل لأنها تنزجر بالعصا التي

---

[329] جلاء العيون بالفارسية – العلامة المجلسي. ولم أجدها في المصادر الحديثة الرئيسية كالكافي ، والاستبصار ، ومن لا يحضره الفقيه ، والتهذيب .

تصيب جسمها، وهذا الإنسان لا ينزجر بكلام الله تعالى الذي يدخل عقله وفكره. يقول تعالى في وصف هؤلاء: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[330]، (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)[331].

فمع أن التشخيص القرآني لهؤلاء البشر الغافلون، الذين لا يعقلون يجملُ بأنهم أضلُّ من الأنعام وأكثر شرّاً، إلا أن الإمام (ع) يشرح دائرة الموضوع ويوسعها ، ويقول بأن غريزة الحيوان تنصاع للمؤثرات الخارجية، بينما لا ينصاع الإنسان الضّال لتأثيرات الحق، وتداعياته!

العبرة في موعظة النفس :

يأتيه الرجل الذي أصابته مصيبة بذويه، فيسليه ويقول (ع) له: (إنْ كانتِ المصيبةُ أحدثتْ لكَ موعظةً، وكسّبتكَ أجراً فهو، وإلا فمُصيبتُكَ في نفسكِ أعظمُ منْ مصيبتِكَ في ميتِكَ)[332].

يتحدث الإمام الحسن (ع) في مصيبتين: مصيبة الموت التي تُفاجىء الإنسان، ومصيبةُ الإنسان بجهله وعدم اتعاظه بالنهاية المؤلمة لهذه الحياة ، فهنا نقطتان :

---

330 سورة الأعراف: الآية 179.

331 سورة الأنفال: الآية 22.

332 تنبيه الخواطر ونزهة المناظر ص 411.

الأولى : المصيبةُ في الميت موعظة : قال تعالى في حسن التأسي في المصيبة: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[333]. في النص القرآني الشريف وصفٌ للإبتلاء، وبشرى للصابرين الذين علموا وقت المصاب بأنَّ النفوسَ ملكٌ لله تعالى يتصرف فيها بما شاء. فهم يرجعون إليه تعالى في كل الأحوال.

فإذا اتعظ الإنسان في موت إحبائه، وعرِفَ أن الدنيا هي دارُ إرتحال، وأن الآخرة هي دارُ المُقامة، إكتسب في ذلك أجراً، وخُففّت عنه آثار الصدمة .

الثانية : عدم الإعتبار هو أعظم المصائب : أما إذا لم يعتبر الإنسان بالموت، واتخذه مزاحاً وهزلاً، فهو لاشك في مصيبةٍ أعظم، وهي مصيبةُ نفسه التي لم تفهم معنى الحياة والموت بعد ، ولم تفهم معنى الوجود والفناء، ولم تدرك معاني العمر والأجل . ولو عرف معنى قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)[334]، (... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[335]. لانكشفت له حقيقة الحياة الدنيوية المحدودة التي تنتهي بغلق باب هذا العالم، والولوج إلى عالمٍ آخر وهو

---

[333] سورة البقرة: الآيات 155 – 156.

[334] سورة العنكبوت: الآية 57.

[335] سورة لقمان: الآية 34.

عالم الخلود، بثوابه أو عقابه، بجنته أو ناره. فلاشك أن مصيبة الجاهل بالموت في نفسه أعظم من مصيبته في ميته كما قال (ع).

اطلب الآخرة فربما تصيب الدنيا مع الآخرة :

يعلمُ الإمام (ع) أهمية العمر في بناء الإنسان. فالشاب أكثرُ غضاضة، وأينعُ عوداً في تطبيق تعاليم الدين. فإذا استقام من بداية حياته أصبح طلب الآخرة عنده أكثر يُسراً فيما أتى من لاحق حياته. فكان (ع) يتوجه إلى الشباب ويقول لهم: (معاشرَ الشبابِ: عليكُم بطَلبِ الآخرةِ، فواللهِ رأينا أقواماً طلبُوا الآخرةَ فأصابُوا الدنيا والآخرةَ، وواللهِ ما رأينا مَنْ طلبَ الدنيا فأصابَ الآخرةَ)[336].

يحدد طلب الآخرة في أولويات الإنسان من عمر الشباب، وفي ذلك أمران :

الأول : طلبُ الآخرةِ أولى : يطلب (ع) من الشباب أن يطلبوا الآخرة، فإن طلبَ الآخرةِ في عمرٍ مبكرٍ، يمنح الإنسان فرصةً لتصحيح مساره، والثبات على مبدأه، وملء صحيفة أعماله بالحسنات. وطلب الآخرة في عمر الشباب لا يعني العزوف عن الدنيا، بل يمكن الجمع بينهما، فليطلب الآخرة إبتداءً.

---

[336] ربيع الأبرار ج 1 ص 30 .

الثاني : ربما من طلب الآخرة أصاب الدنيا مع الآخرة : يقول (ع) أن من طلب الآخرة في بداية حياته، لا يمنع من أن تستقيم حياته ويتوفق في الدنيا أيضاً، وبذلك يكون طلبه الدنيا توفيقاً لطلبِ عالَمين وحسنتين. وقد ذكر تعالى على لسان المؤمنين: (... رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[337]، قيل أن حسنة الدنيا العلم والقرآن، وحسنة الآخرة الجنة .

أما إذا كان الإنسان متهالكاً على طلب الدنيا دون الآخرة، فلا يحصل على شيء من الآخرة. لأن من مقتضيات طلب الدنيا هو جمع المال وعدم انفاقه في سبيل الله، وترك العبادات أو نسيانها، وعدم الإلتزام بالنواهي التي نهانا الله عنا، فلا يمكن لمن طلب الدنيا فقط أن يتوفق في طلب الآخرة. تلك الوصية أنفع ما تكون للشباب، لأن الدنيا تغرقهم أحياناً بمتطلباتها، فلا يجدوا مكاناً للآخرة في حياتهم.

التقوى بابُ التوبة والحكمة :

وإذا انشغل الناس في ملذاتهم، واستوعبتهم شهواتهم، أصبح أفق الطاعة ضيقاً، فكان على الإنسان أن يترك المعاصي وينشغل بالخوف من الله تعالى، وتلك هي التقوى. يقول (ع) مخاطباً الناس، يحثهم على التقوى: (إعلَمُوا أنَّ اللهَ لمْ يخلُقْكم عبثاً، وليسَ بتارِكِكم سدى، كتبَ آجالَكم وقسَّمَ بينَكم معائِشَكم، ليعرفَ كلَّ ذي لبٍ منزلَتهُ، وأنَّ ما قُدِّرَ لهُ أصابَّه وما

---

[337] سورة البقرة: الآية 201.

صُرِفَ عنهُ فلنْ يصيبَهُ، قد كفاكَم مؤونةَ الدنيا وفرَّغكم لعبادتهِ، وحثَّكم على الشكرِ، وأفترضَ عليكمُ الذكرَ، وأوصاكُم بالتقوى، منتهى رضاهُ.

والتقوى بابُ كلِّ توبةٍ، ورأسُ كلِّ حكمةٍ. وشرفُ كلِّ عملٍ بالتقوى، فازَ مَنْ فازَ مِنَ المتّقينَ، قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)[338]، وقالَ: (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[339]. فاتقوّا اللهَ عبادَ اللهِ، وإعلمُوا: أنَّهُ مَنْ يتقِ اللهَ يجعلُ لهُ مَخرجاً مِنَ الفتنِ ويسددَهُ في أمرِهِ، ويهيئ لهُ رشدَهُ، ويُفلحُهُ بحجتهِ، ويبيضَ وجهَهُ، ويُعطهِ رغبَتَهُ مع الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمُ مِنَ النبيينَ، والصدّيقينَ، والشهداءَ، والصالحينَ، وحسنَ أولئكَ رفيقاً)[340].

يتحدث (ع) عن التقوى باعتبارها بوابة لفلاح الأعمال، ومعقِداً تُعقد عليه الأمال، ضمن النقاط الثلاث التالية :

الأولى : التصميم الآلهي في الخلق : يشرح (ع) التصميم الآلهي في خلق الإنسان وخلق المحيط به. فللخلقِ تصميمٌ، وقصدٌ، وهدفٌ. فلم يُخلَقْ الإنسانُ عبثاً، ولم يُترك لحاله في فوضى، بل خلق الله تعالى الإنسان بقصدٍ وتصميمٍ. فجعل له أجلاً ومدةً زمنيةً يعيشُ فيها في الدنيا، وجعل له مورداً للرزق والعيش، ووضع لكل إنسان قدراً، ومنزلةً، وفكراً. فما قُدِّرَ

---

[338] سورة النبأ: الآية 31.

[339] سورة الزمر: الآية 61.

[340] تحف العقول ص 232.

للإنسان من رزقٍ، أو عيالٍ، أو منفعةٍ، أو طول أجل يصيبُهُ. وما صُرِفَ عنه فلن يصيبَهُ. والتفكير بتلك الطريقة تريح الإنسان، وتجعله يتفرغ للعبادة، لأنه يعلم أن ما ناله أو لم ينله إنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ من الله تعالى. فيصبح جلّ همّهُ شكر المنعم على نعمه، وذكره ذكراً كثيراً، محاولاً إتقاء معصيته تعالى، ما استطاع من قوة . وتلك هي تقوى الله سبحانه.

الثانية : التقوى بوابةُ الفلاح : إن إتقاء معصية الله تعالى هي البوابة الحقيقية للفوز بكل ما وعد الله المتقين من حسن العاقبة، والنجاة من السوء والعذاب. وشرفُ كلِ عملٍ هو أن يكون متوازياً مع ما أراد الخالق عز وجل، ولا يتقاطع معه. فكلُ عملٍ تلازمه التقوى هو عمل شريف مبارك يرضاه الله سبحانه، ولا يغضبه ولا يسخطه.

الثالثة : من يتق الله يجعل له مخرجاً : يدعوهم (ع) إلى عدم معصية الله، فتفادي تلك المعصية يُترجم للإنسان بأن يجعل له مخرجاً سهلاً من الفتن، ويسدد له عمله، ويرشده إلى ما فيه صلاح نفسه ودينه، ويقوي حجته أمام الناس، ويُفرحه في الآخرة، ويحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وهل هناك رفقة أجمل وأعظم من رفقة هؤلاء الأطهار (ع) الذين ذكرنا صفاتهم في جنان الخلد؟

العبودية الحقيقية لخالق الوجود:

يربط الإمام (ع) العبودية الحقيقية لله تعالى بحسن السلوك الفردي

والإجتماعي، فيدعو الناس إلى الإعتدال، وحسن السيرة مع الآخرين، الأقرب فالأقرب، والتأمل في حقيقة الحياة الدنيا. فكان مما يعظ به الناس: (يا ابنَ آدمَ: عِفَّ عنْ محارِمَ اللهِ تكُنْ عابداً، وأرضَ بما قسمَ اللهُ تكُنْ غنيّاً، وأحسِنْ جوارَ مَنْ جاورَكَ تكُنْ مسلِماً، وصاحِب الناسَ بمثلِ ما تُحِبّ أنْ يصاحبُوكَ به تكُنْ عادِلاً. إنَهُ كانَ بينَ يديكُم أقوامٌ يجمعونَ كثيراً، ويبنُونَ مشيّداً، ويأملونَ بعيداً، أصبحَ جمعُهمُ بوراً، وعملُهم غُروراً، ومساكنُهم قبوراً. يا ابنَ آدمَ: لمْ تَزلْ في هدمِ عمرِكَ منذُ سقطتَ مِنْ بطنِ أُمّكَ، فخُذْ مما في يديكَ لما بينَ يديكَ، فإنَّ المؤمنَ يتزودُ والكافرَ يتمتّعُ)[341].

في هذا المقطع يرشد الإمام الحسن (ع) الناس إلى طرق العبودية الواقعية لله عز وجل، ويضعها في أمور ثلاثة، هي :

الأول : العبودية الحقيقية : يُصيغ (ع) أربع صفات للعبودية الحقيقية، وهي :

أ – العفّ عن محارم الله: أي تجنب كل ما نهى عنه تعالى، فمن العبودية لله حُرمة السرقة، والقتل، والزنا، والكذب، والغيبة، والنميمة، وظلم الناس. فتجنُب تلك المعاصي تجعل الإنسان عبداً حقيقياً لله تعالى.

ب – الرضا بما قسم الله: وهذا واضحٌ لأغلب الناس، لأن الذي يرضى بما قسم له الله سبحانه يعلمُ بقدرته تعالى على تدبير أموره. والرضا بما قَسَمَ يعني التسليم لقدرته وجبروته، ويعني أيضاً الإستئناس برحمته ولطفه

---

[341] بحار الأنوار ج 75 ص 112.

تعالى.

ج – المجاورة الحسنة: ومعناه المساكنة الجميلة، أو العيش مسالِماً قرب أناس يجاورهم، فهي الجيرة الجيدة. والمجاورة الحسنة تعني عدم إنزال الأذى بالجار، بل مساعدته والإهتمام بأمره. وتلك هي الجيرة الحسنة التي أمرَ بها الإسلام، وجعلها مقياساً لإيمان الإنسان بالإسلام، ولذلك قال (ع): وأحسن جوارَ من جاورك تكن مسلماً.

د – المصاحَبة بالمثل: وهي قوله (ع): صاحِب الناسَ بمثل ما تحب أن يصاحبوك به. أي كما تتمنى أن يصاحبك الناس بالإخلاص والمودة والبذل، فصاحبهم بمثل ذلك. وذلك مثالٌ للعدل والمحبة والإنصاف.

بعض الناس تريد أن تأخذ ولا تعطي، وتحاول معاملة الآخرين بقسوة وتتوقع أن يعاملها الناس بلطفٍ ورحمةٍ. يقول الإمام (ع): كن منصفاً عادلاً في تعاملك معهم، فصاحبهم بمثل ما تحب أن يصاحبوك به.

الثاني : لا تجمع للدنيا فإنها دارُ بوار : يدعوهم (ع) للتذكر بأن هناك أقوامٌ من الناس كانت تجمع المال الكثير، وتبني الدور الفارهة وتشيدها ببذخٍ، وتعيش على الآمال البعيدة، لكن الموت فاجأها، فأصبح جمعهم بوراً. والبور من الناس في اللغة هو الفاسد، الهالك الذي لا خير فيه. والبور من الأرض هي التي لا تصلح للزراعة.

فمع حرصهم على الدنيا، وجمعهم المال إلا أنهم هلكوا، ولم يحققوا ما أملّوا. وكان عملهم غروراً وتكبراً وتفاخراً زائفاً لم يكسبهم حسنةً ولا جزاءً. وأصبحت دورهم المرموقة مساكنَ موتى، وقبوراً موحشة مقفرة.

الثالث : المؤمن يتزود والكافر يتمتع : لو عَلِمَ الإنسانُ عدد سني عمره من ولادته وحتى موته، وبدأ يعدُّ عمره عدّاً عكسياً، أي كلما مرت سنة أنقصها من عمره، لأخذَ في سنواته الأخيرة على الأقل يتقي الله ويتزود من الحسنات والعمل الصالح، وهذا عمل المؤمن فإنه يتزود من الحسنات، محاولاً تصحيح ما ارتكبه من أخطاء ومعاصي، آملاً بأن الله سيغفر له ويتوب عليه. أما الكافر فيعمل عكس ذلك!

مكارم الأخلاق :

ومن أجل بناء الإنسان كان الإمام (ع) يدعو الناس إلى التحلي بمكارم الأخلاق، فهي الأصل في الآداب الإجتماعية، فيقول (ع): (مكارمُ الأخلاقِ عشرةٌ : صدقُ اللسانِ، وصدقُ البأسِ، وإعطاءُ السائلِ، وحسنُ الخُلُقِ، والمكافأةُ بالصنائعِ، وصلةُ الرحمِ، والتذميمُ على الجارِ، ومعرفةُ الحقِ للصاحبِ، وقرى الضيف، ورأسُهُنَّ الحياءُ)[342].

يذكر (ع) عشر صفات مهمة لمكارمَ الأخلاق، وهي :

الأول : صدقُ اللسانِ : الصدقُ هو القول المطابق للواقع. وصدقُ اللسان هو تطابق القول الصادر عن اللسان مع الفعل الصادر عن القلب. على عكس الكذب الذي يناقض حقيقة ما يقوله الإنسان وما يعرفه. قال تعالى

---

[342] تاريخ اليعقوبي ج1 – ص 201.

على لسان إبراهيم (ع): (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)[343]، وفي صفة المؤمنين مقابل المنافقين، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)[344]، وفي صفة المؤمنين في واقعة الأحزاب، قال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)[345]. وتلك كلها صفاتٌ للصادقين تمدحهم الآيات القرآنية الشريفة لفضيلةِ تطابق ألسنتهم مع قلوبهم.

الثاني : صدقُ البأسِ : البأسُ هو الشدة في الحرب، ورجلٌ ذو بأس أي ذو قوة، قال تعالى على لسان قوم بلقيس: (قَالُوا نَحْنُ أُولُواْ قُوَّةٍ وَأُولُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)[346]، فمن الفضائل أن يكون الإنسان صادقاً في جهاده في سبيل الله تعالى. وعليه ينبغي أن يكون المؤمنُ صادقَ البأس مع أعداء الله. بمعنى أن يكون قوياً في دفاعه عن الحق، وجهاده كالحديد بصلابته وقوته.

الثالث : إعطاء السائل : إذا عُرِفتْ حاجة السائل للمال، فلابد أن يُعطى ما يسد به رمقه، أو ما يكسو به جسده، أو ما يستر به على نفسه وعياله

---

[343] سورة الشعراء: الآية 84.

[344] سورة الحجرات: الآية 15.

[345] سورة الأحزاب: الآية 23.

[346] سورة النمل: الآية 33.

من سكن. قال تعالى في إحترام الحالة النفسية للسائل: (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)[347]، فهي وإن لم تأمر الإنسان – منطوقاً – بالإعطاء إلا إنها أمرته بعدم نهر السائل، وزجره، وإهانته .

الرابع : حُسن الخلق : وهو كف الأذى عن الناس، وبذل المعروف، وعدم الغضب فيما يُخرج الإنسان عن حالته العقلية المتوازنة. قال تعالى في مدح رسول الله (ص): (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[348]، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...)[349]، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[350]. وعندما سُئل (ص) عن حُسن الخلق قال (ص): (تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك)[351].

الخامس : المكافأة بالصنائع : يعني عدم تجاهل الإحسان، فلابد أن يُقابل الإحسان بالإحسان، ولابد من مكافأة صاحب المعروف بمعروفٍ يُليقُ به. وقد أشار سبحانه إلى ذلك في كتابه المجيد فقال: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

---

[347] سورة الضحى: الآية 10.

[348] سورة القلم: الآية 4.

[349] سورة آل عمران: الآية 159.

[350] سورة التوبة: الآية 128.

[351] الدر المنثور في التفسير بالمأثور . في تفسير سورة الأعراف الآية 199 .

الْإِحْسَانُ)[352]. وفي المأثور عنه (ص): (إن الهدية رزقٌ من الله تعالى، فمن أهدي له شيء فليقبله، ولُيعطِ خيراً منه)[353].

السادس : صلة الرحم : الرحم هي القرابةُ أو أسبابها. وصلةُ الرحم هي زيارة الأقارب والإحسان إليهم. قال تعالى: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ...)[354]، (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)[355]. والأساس في موضوع الرحم أن الناس ترجع بالأصل إلى رجل واحد وأم واحدة، وهذا يعني أن بعضهم من بعض، وأن حقوقهم متشابكة كحقوق الأخوان على إخوانهم، بسبب إجتماعهم في النسب إلى أمٍ واحدةٍ وأبٍ واحدٍ. وبالتالي فإن ذلك يلزم مراعاة بعضهم بعضاً، والإلتفات إلى حاجاتهم وسدها.

السابع : التذميم على الجار : كلمة التذميم مأخوذة من أذمه، أي أجاره وأخذه تحت حمايته. وتذمَّمَ فلانٌ لفلان أي حَفِظَ ذِمامَهُ أي عهدَه وحُرْمتَه. فالتذميم على الجار يعني حِفظ ذِمام الجار، واحترام حرمته. وقد أوصى الله بالجار، لأن في ذلك تقوية لأواصر المحبة بين الناس، قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

---

[352] سورة الرحمن: الآية 60.

[353] التحف والهدايا ص 35 .

[354] سورة النساء: الآية 1.

[355] سورة الرعد: الآية 21.

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ...)[356]، ومعنى الجار ذي القربى أنه جارٌ وقريبٌ في نفس الوقت، فهاتان خصلتان تحذبان الهدية والصدقة. ومعنى الجار الجنب أي الجار البعيد، وفيه تكون الصدقة للفقير.

الثامن : معرفة الحق للصاحب : أوصى الله تعالى بمجموعة من أصناف الناس كما ذكرنا في الآية السابقة، وقال : (... وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ...)[357]. قيل : الصاحب بالجنب هو الصاحب في السفر، وقيل : الرفيق الذي يرافق الإنسان في حالات الحضر والسفر، وقيل أنها الزوجة . وعلى أية حال يقول الإمام الحسن (ع)، فلابد من معرفة الحق لذلك الإنسان الذي يكون رفيقَ دربك، صديقاً كان أو مرافقاً أو له معك رفقة حياة. ومن حقوق الرفيق هو حفظ سره، والقيام بحاجته، والستر عليه، وعدم تتبع هفواته وأخطائه، وقبول عذره إذا أخطأ.

التاسع : قرى الضيف : قرى الضيف هو إكرامه، والإحسان إليه، واستضافته. قال تعالى في إبراهيم (ع) وإكرامه ضيوفه: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)[358]،

---

[356] سورة النساء: الآية 36.

[357] سورة النساء: الآية 36.

[358] سورة هود: الآية 69.

وقال تعالى في كرم الأنصار: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[359]، وبالإجمال، فإن إكرام الضيف من الفضائل الأخلاقية العليا في الإسلام.

العاشر : الحياء : وهو أفضل مكارم الأخلاق، وهو الحشمة، واجتناب القبيح، وفي قوله تعالى في بنت شعيب (ع): (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا...)[360]، وهو الحياء الذي يزين المرأة ويدل على عفافها وشرفها. قال تعالى في البشر: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[361]، ولباس التقوى يعني الحياء[362]. كان رسول الله (ص) أشدُّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عُرِفَ في وجهه[363].

---

[359] سورة الحشر: الآية 9.

[360] سورة القصص: الآية 25.

[361] سورة الأعراف: الآية 26.

[362] إحياء علوم الدين ج 1 ص 5.

[363] صحيح البخاري – كتاب الأدب . حديث 6102 .

تلك عشرُ خصالٍ من مكارم الأخلاق ذكرها الإمام الحسن (ع) بذلك الإيجاز، لكنها تحمل معاني عظيمة في بناء الإنسان المسلم، المؤمن، المتقي الذي يتمناه الحسن (ع) في كل شاب من اتباعه ومحبيه.

في صفات الأخوة الفاضلة :

يصف الإمام (ع)[364] لنا الفاضل من الناس، بطريقته المجازية البديعة، حيث يصوِّر للمستمع أن هناك شخصاً له مواصفات الفضل، فيقول (ع):

(أني أخبرُكُم عنْ أخٍ، كانَ مِنْ أعظمَ الناسِ في عيني، وكانَ عظيمُ ما عظَّمَهُ في عيني صغرُ الدنيا في عينهِ، كانَ خارجاً عنْ سلطانِ بطنهِ، فلا يشتهي ما لا يجدُ، ولا يُكثِرَ إذا وجَدَ.

وكانَ خارجاً عنْ سلطانِ فَرجِهِ، فلا يستخفَّ لهُ عقلُهُ ولا رأيُهُ. وكانَ خارجاً عنْ سلطانِ جهلهِ، فلا يمدُّ يداً إلاّ على ثقةِ المنفعةِ، ولا يخطو خطوةً إلا لحسابهِ. وكانَ لا يَسخطُ ولا يتبرمُ.

كانَ إذا إجتمعَ بالعلماءِ يكونُ على أنْ يسمعَ أحرصَ منهُ على أنْ يتكلّمَ، وكانَ إذا غُلِبَ على الكلامِ، لا يُغلَبَ على الصمتِ. كانَ أكثرُ دهرهِ صامتاً، فإذا قالَ بزَّ القائلينَ.

وكانَ لا يُشاركَ في دعوى، ولا يدخلَ في مراءٍ، ولا يدلي بحجةٍ،

---

[364] وينسب هذا القول إلى الإمام علي (ع) أيضاً. وقيل أنه جواب الإمام الحسن (ع) لأبيه (ع) عندما سأله عن أشياء من صفات الكمال وأضدادها.

حتى يرى قاضياً. وكانَ يقولُ ما لا يفعلَ، ويفعلُ ما لا يقولَ، تفضلاً وتكرماً. كانَ لا يغفلُ عنْ إخوانهِ، ولا يستخصَّ بشيءٍ دونَهُم. كانَ لا يكرّمَ أحداً فيما يقعُ القدرُ بمثلهِ.

كانَ إذا ابتدأه أمرانِ، لا يدري أيهما أقربُ إلى الحقِ، نَظَرَ فيما هو أقربُ إلى هواهُ فخالَفَهُ)[365].

يعرض الإمام (ع) في هذا المقطع البليغ صورة الإنسان الفاضل الذي تحكمه الأخلاق الدينية، ويضعها في النقاط الأربع التالية :

الأولى : الإنسان الفاضل الإفتراضي : هذا الإنسان الإفتراضي، ذو الاخلاق الرفيعة العالية اعتبره الإمام الحسن (ع) أخاً له في الدين. كان ذلك الأخ عظيماً في عين الإمام (ع) لأنه كان لا يكترث للدنيا ولا يعيرها أهميةً فهي صغيرة في عينه لا تساوي شيئاً. ونتيجة ذلك النظر الحكيم للدنيا فقد تميز بأربع صفات، هي :

أ – أنه كان خارجاً عن سلطان بطنه: فقد حدد شهوته في الطعام والشراب بقدر ما يسدَّ حاجته، فهو لا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر من الطعام إذا وجده. أي أن ميزته الإعتدال فيما يجد، والزهد فيما لا يجد.

ب – أنه كان خارجاً عن سلطان فرجه: فهو يسلك سلوك ما أحلّه الله له، ولا يتجاوز ذلك باستخفاف عقله. فالغريزة الجسدية الجامحة تدفع

---

[365] تاريخ بغداد ج 12 ص 311.

الإنسان نحو المهالك، فهي تسيطر على عقله وسلوكه. ومن تحكَّمَ وسيطرَ على تلك الغريزة فقد أحكم عقله.

ج – أنه كان خارجاً عن سلطان جهله: وللجهل قوة التخريب، كما أن للعقل قوة البناء. فالإنسان الفاضل لابد له أن يخرج عن سلطان جهله. ويتحرر من قيود عدم المعرفة. والجهل قوة تخرب مساحة واسعة في حياة الإنسان، فربما أصاب الإنسانُ حتفه، عن طريق الجهل ، وربما لم يحصل على منفعة مرجوة بل يصيبه ضرر محدق به . فالعلم أو ثقة المنفعة كما يسميها الإمام (ع) هو الطريق الصحيح لبلوغ الأشياء.

د – أنه كان خارجاً عن سلطان غضبه: والخروج عن سلطان الغضب من أفضل موارد السلوك الفاضل. فالغضب يُهلك الإنسان، ويدمر سلوكه مع الآخرين، ويجعله يتصرف خلاف العقل، لأن الغضب يُذهب الحكمة المُرتجاة من وجود العقل.

الثانية : أنه يسمع أكثر مما يتكلم : الإستماع إلى العالِم هو لونٌ من ألوان طلب العلم. فالمتعلِم يستمع أكثر مما يتكلم. فمن طبيعة التحصيل العلمي استيعاب المعلومات عن طريق الإنصات والتأمل، عندها تختمر الفكرة وترسخ، وعندها فقط يمكن للطالب المناقشة والكلام. وإذا غُلِبَ الإنسان في حجته فعليه الصمت لا التمادي في الجهل والغي والجدال. والصمتُ صفةُ الحكماء الذين يعلمون، فإذا تكلموا أخرسوا الباقين.

الثالثة : لا يدخل في المراء : المراء في اللغة هو الشك، والإرتياب، والجدال. فمن صفة هذا الإنسان أنه لا يشارك في دعوى ما لم تكن لديه حجة قاطعة، ولا يدخل في المراء وهو الجدال بدون دليل، ولا يقدم حجة في غير موضعها. بل إذا كان مضطراً لتقديم حجته، فإنه لا يقدمها لمن لا يفهمها، بل يعرضها على القاضي (الإفتراضي) الذي يفهم طبيعة الحجج، وسياقاتها، وموضعها في القضية المتنازع عليها.

وربما معنى قوله (ع): وكان يقول ما لا يفعل، أنه كان يشرح للناس معايب المعاصي، ولا يفعلها. وقوله (ع): ويفعل ما لا يقول تفضلاً وتكرماً، أي أنه يبادر إلى عمل الخير دون أن يدعي ما عمله. والله العالم.

الرابعة : يبدأ بالحق دائماً : فإذا واجهته حالتان، ولا يدري أيهما أقربُ إلى الحق، تفكر في نفسه وقرر أن يعصي هواه ويخالفه. لأن هوى النفس إذا زاد عن حده أدى إلى مخالفة تعاليم الله تعالى .

الجزاء على قدر العقول :

يقول (ع) في العقل والحلم: (إعلمُوا أنَّ العقلَ حرزٌ، والحلمَ زينةٌ، والوفاءَ مروءةٌ، والعجلةَ سَفَهٌ، والسفَهَ ضعفٌ، ومجالسةَ أهلِ الدنيا شينٌ، ومخالطةَ أهلِ الفسوقِ ريبةٌ، ومَنْ أستخفَّ بإخوانهِ فسَدتْ مروءتُهُ، ولا يُهلكَ إلاّ المرتابونَ، وينجو المهتدونَ الذينَ لمْ يتّهِمُوا اللهَ في آجالِهم طرفةَ عينٍ، ولا في أرزاقِهم. فمروءتُهم كاملةً، وحياؤُهم كاملٌ، يصبرونَ حتى يأتيَ بهمُ اللهُ برزقٍ، ولا يبيعونَ شيئاً منْ دينِهم ومروءاتِهم بشيءٍ من الدنيا، ولا

يطلبونَ شيئاً منها بمعاصيَ اللهِ.

ومِنْ عقلِ المرءِ ومروءتهِ أنْ يْسِرعَ إلى قضاءِ حوائجِ إخوانهِ، وإنْ لم ينزلُوها بهِ، والعقلُ أفضلُ ما وهبَ اللهُ تعالى للعبدِ، إذْ بهِ نجاتَهُ في الدنيا من آفاتِها، وسلامتَهُ في الآخرةِ مِنْ عذابِها، وقدْ قيلَ: إنهم وصَفوا رجلاً عندَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ بحسنِ عبادتهِ، فقالَ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ: إنظروا إلى عقلهِ، فإنما يجزى العبادُ يومَ القيامةِ على قدرِ عقولِهم، وحسنُ الأدبِ دليلٌ على صحةِ العقلِ)[366].

في هذا المقطع الحكيم نناقش خمسة أمور ، هي :

الأول : في الصفات الشخصية لأهل العقل : يضعُ الإمام (ع) صفات يتميز بها أهل العقل عن غيرهم، فالعقل يحفظ صاحبه من عوارض الدنيا. ومن تلك الصفات :

أ – العقل حرز: العقل أداة تصون الإنسان من عاديات الجهل، فالعقل حرزٌ حصينٌ يصون الإنسان من آثار عدم المعرفة. فقد يؤدي الجهل به إلى الهلاك، وما يقوم به العقل هو الحفاظ على صاحبه من الإنزلاق إلى الهاوية. يقول تعالى: (... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [367].

---

[366] إرشاد القلوب ص 239.

[367] سورة الزمر : الآية 9 .

ب – الحلمُ زينةٌ : والحليم هو الذي يتأنى ويسكن عند الغضب مع القدرة على إنزال الأذى، لكنه يتصرف بالحلم. ومعنى الحُلُم هو الصفح والعقل. فالهدوء هو صفة الحليم ، وتلك من الفضائل الأخلاقية، والسكون عند الغضب زينة تزين العاقل عن غيره من الناس.

ج – الوفاءُ مروءةٌ: الوفاء هو المحافظة على العهد والإلتزام به، وهو ضد الغدر. الوفاءُ مروءة أي أنه من كمال الرجولة، ومن محاسن الأخلاق، وجميل العادات. وقد مدح الله سبحانه أولئك الذين امتلكوا صفة الوفاء بالعهد، فقال: (... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...)[368]. وعكس الوفاء هو الغدر، والمأثور عن رسول الله (ص) أن (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)[369].

د – العجلةُ سَفَهٌ والسفهُ ضعفٌ: العجلةُ من السرعة، والعُجْلَةُ هي العُجَالَةُ، وهو فعلُ الشيء قبل أوانه، أو هو طلبُ حدوث الأمر بسرعة. والسفه نقيضُ العلمِ، أو إساءة التصرف بما يناقض الحكمة. فالإنسان الحكيم لا يطلب الأمرَ قبل أوانه، ولا يفعل الشيء قبل مجيء وقته .

وقد ورد في الذكر الحكيم: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ...)[370]، وفُسِّرَ أن الإنسان يبادر الأشياء ويستعجل وقوعها. أي أنه يطلب الشيء

---

[368] سورة البقرة: الآية 177.

[369] بحار الأنوار ج 69 ص 206 .

[370] سورة الأنبياء: الآية 37.

قبل أوانه. فطبيعة الإنسان هي العجلة والتسرع. أي أن يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد، والدين يعلّمه بأن يتعلم التأني والصبر.

الثاني : في الصفات الإجتماعية لأهل العقل : وتلك صفاتٌ إجتماعية يتحلى بها العقلاء، منها :

أ – مجالسة أهل الدنيا شينٌ : والشين في اللغة ضد الزين. والكلمة أصلها (شَانَ) بصيغة الفعل الماضي المجهول منسوب لضمير المفرد المذكر (هو). تقول العرب: وجهُ فلانٍ شينٌ أي قبيحٌ. ولو بحثت عن إهتمامات أهل الدنيا، فماذا تجد؟ تجد أنهم يبحثون عن جمع المال، ونقد الناس، وإظهار عيوبهم المستورة، وعدم خوفهم من الله تعالى، وعدم أدائهم الفرائض والواجبات. فلاشك أن مجالستهم من القبائح، لأنها لا تؤدي إلى خير، أو ثواب، أو مغفرة.

ب – مخالطة أهل الفسوق ريبة : وأهل الفسوق هم أهل العصيان، وهم ممن تجاهر بالمعصية في العلن، وقد قال تعالى : (... بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...)[371]، وهو التنابز بالألقاب، وهي من الصفات الذميمة التي يعملها أهل الجاهلية. فالفسوق هو العصيان والخروج عن حدود الشرع. والريبة هي الظن والشك والتهمة. فمن يخالط أهل المعصية تتوجه نحوه ظنون الناس بأنه منهم ، وحمل بمخالطته إياهم وزرَ أفعالهم.

---

[371] سورة الحجرات: الآية 11.

ج – الإستخفاف بالأخوان يُفسد المروءة: والمروءة خصلة كريمة تتلخص بصدقٍ في اللسان، وبذل للمعروف، وكفٍ للأذى. وهي من الفضائل التي كان العرب يقيسون بها الرجال ويزنون عقولهم.

ومعنى الإستخفاف بالأخوان هو الإستهانة، والإستهزاء بهم. فلاشك أن الإستهزاء بالأخوان أو الإستهانة بأفكارهم وشؤونهم تفسد مصداقية المستهزِء، وتزيل فضيلته التي ربما تحلى بها في المجتمع.

الثالث : اليقين بالله من أعظم الصفات : ومعنى اليقين بالله هو عدم الشك في الله عز وجل، وعدم الإرتياب في الآجال، والأرزاق، والتدبير. فالمرتاب مصيره الهلاك، لأنه لم يثبت على شيء، وعقيدته ذرةٌ صغيرةٌ في مهبّ الريح. ولذلك كان اليقين بالله من أعظم صفات المؤمن، ومن شواهد اليقين بالله :

أ – عدم الريبة في الأجل : هو عدم الشك في أجل الإنسان ، والأجل هو نهاية الفترة الذي يقضيها الإنسان في هذه الدنيا، أو بعبارة أدق هو الموت. قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ...)[372]، فالمؤمن يمتلك يقيناً بأجله المحتوم. فلا يموت الإنسان إلا بإذن الله وقدره ، فيستوفي المدة التي قدّرها الخالق عز وجل له كتاباً مؤجلاً. فلابد من اليقين بالأجل المحتوم، وعدم الريبة فيه.

---

[372] آل عمران: الآية 145.

ب – عدم الريبة في الرزق: والرزق هو كل ما يكسبه الإنسان وما ينتفع به من مال أو ولد أو صحة، وقد اتسعت الألفاظ في اللغة، بحيث أُطلق الرزق على المطر: (... وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...)[373]، وسُمي طيب الطعام رزقاً، قال تعالى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ...)[374]، (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ...)[375]. فكان من وجوه اليقين بالله هو أن يؤمن إيماناً جازماً بأن الرزق منه تعالى، يقدّره تقديراً، ويدبّره تدبيراً، ناظِراً إلى احتياجات عبده. فإن أعطى شُكِرَ على نعمته، وإن أمسك شُكِرَ على تدبيره تعالى.

ج – عدم المعصية لسببٍ دنيوي : وطالما كانت أمور الإنسان من رزق وأجل وحياة بيد الله ، جزم المؤمن بأن لا يبيعَ دينهُ بدنياه من أجل متعلَقٍ دنيويٍ، ولا يطلب شيئاً بالمعصية لأن الله تعالى هو الرازق المدبر.

الرابع : قضاءُ حوائج الأخوان : كان من العقل والحكمة والتدبير أن يبادر الإنسان إلى قضاء حوائج إخوانه إذا كان قادراً على ذلك في الشدة والرخاء، والصحة والمرض، بل في جميع الظروف والأحوال. قال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ

---

[373] سورة الجاثية: الآية 5.

[374] سورة البقرة: الآية 57.

[375] سورة المنافقون: الآية 10.

النَّاسِ...)[376]. والمعنى أنهم صاغوا حياتهم على طاعة الله تعالى، فلا يشغلهم أمرٌ عن الإنفاق في مرضاته، والإحسان إلى الناس بأنواع البر.

الخامس : جزاء العباد على قدر عقولهم : العقل أفضل ما وهب اللهُ تعالى لعباده. وفي المأثور عنه (ص): (انظروا إلى عقل العابد، فإنما يُجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم)[377]. فالعاقل يعبدُ اللهَ عبادة صحيحة، فمن تفكير العقلاء أنه يتعلم صفات الله تعالى من القرآن الكريم، ويتعلم طريقة عبادته تعالى من سنّة رسول الله (ص)، ويتعلم منه (ص) الفضائل والآداب . فالنظر إلى مدى استثمار الإنسان عقله هو المقياس في الأداء والحساب .

في صفة الحياة الدنيا

الدنيا في فكر الإمام الحسن (ع) أثرٌ عابرٌ ، ومحطة مؤقتة يتوقف فيها الإنسان قبل أن يستمر في رحلته الشاقة إلى الحياة الأبدية . فالدنيا لها مواصفات ينبغي أن يفهمها الإنسان حتى لا يقع في حبائلها الخادعة.

---

[376] سورة آل عمران: الآية 134.

[377] ورد ما يشير إلى ذلك في وسائل الشيعة ج 1 ص 28، وأمالي الشيخ الصدوق ص 504 بألفاظ مختلفة.

صفاتُ دنيا لا يدوم نعيمها :

يوعظ (ع) الناس بوصف حياةٍ زائلةٍ، ويقول لهم: (إتقوا اللهَ عبادُ اللهِ، وجدُّوا في الطلبِ ... وبادروا العملَ قبلَ مقطّعاتِ النقماتِ، وهادمُ اللذاتِ، فإنَّ الدنيا لا يدومُ نعيمُها، ولا يؤمنُ فجيعُها، ولا تتوقّى مساويها، غرورٌ حائلٌ، وسِنادٌ مائلٌ، فإتعظوا عبادَ اللهِ بالعبرِ، وإعتبروا بالأثرِ. وإزدجروا بالنعيمِ. وإنتفعوا بالمواعظِ، فكفى باللهِ معتصِماً ونصيراً، وكفى بالكتابِ حَجيجاً وخصِيماً، وكفى بالجنّةِ ثواباً، وكفى بالنارِ عقاباً ووبالاً)[378].

في هذا المقطع يصف الإمام (ع) الدنيا بصفات الشيء الذي ينبغي إدراك حتمية زواله، عبر طلب التقوى، والإعتبار بالآثار. فهنا أربع نقاط :

الأولى : طلبُ التقوى والعمل : يحث الإمام الحسن (ع) الناس على الجدّ في طلب الآخرة، وترك بريق الدنيا وملذاتها، والتبادر إلى التفكر في مواجهة المصير المحتوم ، وهو الموت الذي يهدم لذات الناس، ويقطع رغباتهم وشهواتهم. فالدنيا حياة مؤقتة لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن نهايتها، ولا يمكن التوقي من مساوئها، بل هي خديعة تخدع الإنسان وتغرّه، فهي غرورٌ حائلٌ أي غرور وخديعة متغيرة. تتغير ألوانها وأشكالها في كل حين. بل هي سنادٌ مائلٌ أي عمادٌ لا يستفاد منه في صد الشيء أو الإحتماء به

[378] تحف العقول ص 167 .

من السقوط . وكيف يستند على خديعة متغيرة تتغير في كل وقت. وكيف يستند الإنسان على حائطٍ مائلٍ، حائلٍ للسقوط . إذن فالتقوى والعمل هما أهم ثمرات الدنيا، ولابد من العمل قبل حلول الموت، وقد وصفه (ع) بهادم اللذات، ومقطعات النقمات. والمقطّعات هي التي تقطع الشيء إلى أجزاء، والنقمات جمع نقمة، وهو من الإنتقام. فيكون المعنى عليك بالعمل الصالح في الدنيا قبل أن يأتيك الحساب مجزِئاً كل عملٍ عملته. فالعقاب يتجزأ ويُصنَف حسب أعمال الإنسان.

الثانية : دنيا لا تدوم لأصحابها : فإذا كان حال الدنيا بهذه الشاكلة فكيف يطمئن لها الإنسان، وهي التي خانت محبيها وعشاقها بعدم الدوام، وبعدم الإخلاص لهم. تلك الحقيقة المرّة لا يفهمها من غرق في ملذاتها إلا عندما يأتيه الموت، عندها سيشعر أنها غرورٌ حائل أي خدعة متلونة ومتغيرة بتغير الزمن، ومسندٌ مائلٌ يُوقِع من استند عليه.

الثالثة : الإعتبار بالآثار : ثم يدعوهم (ع) إلى الإتعاظ بالسنن والآثار. فالدنيا كلها عبرٌ، لأننا نعيشها ونرى كل يوم من يموتُ فيها ويغادرها تاركاً كل شيء وراءه ، وما ينفع الإنسان إلا أن يترك فيها أثراً محموداً، وعلماً نافعاً. وبكلمة فإن الدنيا نعيمها زائل لا يبقى إلا فترة قصيرة ثم يزول، ولا يبقى فيها إلا العمل الصالح المدوَّن في صحيفة أعماله.

الرابعة : لا عاصمَ فيها إلا الله تعالى : في حالٍ وصفناه للتو، كحال الدنيا لا عاصمَ فيها إلا الله، ولا مخلّصَ من شرورها إلا الله تعالى. لقد بين لنا كتاب الله المجيد ذلك بوضوح، فقال: (... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[379]، فكفى به حجةً لنا إذا التزمنا بما ذكره، وخصماً علينا إذا لم نلتزم بما أخبرنا به.

الدنيا وإستيفاء المطالب فيها :

يرشد الإمام (ع) من يأتيه من الناس إلى تصوير أصالة العمل للآخرة، ويقول (ع) لهم: (مَنْ أحبَّ الدنيا ذَهبَ خوفُ الآخرةِ مِنْ قلبِهِ، ومَنْ إزدادَ حِرصاً على الدنيا، لمْ يزددْ منها إلا بُعداً، وإزدادَ هوَ مِنَ اللهِ بَغْضاً.

والحريصُ الجاهدُ، والزاهدُ القانعُ كِلاهُما مستوفٍ أُكلَهُ، غيرُ منقوصٍ مِنْ رزقِهِ شيئاً، فَعلامَ التهافتُ في النارِ؟ والخيرُ كلُهُ في صبرِ ساعةٍ واحدةٍ، تُورِثُ راحةً طويلةً، وسعادةً كثيرةً.

والناسُ طالبان: طالبٌ يطلُبُ الدنيا حتى إذا أدركَها هلَكَ، وطالبٌ يطلبُ الآخرةَ حتى إذا أدركَها فهو ناجٍ فائزٍ.

وإعلم أنهُ لا يضرُّكَ ما فاتكَ مِنَ الدنيا، وأصابَكَ من شدائدِها إذا ظفرتَ بالآخرةِ، وما ينفعُكَ ما أصبتَ مِنَ الدنيا، إذا حرمتَ الآخرةَ)[380].

---

[379] سورة آل عمران: الآية 185.

[380] إرشاد القلوب ص 22.

أرشدهم (ع) إلى طبيعة الدنيا وطلابها، وطبيعة الآخرة وطلابها، وشرح لهم ما بينهما من فروقات واختلافات في موارد أربعة ، هي :

الأول : الدنيا بين الحب والبغض : علاقة الإنسان بالدنيا علاقةٌ غريبةٌ، فالدنيا ليست وفيةٌ للإنسان، بل أنها تغدرُ به في كل لحظة. ومع ذلك فالإنسان المغرم بها يحبها حباً جماً، ويتعلق بملاذاتها تعلقاً شديداً. وإذا أحب الدنيا وعشقها، قرر البقاء فيها، فحينئذٍ يذهب خوف الآخرة من قلبه، لأنه ينسى طبيعة الحساب في الحياة الآخرة. يقول تعالى: (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)[381].

ولكن الإنسان لا يبقى في الدنيا إلا فترة محدودة، فلا هو كسب الأزلية فيها، لأنها متاع زائل، ولا هو كسب الآخرة لأنه لم يعمل لها. ولذلك فإن مفتاح الأمر كما يقول (ع) هو التفكر في الآخرة، والخوف من معصية الله، وما يتبع ذلك من غضب آلهي، وعقوبة شديدة.

الثاني : كلُ إنسانٍ مستوفٍ أُكُلَهُ : يشير (ع) إلى أن أرزاق الناس مقسومة ومحددة ضمن تدبيره تعالى، فكلُ شخص يستوفي ما قدّرَ الله له، وما صممه تعالى له من رزقٍ لا يذهب لغيره. فالرزق مكتوبٌ له حريصاً كان في السعي في كسب ماله، أو زاهداً كان في المال قانعاً بما قدّر الله له. فلِمَ هذا التهافتُ على كسب المال الحرام؟ ولم هذا التهافت على حيازة

---

[381] سورة الجاثية: الآية 34.

المال حلالاً أو حراماً ؟ لو أدرك الإنسان طبيعة الحياة والوجود لعلِمَ أن الصابر على رزقه ، والعارف بما قدّر الله له هو الفائز يوم القيامة.

الثالث : طالبُ الدنيا والآخرة : يقول (ع) أن الناس على صنفين، الصنف الأول: هو من يطلب الدنيا ويسعى في بنائها حجراً على حجر، وديناراً بجنب دينار، لكنه عندما يبلغ ما أراد من المال يكون عمره قد شارف على الإنتهاء. لقد هدم الدهر لذّاته، فأصبح طاعناً في السن لكنه ذو مالٍ وفيرٍ، وهو عاجز عن اشباع تلك اللذات التي اعتملته في باكر الحياة.

والصنف الثاني: هو من يطلب الآخرة، فلا يرى في الدنيا شيئاً يستحق التفاني في طلبه. هو يعتمد في رزقه على الله تعالى، فإن جاءه ما قسمه تعالى له شكره على نعمه، وإن أمسك عنه شكره أيضاً على تدبيره. ذلك هو الإنسان الفائز المفلِح في الآخرة.

الرابع : أصالةُ الأمرِ أن تظفر بالآخرة : يقول (ع) أن أصالة الشيء في هذه الحياة هو أن تضمن لك مكاناً آمناً في الآخرة يرضى عنك الله، فعليك التهيؤ من البداية لذلك الأمر، ولو فاتتك أمور الدنيا من رزقٍ أو منفعةٍ فلا ضير في ذلك، فهدفك هو الآخرة. وحتى لو أصابتك الشدائد في الدنيا، فما ينفعك هو رصيدك مع الله في الآخرة. أما إذا حُرِمتَ من ثواب الآخرة ونعيمها، فما ينفعك ما أصبتَ من نعيم الدنيا وبريقها!!

جوهرة المواعظ في الدنيا وأحوالها:

قال (ع) في موعظة من طلبَ منه الحكمة والمعرفة : (إستعدَّ لسفرِكَ، وحصِّل زادكَ قبلَ حلولِ أجلَكَ، وأعلمْ إنّكَ تطلبُ الدنيا والموتُ يطلبُكَ، ولا تحمِلَ همَّ يومَكَ الذي لم يأتِ على يومِكَ الذي أنتَ فيهِ، وأعلمْ إنَكَ لا تكسبَ مِنَ المالِ شيئاً فوقَ قوتِكَ، إلاّ كُنتَ فيهِ خازناً لغيرِكَ، واعلمْ: أنَّ الدنيا في حلالِها حسابٌ، وفي حرامِها عقابٌ، وفي الشبُهاتِ عتابٌ، فأنزِل الدنُيا بمنزلةِ الميتةَ، خُذْ منها ما يكفيكَ، فإنْ كانَ حلالاً كُنتَ قد زهدتَ فيهِ، وإنْ كانَ حراماً لم يكنْ فيهِ وزرٌ، فأخذتَ منهُ كما أخذتَ من الميتةِ، وإن [كانَ] العقابُ، فالعقابُ يسيرٌ.

وأعملْ لدُنياكَ كأنكَ تعيشُ أبداً، وأعملْ لآخرتِكَ كأنّكَ تموتُ غداً.

وإذا أردتَ عزّاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سلطان، فأخرج مِنْ ذلِّ معصيةِ اللهِ إلى عزِّ طاعةِ اللهِ عزّ وجلّ.

وإذا نازعْتكَ إلى صحبةِ الرجالِ حاجةٌ، فاصحبْ مَنْ إذا صحبتَهُ زانكَ، وإذا أخذتَ منهُ صانَكَ، وإذا أردتَ منهُ معونةً أعانَكَ، وإنْ قلتَ صدّقَ قولَكَ، وإنْ صُلتَ شدَّ صولتَكَ، وإنْ مددتَ يدكَ بفضلٍ مدَّها، وإنْ بدتْ منْكَ ثلمةً سدَّها، وإنْ رأى منكَ حسنةً عدَّها، وإنْ سألتَهُ أعطاكَ، وإن سكتَّ عنهُ ابتدأكَ، وإنْ نزلتْ بكَ إحدى الملِّماتِ واساكَ، منْ لا تأتيكَ منهُ البوائقُ، ولا تختلفُ عليكَ منهُ الطرائقُ، ولا يخذلُكَ عندَ الحقائقِ، وإنْ تنازعْتُما منقسَماً آثركَ)[382].

---

[382] بحار الأنوار ج 44 ص 139.

يشرح الإمام (ع) في هذا المقطع جواهر من المواعظ في الدنيا وأحوالها ، نعرض منها ست جواهر ، هي :

الأولى : الدنيا تطلبك من طرفٍ والموت يطلبك من طرفٍ آخر : يصور الإمام الحسن (ع) الإنسان وكأنه باسطٌ ذراعيه أفقياً، ذراعٌ تمسكه الدنيا ولا تريد منه أن يتركها، وذراعٌ يمسكه الموت، وكلٌ منهما يشده إلى طرفه. فالدنيا فيها أنواع الرغبات، تخدع الإنسان وتصور له حلاوة الجمع والبخل والتمتع بالملذات. والموت يطلبه في كل لحظة، يفاجئه وهو غير مستعدٌ له. فماذا يفعل؟ فعليه كما يقول (ع) أن يستعد لسفر الآخرة، لأنه سفرٌ مضني متعب، يحتاج فيه إلى زادٍ كثيرٍ ، ومؤونة تتمثل في العمل الصالح، والعبادة الخالصة. خذ الدنيا على قدرها كما هي تأخذك على قدرك. أي لا تحمل همَّ الغد بل إحمل همَّ اليوم، وحاول أن تنفِّذ ما طُلِبَ منك اليوم، واترك ما للغد ليوم غد .

الثانية : ما زاد عن حاجتك فإنك تخزنه لغيرك : هذه هي حقيقة الدنيا، فالإنسان لا يحتاج إلا لذلك المقدار المحدَّد له في طبيعة خلقته، بمعنى أن رئتيه لا تتوسع بسبب غناه ولا تستوعب هواءً أكثر، ولا تزداد معدته حجماً ولا تتوسع كثيراً عندما تتراكم أمواله، بل تبقى معدته نفس المعدة الصغيرة التي تشبع بمقدار محدود من الطعام. وكذلك الأمر في رغباته وشهواته فهي تبقى محدودة، قال تعالى يصف الإنسان المغرور ويرشده إلى النظر إلى محدودية خلقته: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ

وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)[383]، فكلما أزداد رزق الإنسان وأصبح أكثر من حاجته، أصبح خازناً لغيره من المال والثروات.

الثالثة : في حلال الدنيا حساب وفي حرامها عقاب : وتلك قاعدة ذهبية، فما يكسبه الإنسان بالحلال من كدّ جبينه عليه حساب الصدقات والخمس والإنفاق في سبيل الله، إن زاد عن المؤونة. وما يكسبه الإنسان بالحرام ففيه العقاب، ذلك أن المال الحرام هو إما مالُ غصبٍ أو مالُ سرقةٍ أو مالُ نصبٍ واحتيالٍ، وفي كل ذلك الحساب والعقاب. وفي مال الشبهات حساب لكنه أقرب إلى العتاب منه إلى العقاب. ومعنى الشبهات هو ما اختلط فيه الحق بالباطل. والحل في معالجة ذلك كما يقول الإمام (ع) هو أن تُنزل الدنيا ورزقها بمنزلة أكل الميتة، فلا يجوز لك أكل الميتة، إلا في حالة حفظ حياتك في يوم مجاعة. فماذا يفعل الإنسان حينئذٍ؟ يأكل من الميتة بما يُبقي حياته ولا يأكل أكثر من ذلك.

خذ ما يكفيك للعيش تحت ذلك الظرف كما يقول (ع)، فإن كان حلالاً فإنك زهدت فيه لأنكَ اعتبرته كالميتة، وإن كان حراماً فليس عليك من وزر لأنك أكلتَ بما يبقيك حياً، فأخذتَ منه كما تأخذ من الميتة. ومع كل ذلك إن كان هناك محاسبة على ما فعلتَ، فالحساب عندئذٍ يكون يسيراً.

---

[383] سورة الإسراء: الآية 37.

الرابعة: اعمل لدنياك وآخرتك بميزان : هنا الميزان الدقيق الذي يدعو لطلبه العقل. فعليك في العمل أن تكون مخلصاً، وتعمل وكأنك تعيش إلى أبد الدهر، فلا يكون عملك ناقصاً باعتبار أنك ستموت غداً، وتترك كل عملٍ عملته في المنتصف ولا تنجزه. والعمل أحياناً يجلب الرزق الوفير، وأحياناً لا يجلب رزقاً كثيراً. فالإمام (ع) يدعو الإنسان أن يعمل وكأنه يعيش حياة غير محدودة، ولا يفكر بالموت. وفي الرزق عليه أن يفكر ، كما قال سابقاً ، بالموت وبمحدودية الحياة الدنيوية .

أما العمل للآخرة، فلابد له أن يعمل وفي ذهنه أنه سيموت غداً، ذلك لأن الآخرة تتطلب من الإنسان أن يكون كذلك، حتى يخاف الله ويستغفره ويتوب إليه. لأن العمل للآخرة يقتضي تجرداً عن الدنيا، وعن ملهياتها، وعن الصراع الذي يدور بين أهلها، ويقتضي خوفاً من الله تعالى، بحيث يبعده عن المعصية.

الخامسة : عزّ طاعة الله تعالى : فإذا أردتَ عزّاً بلا عشيرة، وقوة وهيبة بلا سلطان فعليك بطاعة الله تعالى، والدخول في عزّه لأن طاعة الله هي العزّ الأعظم. قال تعالى: (... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...)[384].

---

[384] سورة المنافقون: الآية 8.

السادسة : فلسفة الصحبة والصداقة : يشرح الإمام (ع) طبيعة الصحبة الشرعية والأخوّة الصحيحة، ويضع لها خمس عشر شرطاً علينا مراعاتها، وهي:

1 – الصديقُ الزين : والزين في اللغة كل ما هو جميل وحسن. فينبغي أن يتحلى صديقك بكل ما هو حسن وجميل من أخلاق، وحسن سلوك، وتدين، وحياء، وخوف من الله تعالى.

2 – الصديقُ الصائنُ للسرِ : والصديق الصائن للأسرار هو الذي يحفظ الأسرار أو العيوب في مكانٍ أمينٍ. والقلب هو أكثر أماناً للأسرار، فلا يفشي أسرارك للآخرين. والصديق الصائن هو الذي يصون لسانه من فحش القول، ويحافظ على كرامتك في كل وقت.

3 – الصديقُ المُعين : والمُعين اسم مفعول من عانَ، والماء المعين هو الماء الجاري المتدفق، والصديق المُعين هو الذي يعينك في المحن والمصاعب، فهو كالماء الجاري المتدفق الذي لا ينضب إلا خيراً لك.

4 – الصديقُ المصّدق : وهو الصديق الذي يثق بك، ويصدِّق كلامك. وهذه خصلة عظيمة تؤسس لصداقة طويلة، وأخوّة عميقة. ذلك أن الأصل في العلاقات الإنسانية هو الثقة المتبادلة. وبدون تلك الثقة لا تكتمل أواصر الصداقة أو الأخوة الدينية.

5 – الصديقُ الذي يشدُّ صولتك : الصولة ، هي النفوذ والشجاعة والإقدام . والصديق الذي يشدُّ صولتك هو الصديق الذي يبارك لك شجاعتك وإقدامك على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فهو لا يثبطك عندما تقوم بعمل شجاع من أجل إحقاق ذلك الحق، ولا يجعلك تندم على ما قُمتَ

به. فبعض الناس يحاول تثبيطك عن نصرة الحق، ويلومك على البذل والعطاء!

6 – الصديقُ الذي يبادلُكَ فضلاً بفضلٍ : هذا نموذجٌ جيدٌ للصداقة الحميمة، والأخوة الصادقة. فهو لا يرضى لنفسه بأن تبادر لفضلٍ تقدمه له، إلا وبادرك بفضلٍ مقابلٍ يقدمه لكَ. هذه العلاقة ليس فيها استغلال، بل هي صداقة متعادلة ومتوازنة يحكمها الإنصاف.

7 – الصديقُ الذي يسدُّ الثلمات : والثلمة هي الشرخ، والثغرة، والفراغ. وربما تكون الثلمة في الحياة: العوز، أو مصاعب الأسرة، أو مشاكل العمل، أو الإعتداءات والتجاوزات. فالصديق الذي يسدُّ الثلمة هو الصديق الذي يكون لك حاضراً في المصاعب والمصائب، فإذا إحتجتَ مالاً فيكون أول من يساعدك على ذلك، وإذا واجهتكَ مشكلة عائلية أو أسرية كان أول من يساعدك في تجاوز محنتك، فعليك بذاك الصديق الذي يسدُّ الثلمات.

8 – الصديقُ الذي يعدُّ حسناتك : وهذا صديقٌ منصفٌ أشدّ الإنصاف، فهو لا ينسى حسناتك التي تقدمها له أو للناس عموماً. قال تعالى في هذه الخصلة: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[385]، أي أن جزاء الإحسان إحسانٌ بمثله ، وقد ورد عن رسول الله (ص) في تفسيرها قوله أن جزاء التوحيد هو الجنة ، وهذا أعظم جزاءٍ لأعظمِ إحسانٍ لنفس الإنسان وعقله.

9 – الصديقُ الذي إن سألته أعطاكَ : فقد تنزل بكَ الأمور إلى الحاجة والعوز، فلا تجدَ بداً من سؤاله، فلا يبخل عليكَ بمالٍ أو عينٍ أو نصيحةٍ.

---

[385] سورة الرحمن: الآية 60.

وقد أدانَ القرآن الكريم أولئك الذين يمنعون إعطاء الحاجة التي يحتاجها المرء، فقال: (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)[386]. والماعون هو كل ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الدنيا ، كالمعروف تصنعه ، ومتاع الدنيا تعيره ، والقرض تقرضه .

10 – الصديقُ الذي يبتدُأكَ تلطفاً : والإبتداء في الحديث من قبل صديقكَ هو محاولته الشروع في أمرٍ جديدٍ، وفتح صفحة جديدة يسمحُ لكَ بها بالإنطلاق، خصوصاً عندما تكونَ انتهيتَ من حديثٍ قد اكتملت جميع جوانبه من قبلكَ، فسكتَ. ولذلك فإن مبادرته للحديث في موضوع جديد هي شروع فيه بدايةٌ جديدةٌ.

11 – الصديقُ المواسي لكَ في الملّماتِ : والملمات هي المصائبُ أو الشدائدُ التي تصيبُ الإنسان. والصديق المواسي في الملّمات هو الصديقُ الذي يخفف عنكَ حزنكَ ومصابكَ في الشدائد التي تصيبكَ في حياتكَ المديدة.

12 – الصديقُ الذي تأمنُ منه البوائق : والبوائق هي الشرور والدواهي. فالصديق المخلص هو الذي تأمن منه الشرور. ومن يدعي الصداقة معك، لكنه يحملُ لك الشرور والدواهي ليس بصديقٍ لكَ. وقد ورد في الحديث الشريف ما ينفي الإيمان عن (جارٍ لا يأمَنُ جارُهُ بوائقَهُ)[387].

---

[386] سورة الماعون: الآية 7.

[387] بحار الأنوار ج 68 ص 259 .

13 – الصديقُ الذي لا تختلف عليكَ منه الطرائق : والطرائق لغةً جمع طريقة، والطرائق هي المذاهب، قال تعالى على لسان بعض الجن: (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا)[388]، والمعنى أن لهذا الصديق خصلة عدم التقلب والتلون بطرق مختلفة. فهو ثابتٌ على طريق واحد وهو طريق الحق والصدق. فهذا صديقٌ تثقُ به، وتعتمدُ عليه. وهذا يعني أن هواه واحد، ومعتقده واحد ثابت عليه.

14 – الصديقُ الذي لا يخذلكَ عند الحقائق : الحقائق جمع حقيقة، والحقيقة لغةً هي الشيء الثابت الصحيح. وفي الفلسفة معناها مطابقة التصور مع الواقع، أو تطابق المعرفة مع موضوعها. فالصديق الذي لا يخذلكَ عند الحقائق هو الصديق الذي لا يختلف معك حول الأشياء والأفكار الثابتة الصحيحة التي تتطابق فيها المعرفة مع موضوع المعرفة.

15 – الصديقُ الذي يؤثركَ وقت التنازع: وهو الإنسان الذي يقفُ معكَ عندما تتنازع وأنت على حق مع شخص آخر يحمل رأياً مختلفاً عن رأيكَ، فهو لا يزعجه الاختلاف والتخاصم على الحق . وفي التراث الأدبي قال المتنبي :

أصادقُ نفسَ المرءِ من قبلِ جسمهِ + وأعرفُها في فعلهِ والتكلمِ
وأحلمُ عن خلّي وأعلمُ أنه + متى أجزهِ حِلماً على الجهلِ يندمِ

[388] سورة الجن: الآية 11.

يقول : إذا جهلَ عليَّ صديقي حلمتُ ، وعلمتُ أني إذا قابلته بالحلمِ ، ندم على ما بدرَ منه وعادَ إلى صداقته .

الفصل السادس

النتائج المستخلصة من بحوث الكتاب

مقدمة

نحاول في هذا الفصل استخلاص زبدة الأفكار الواردة في هذا الكتاب : ميزان حكمة الإمام الحسن (ع) ضمن الفصول المتوالية فيه ، علّنا نوفق في فهم شخصية هذا الإمام العظيم من أئمة أهل البيت (ع) .

الفصل الأول

يدعو الإمام علي بن أبي طالب (ع) في وصيته للإمام الحسن (ع) إلى فهم طبيعة الإنسان ، وإدراك معاني الحياة الدنيوية من حوله بما فيها من أفراحٍ وأتراحٍ، ومشاغل تشغل النفس والبال ، ولا تترك له مضجعاً يركن إليه غير الركون إلى قضاء الله تعالى وقدره ، والتسليم والإذعان إلى قدرته . كل ذلك ينبغي أن يتم بعقلٍ واعٍ مدركٍ لطبيعة التكليف الآلهي للإنسان في هذه الحياة .

فهذه الدنيا لا تمنحنا الخلود ، بل كل ما نجمعه من مال وثروات إنما نجمعه لغيرنا بعد موتنا ؛ وفي غفلة منا تتربص بنا كائنات في منتهى الصغر حتى إذا جاءت فرصتها عبثت بأجسادنا ، ونهشت نظام حياتنا ، فنصاب بالأمراض وما يتلوها من آلام وأوجاع وموت .

وفوق كل ذلك فنحن محكومون بقيد الزمن ، فهو من أكبر القيود التي تقيد حركتنا ، وتفرض علينا ما ينبغي عمله في حينه ، وإلا فأي

تأخير أو تأجيل لما أُمرنا به سوف يُحسب ضدنا . وفي النهاية فإن ملائكة الرحمن تنتظر الأمر بإنهاء وجودنا على هذه الأرض ، واصطحاب أرواحنا إلى جهة نحدس بموقعها ولا نعلمُ تفاصيلها !

يقدم الإمام علي (ع) صياغة للمراحل الثلاث في الحياة الدنيا لصناعة الإنسان :

ففي المرحلة الأولى وهي مرحلة التكوين يطلب الإنسان العلم في الصغر ، فيتعلم القرآن الكريم ومعانيه ، ويتعلم الإيمان بالله تعالى وبرسوله محمد (ص) .

وفي المرحلة الثانية وهي مرحلة التمرين يُوجَّه الإنسان نحو التفقه في الدين ، واللجوء إلى الله تعالى في المحن ، والإخلاص له ولدينه في كل الأوقات ، وقراءة التاريخ واستخلاص العبر منه ، وعمارة القلب بالإيمان .

وفي المرحلة الثالثة وهي مرحلة مواجهة الحياة يُوجَّه الإنسان إلى النظر للدنيا على صعيدين : الأول : الصعيد الشخصي ، وفيه : عدم ركوب الأهوال ، وعدم التورط في الشبهات ، أو مقدماتها ، وحتمية الإعتصام بالله تعالى . والثاني : الصعيد الإجتماعي ، وفيه : حمل أهل الفاقة والفقر ومساعدتهم ، فَهمُ الزادُ إلى دار المعاد ، وحسن التعامل مع الناس على كل صعيد .

ولابد من التوقف عند قوله (ع) : (وأمسك عن طريق إذا خفت

ضلالته ، فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال)[389] ، يوصيه بعدم ركوب الأهوال في أجواء محيّرةٍ سوف تأتي ، وفيها ضلال الناس ، وافتتناهم بمعاوية وعطاياه، فآنذاك سيبيعون دينهم بدنياهم بأبخس الأثمان .

طبّق الإمام الحسن (ع) وصية أبيه (ع) بعد ستة أشهر من استشهاده ، خصوصاً عندما علِمَ بخيانة قادة جيشه لمبادئهم وانحيازهم إلى معسكر معاوية ، وعندما شعر بإختلال ميزان الولاء عند جنوده لصالح العدو ، عندها قرر عدم ركوب الأهوال ، وقرر الهدنة مع الظالم .

طلبَ الإمام علي (ع) من ابنه الحسن (ع) أن يستخدم الدعاء والطلب من الله تعالى في كل مناسبة ، لأن الدعاء مفتاح من مفاتيح خزائن الله تعالى ، فلابد للإنسان أن يطلب من الله طلباً ذو قيمة يتضمن جمالاً دائمياً لا قضية وهمية كالمال الزائل، فإن المال لا يبقى لك ، ولا تبقى له كما يقول (ع) . أي أشار عليه أن يطلب من الله تعالى : العلم ، والدين ، والتقوى ، والأخلاق ، والنصرة ، والمغفرة ، وتلك طلبات لها جمالية باقية عند الذين يفهمون قيمتها وأهميتها .

الفصل الثاني

اختبر الإمام الحسن (ع) أعظم لحظات حياته ، عندما عاش مع جده المصطفى (ص)، وأبويه الإمام علي بن أبي طالب (ع) وفاطمة

---

[389] شرح نهج البلاغة (م) ، ج 3 ص 37 – 57 .

الزهراء (ع) في حجرة من حجرات مسجد النبي (ص) قريباً من رسول الله (ص). كان في صباه وقوراً عقولاً قد أمتلأ قلبه بالحكمة والمعرفة . وكان (ع) مصداقاً لما كان يتمناه رسول الله (ص) من حفيدٍ له من الهيبة والإحترام والسؤدد والشرف ما يجعله نموذجاً لرسالة الدين .

كانت ملامح المنهج العقلي مشخّصة عند الإمام الحسن (ع) من بداية حياته ، فقد كان بليغاً ، مفوّهاً ، شجاعاً، مقداماً ، عاش في ظل والده الإمام أمير المؤمنين (ع) يتعلم منه مبادئ الحياة ، ويختبر معه طبيعة الناس وسلوكهم .

وفي المناسبات التي كنا نسمع خطابه بأمرٍ من والده (ع) ، كنا ندرك مقدار الحكمة والبلاغة في منهجه ، فهو يصفُ اللهَ مثلاً بما وصف به نفسه سبحانه . فالخالق هو الذي يسمع كلام مخلوقاته فلا تختلط عليه الأصوات مع أنها تصدحُ بدعائه ، الذي يعلم ضمير الصامتين ورغباتهم دون أن ينطقوا بحرفٍ واحدٍ ، الذي لا شبيه له ولا نظير . كان الحسن (ع) يؤكد على الإصطفاء الآلهي لمجموعة من الأتقياء الأطهار وهم أهم بيت النبوة ، ويؤكد على ولايتهم (ع) بعد وفاة رسول الله (ص) .

وعندما كان يدعوه أبوه للإستسقاء ، كان يصف للمسلمين طبيعة السماء والماء والأرض وخالقها بثراء اللغة ، ومعاني الحكمة والمعرفة . يطلب من الله سبحانه أن يهيّج السحاب حتى يتدفق الماء إلى الأرض العطشى حتى ترتوي ، وينتعش الزرع ، وتشرب الدواب.

وعند ذكره (ع) مصيبة الموت في هذه الدنيا ، كان وبعد أن يقرّ بالتسليم لقضاء الله تعالى وقدره ، يصف القبور بعساكر الموتى ، فهي

معسكرات لأجسادٍ هامدةٍ ، هم متجاورون لا بصفة الجيرة ، لكن بصفة الضرورة . وهم قريبون مع بعضهم في المكان ، لا بصفة القرب القلبي لكن بصفة الحتمية . فهم لا يتزاورون ، بل هم أجسادٌ ملقاةٌ في التراب ، نائيةٌ عن أهلها ، موحشةٌ في طبيعتها .

المشاركة في أحداث الجمل وصفين : كانت مشاركة الإمام الحسن (ع) في الحروب التي حصلت زمن الإمام علي (ع) ، مشاركة عقلية بالإضافة إلى طبيعتها الحربية ، ففي الجمل كانت له أربع محطات في الكوفة تكشف عن منهجه العقلي في التعامل مع الأحداث ، وهي :

الأولى : دعوته لأهل العقل بالإنضمام لجيش الإمام أمير المؤمنين (ع) ونصرته ، معلناً ثقته (ع) بالنصر . فالتدبير الآلهي يقتضي وجوب انتصار الإمام (ع) في واقعة الجمل ، لأنها كانت مصداقاً لفكرة الإمامة الكبرى لأهل البيت (ع) .

الثانية : دعوته للجهاد مع الإمام أمير المؤمنين (ع) ، والعمل بكتاب الله تعالى ، فبعد أن عدّد فضائل الإمام علي (ع) واجتهاده في مرضاة الله، ذكرّهم : إن كان في عاجل ذلك ما تكرهون ، فإن في آجله ما تحبون. أي إنكم تكرهون القتال لأن فيه موتاً ، ولكن لو تعلمون ما أعدَّ لكم الله من الثواب لأحببتم ذلك.

الثالثة : عندما لمس فيهم تردداً ، خاطبهم محذّراً : لئن لم تنصروه لينصرنه الله تعالى .

الرابعة : ذكّرهم بأن الجهاد مع علي (ع) كالجهاد مع النبي (ص). وتلك أخطر ما قاله (ع) ، لأن في قوله أصل الفكرة وهي أن علياً (ع) يملك من العلم والصلاحية للجهاد ما يجعل الجهاد معه (ع) كالجهاد مع النبي (ص).

وفي البصرة كانت له محطتان :

الأولى : الردّ على مقالة عبد الله بن الزبير الذي الذي أكال التهم والأكاذيب للإمام أمير المؤمنين (ع) ، فذكّر الحسن (ع) المسلمين بموقع الإمام (ع) من رسول الله (ص) حيث جاهد معه (ص) في جميع حروبه ، وأشار (ع) إلى أن معركتنا اليوم إنما هي ضد الباطل ، نحاكمهم إلى الله تعالى . ذكّرهم حينئذٍ بأن أمير المؤمنين (ع) إمام الحق ، بطل الإسلام ، أفقه المسلمين وأعلمهم ، الحاكم العادل الذي لا يغفو له جفن حتى ينشر العدالة بين الناس ، أفضل المسلمين بعد رسول الله (ص) ، وأوفى الأوفياء له (ص) ولرسالة السماء ، الذي مدحه القرآن الكريم بأجمل الصفات كولاية الأمر والطهارة والجهاد في سبيل الله تعالى .

الثانية : طلب الحسن (ع) من أبيه الإمام أمير المؤمنين (ع) العفو عن مروان بن الحكم بعد أن أُخذَ أسيراً يوم الجمل . وهذا الموقف يبين الرحمة في قلب الحسن (ع) .

وفي صفين كانت للحسن (ع) محطتان :

الأولى : قال (ع) إن عليهم أن يشكروا نعم الله عليهم ، وأعظم نعمة عليهم هي نعمة وجود أهل البيت (ع) بعد وفاة رسول الله (ص) . فهم حجج الله تعالى على أرضه ، وولاة أمره على الناس ، وإنما يغضبون لله تعالى لا

لإنفسهم . فغضبهم لله تعالى سببه أنهم (ع) هم الموكلون بحفظ رسالته سبحانه وتعالى . إلا أن الناس آنذاك كان لهم شأنٌ آخر فتمسكوا بالتحكيم!
الثانية : وبعد فشل التحكيم اضطرب البعض ، فقال (ع) في كلمته : قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بُعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب . فكان من أبلغ الكلام وأصدقه .

حكمة الحسن (ع) زمن إمامته : ولما استشهد الإمام علي بن أبي طالب (ع) في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة عند صلاة الفجر في مسجد الكوفة، تحمل الإمام الحسن (ع) مسؤولية إمامة الأمة بما فيها من مسؤوليات عظمى ، وعدم رغبة الناس في القتال ، وحب أكثرهم للركون إلى الباطل على نصرة الحق . وفي ذلك ثلاث محطات للإمام الحسن (ع) في تلك المرحلة :
الأولى : خطبته (ع) بعد استشهاد أبيه (ع) التي وصف بها الخالق عز وجل بأعظم الصفات في الوحدانية والأزلية والقدرة والعلم واللطف والحكمة، ثم وصفَ رسول الله (ص) بأجمل صفات الأنبياء (ع)، وذكر صفات الإمام علي (ع) ، وذكّر بكونه (ع) عضد رسول الله (ص)، وساعده الأيمن ، زهدَ في حياته ، وعدلَ في حكمه ، حتى أتاه اليقين شهيداً مظلوماً محتسباً أمره إلى الله تعالى . ثم عرّفَ بنفسه فهو ابنُ عليٍّ (ع) أمير المؤمنين ، وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) ، وجده المصطفى الذي

قال فيه وفي أخيه : (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[390] ، وهذا تعريفٌ جامعٌ مانعٌ ، يشفي غليل كل مؤمن آمن بالله تعالى وبرسوله (ص).

الثانية : وفي بيعته ذكّرهم بالزهد في دنياهم ، وقال لهم أن علياً (ع) عاش بقدرٍ ، ومات بأجلٍ ، ثم قال : إني أبايعكم على أن تسالموا من سالمتُ ، وتحاربوا من حاربتُ . فشرط عليهم في البيعة إطاعة أمره في السلم والحرب، وذلك الشرط أهم شروط البيعة في الإسلام . بمعنى أنه هو الإمام المعصوم (ع) ، القادر على تقدير الموقف الشرعي السليم في الحرب والسلم ، أو القتال والمصالحة . فهو الذي يقرر الحرب والسلم ، وعلى عموم الأمة الطاعة التامة له (ع) .

الثالثة : لما تمت البيعة خاطبهم (ع) خطاب المسؤولية الشرعية ، فكان جوهر خطاب البيعة هو: لأجاهدنَّ بالسيف قدماً ، ولأضيقن من السيوف جوانبها ، ومن الرماح أطرافها ، فطلب منهم الموافقة على محاربة معاوية أو إجابته ، فلم يسمع منهم حرفاً بالإيجاب ، فكأنما إلجموا بلجام الصمت . فكانت تلك أول بوادر ركوب الأهوال . كان صوته (ع) يصدح بالقول : لئِن قام إلي منكم عصبةٌ مؤمنةٌ لأجاهدن معاوية بالسيف . لكن الناس كانت آنذاك تأمل من بيعة الإمام الحسن (ع) عدم القتال ، وعدم نصرة الحق ، والرضا بالباطل . وبذلك ابتدأ ما نبأه أبوه (ع) : عصر ركوب الأهوال في حياة الإمام الحسن (ع) .

---

[390] الإرشاد ص 204 .

الفصل الثالث

كانت وصية الإمام أمير المؤمنين (ع) لابنه الحسن (ع) في الإمساك عن ركوب الأهوال نقطة مفصلية في حياته ، فما أن استشهد الإمام علي (ع) حتى بدت ملامح طريق التحير في ظرف الخوف من الضلال . فكان لابد من الإمساك أو التوقف عن سلوك طريق ضبابي غير واضح المعالم يؤدي به وبمن حوله من المؤمنين إلى الهلاك . وما قول أمير المؤمنين (ع) : (... وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال) ، إلا إنذاراً بما سيأتي من أوقات عصيبة.

مرَّ الإمام الحسن (ع) خلال سنة واحدة (40 – 41) هـ بثلاث مراحل حاسمة في حياته (ع) ، وحياة المسلمين آنذاك ، وهي :

المرحلة الأولى: إلقاء الحجة : قام الإمام الحسن (ع) بإرشاد الناس ، ثم إلقاء الحجة عليهم بلغة واضحة صريحة . بدأ بإلقاء الحجة على معاوية عبر رسائل كتبها إليه يدعوه فيها بترك العصيان والخضوع للإمام الحق (ع) ، نافياً لمعاوية أية فضيلة تجعله في موقع الخلافة ، مبيّناً له أنه (ع) هو أحق بولاية الأمر بعد أبيه الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، فقد وجبت طاعته بعنق كل مسلم ومسلمة ، بدليل الحديث المعروف عن رسول الله (ص). ثم دعى معاوية للدخول في بيعته وطاعته حقناً لدماء المسلمين .

ولم يقتصر الإمام الحسن (ع) على إلقاء الحجة على معاوية ، بل

قام بإلقاء الحجة على الناس في الكوفة ، فحاول بشتى الوسائل جمعهم في معسكر النخيلة ، على مسافةٍ من الكوفة ، لكن الغالبية العظمى منهم كانت تحاول الإنفلات من القتال ، وعدم طاعة الإمام (ع) ، والتثاقل عن الجهاد . وكان أسلوبهم في ذلك السكوت عندما كان يدعوهم للنفير ، وكان يذكّرهم بما قاله الله تعالى في كتابه المجيد بشؤون مقاتلة الظالم ، لكن حقيقتهم كانت تُفصح بأن ألسنتهم كانت كالمخاريق في الدعة ، فإذا جدَّ الجد كانوا روّاغون كالثعالب .

كان ذلك السواد الأعظم من أهل الكوفة ، لكن كانت هناك مجموعة قليلة من المؤمنين الصادقين ، حيث كانت مثالاً للولاء والفداء أمثال عدي بن حاتم ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ومعقل بن قيس ، وزياد بن صعصعة ، الذين وصفهم الإمام الحسن (ع) بصدق النية ، والوفاء بالقول، والمودة الصحيحة . وتلك القلّة التي مدحها الإمام (ع) لم تكن قادرة على مواجهة جيش جرار كجيش أهل الشام .

المرحلة الثانية : بوادر ما خاف ضلالَته : ظهرت بوادر ضلالَة الطريق السياسي عندما دعاهم (ع) إلى الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى ، فلمسَ منهم : التثاقل عن الجهاد ، وشراء ولاءهم بالمال من قبل الظالم ، وخيانة النخبة منهم.

فكان التثاقل عن الجهاد ينعكس في طبيعة سلوكهم ، فهم يتظاهرون بالطاعة له (ع) ، ويتثاقلون في تأدية العمل الذي يأمرهم به، خصوصاً مقدمات الجهاد كالتجمع في المعسكر أو الذهاب إلى ما كان

يدعوهم (ع) إليه . وكان لسان حالهم يكشف عن مودتهم للظالم ، وتخليهم عن إمامهم الحق (ع) .

أما شراء الذمم ، فقد أصبح ظاهرة متكررة في قادة جيش الإمام الحسن (ع) ، وأنصع الأمثلة خيانةً الحكم الكندي ، والمرادي ، وعبيد الله بن العباس. فقد كان هؤلاء عبيدٌ للدنيا ، ليس لهم دينٌ ولا مبدأٌ يسيرون عليه . إشتراهم معاوية بدراهم قليلة . وكان على الإمام (ع) أن يضع في حساباته أنهم جزء لا يتجزأ من الأهوال العظيمة القادمة لا محالة .

ومع ذلك الغدر والخيانة تباطأ الآخرون من الذهاب إلى معسكر النخيلة عندما أمرهم بذلك . وبذلك أصبحت الأمور واضحة ، ومصاديق وصية الإمام أمير المؤمنين علي (ع) شاخصة أمام عينيه (ع) . وأصبح محور مشكلة الإمامة هو عدم وجود الناصر ولا المعين . وأين الناصر أو المعين في كل مراحل إمامة أهل البيت (ع) ؟ عانى الإمام علي (ع) من ذلك زمن رسول الله (ص) وما بعد وفاته (ص). وهكذا عاش الإمام الحسين (ع) مع قلّة الناصر وعدم وجود المعين. وهكذا عانى بقية أئمة أهل البيت (ع) من ذرية الحسين (ع) في مراحل لاحقة .

إلا أن أكثر ما آلم الحسن (ع) هو خيانة عبيد الله بن العباس قائد كتيبة الفرسان ، حيث انفصل القائد عن جند الكتيبة المؤمنين الصابرين من قراء القرآن الكريم. إنسلّ إلى معاوية مفككاً تركيبة الكتيبة التي كانت آخر آمال الإمام الحسن (ع) في تأديب المتمرد على الولاية الشرعية .

كل ذلك عجلّ قرار الإمام الحسن (ع) بالإلتزام بوصية والده (ع) وإتخاذ قراره الحاسم بأن الجهاد مع تلك الفئة المتخاذلة لا يستقيم ، فللجهاد

شروط الإندفاع نحو القتال ، ومخافة الله تعالى ، لكنهم كانوا يفضلون الحياة على الموت ، وكانت فلسفتهم : البقيةُ البقيةُ ، الحياةُ مع الظالم بذلّة العار أولى من الموت مع الإمام (ع) بعزّة وكبرياء .

وكانت الذروة عندما وصل إلى علم الإمام (ع) خيانة النخبة من أهل الشرف منهم في كتاب قيس بن سعد ، فقد استسلموا للعدو قبل البدء بالقتال . تلك هي نقطة اللارجعة في ضلالَة الطريق . وأصبح عهد الهدنة الذي تحدث عنه الإمام (ع) في وقت من الأوقات ، هو الخيار الوحيد الذي لا مفرَّ منه . فعن طريق الهدنة يستطيع الإمام (ع) ، وهو عزيز الجانب ، أن يشترط شروطاً واقعيةً على معاوية . ولسوف تبقى تلك الشروط في عنق معاوية وفى بها أو تراجع عنها أو خالفها. كانت تلك وصية والده (ع) وأحاديثه (ع) التي تنبأ فيها بإستيلاء معاوية على حكم المسلمين ، بحيث تدين له العباد ، ويطول ملكه فيُميت الحق ويُظهر الباطل.

المرحلة الثالثة : الإلتزام بعدم ركوب الأهوال : عندما انكشف للإمام الحسن (ع) عدم إمكانية الدخول في حربٍ مع جيش معاوية لأسباب ذكرناها سابقاً ، أصبح حتماً عليه عدم ركوب الأهوال، كما أوصاه (ع) بذلك. فأصبحت الهدنة واقعاً بعد أن بعث رسالته إلى معاوية معلناً فيها يأسه من إحقاق الحق ، وإعلان الهدنة معه ، وإعتزال أمر الخلافة ، مع شروط اشترطها الإمام (ع) عليه . وكان من شروط الإمام (ع) أن يُعمل بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ص) ، ورفع سب الإمام أمير المؤمنين (ع)

من على المنابر ، وإعطاء الأمان لجميع الناس في أموالهم ، وأنفسهم ، وأعراضهم ، خصوصاً شيعة الإمام علي (ع) .

وإعتزال أمر الخلافة لا يعني التخلي عن الإمامة الشرعية ، بل الإمامة الشرعية للحسن (ع) أمرٌ من الله تعالى ، لا يستطيع معاوية أو غيره سلبها منه (ع). لأنها أمرٌ من الله عز وجل ، وشروطها لا تحققها إلا صفات أهل بيت النبي محمد (ص).

ومعاوية لم يكن من الذين يُطمئن إلى نواياهم ، أو يركن إلى صدقهم ، فما أن تحققت له أول فرصة ليتحدث عن الهدنة حتى قام بتلفيق الأكاذيب ، والإفتراء على الإمام الحسن (ع) بمختلف الإفتراءات. فما كان من الإمام (ع) إلا تبيين الحقائق وتوضيحها، في خطبة نموذجية، يمكن تلخيصها عبر سبع نقاط ، هي :

الأولى: الإقرار بوحدانية الله تعالى : في بداية الخطبة أقرَّ (ع) ، كما في كل الخطب ، بوحدانية الله تعالى في ربوبيته ووجوده، صمداً لا شريك له ، فرداً لا ظهيراً له معه . فهو الذي يصرف الشدائد والمحن والإبتلاءات عن الإنسان مهما كانت درجة علم هذا المخلوق وفهمه ، وهو الذي لا تصل إلى كنهِ معرفته تعالى عقول المخلوقات .

الثانية : فضائل رسول الله (ص) : بعث اللهُ تعالى محمداً (ص) للنبوة ، واختاره للرسالة ، وأنزل عليه القرآن ، فأمره بالدعوة إلى دينه . وجعل الله تعالى لنبيه محمد (ص) أعظم المكانة بين البشر ، فجعل الصلاة في مسجد رسول الله (ص) بألف صلاة في سائر المساجد ، إلا المسجد الحرام ، لمكانة رسول الله (ص) به . وفرض الله تعالى الصلاة على نبيه على كافة

المؤمنين بالقول : (اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد) ، فهو دعاءٌ لله تعالى بالرحمة لمحمدٍ وآلِ محمد (ص).

الثالثة : فضائل الإمام علي (ع) : ولما كان عليٌّ (ع) أقربُ إلى رسول الله (ص) من أي إنسان آخر ، مؤمناً برسالته ، خادماً لأمره ، مطيعاً لمولاه ، جعله الله تعالى الشاهد الذي يشهد للنبي (ص) بصدق ما بلّغ عنه. وهو قولـه تعالـى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ...)[391] . قال (ص) له (ع) يوم نزلت سورة براءة : (سِرْ بها يا علي فإني أمرتُ أن لا أسير بها إلا أنا ، أو رجلٌ مني وهو أنتَ) .

فعليٌّ (ع) من رسول الله (ص) له ميزة خاصة ، ووظيفة أخص وهي وظيفة الإمامة من بعده (ص). جُمعت لعلي (ع) الكثير من الفضائل التي حاول الأمويون محوها من نهج الدين . فهو أول الناس إيماناً ، وأنه سابقُ جميع السابقين، وكلُ من يأتي بعده يستغفر له إلى يوم القيامة ، لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[392] .

الرابعة : فضائل أهل البيت (ع) عموماً : أكمل الإمام الحسن (ع) فضائل أهل البيت (ع) بالقول أنهم جزءٌ لا يتجزأ من فضائل رسول الله (ص) ، فأوجب الله تعالى لهم كل ما أوجب لرسوله (ص) من الفضل . ونزلت

---

[391] سورة هود : الآية 17 .

[392] سورة الحشر : الآية 10 .

عليهم آية التطهير بعد أن جمعهم (ص) ، وهم : علي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، في كساء خيبري ، وقال (ص) داعياً الله تعالى : (اللهم هؤلاء أهلُ بيتي. وهؤلاء أهلي وعترتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) . فهؤلاء الأطهار هم أهلُ رسول الله (ص) ، ولحمُهُ ودمهُ ونفسهُ . وهو منهم وهم منه . وتلك من أعظم فضائل أهل البيت (ع) فأذهبَ اللهُ عنهم رجس الشك بالله تعالى ، وطهرهم من آثام المعاصي والأوهام .

الخامسة : فضائل الإمام الحسن (ع) : والإمام الحسن (ع) هو من أهل البيت (ع) الذين مدحهم الله تعالى في كتابه المجيد ، وهو من الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم من الشكوك والآثام . وليس هناك شخص أقرب من الحسن (ع) إلى رسول الله (ص) في تلك الفترة ، فهو إمام الأمة وقائدها ، وإن خذله الناس في مقارعة الظالم . ومعاهدة الهدنة لا تضرّ بإمامته شيئاً. فهو الإمام المُطاع قامَ أو قعدَ كما قال رسول الله (ص).

لخص الإمام الحسن (ع) فضله بالقول : (أنا أولى الناس بالناس في كتاب الله تعالى ، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله). فقد أفاض الله تعالى عليه (ع) نعماً عظيمةً ، منها أنه ابن البشير النذير ، وأنه ابن السراج المنير ، وأنه حفيدُ محمد (ص) خاتم الأنبياء والمرسلين ، أبوه علي أمير المؤمنين (ع) ، وأمه فاطمة الزهراء (ع) بنت محمد سيد المرسلين (ص).

السادسة : القدح بمعاوية : أعلن الإمام (ع) على الملأ كذب معاوية بن صخر الذي أدعى بأنه أهلٌ للخلافة . وهو ليس كذلك ، فتاريخه وتاريخ أبيه أبو سفيان يشهدان على أنه ليس أهلاً لذلك . طمع بنو أمية ومعاوية

بالخصوص بالخلافة ، وقد قال رسول الله (ص) فيهم : إنَّ الأمم التي تولي أمرها إلى الجهال ، وتترك أهل العلم والتقوى وتحاربهم ينزل قدرها إلى أسفل الدرجات . والأمم عموماً في لحظات ضعفها تنقاد إلى الباطل ، وتترك الحق . ولو قرأت التاريخ البشري لرأيت عجباً من ذلك .

السابعة : ما بعد الهدنة : تمسك الإمام الحسن (ع) بوصية والده (ع)، وبنظرية النهي عن ركوب الأهوال حين خاف ضلالَة الوضع . والإمام علي (ع) هو أول من عاين ذلك الوضع ، فكان يناشد الناس ، ويستغيث بهم فلم يغيثوه (ع) ، ولم ينصروه ، بل ذهبت الكثرة منهم إلى حيث السلطة والإمتيازات وتركوه وحيداً. فتلك هي السنن والأمثال . وهذا ما حصل لهارون (ع) وقومه. واليوم يحصل مع الحسن (ع) وقومه .

الفصل الرابع

جمع الإمام الحسن بن علي (ع) جميع صفات الإمامة الحقة ، فمع علمه الجمّ كان أزهد الناس فيهم ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً ، في الوقت الذي كان متمسكاً بإحقاق الحق وإزهاق الباطل . جمع من أطراف الكمال : العلم ، والإيمان ، والتقوى ، والعبادة ، والفصاحة ، والصبر ، والحكمة . وما سنعرضه هنا هو حكمته (ع) في أصول الدين. فقد كان يعرض مبدأ التوحيد ، وفكرة النبوة ، وفكرة الإمامة بأبلغ الصور والوجوه اللغوية والعقائدية . وكلامه في صفة التوحيد وآثاره ، وصفات النبوة وإلزاماتها ، وصفات الإمامة وإلزاماتها من أبلغ الكلام وأدقه .

حكمة الإمام (ع) في التوحيد :

أقصى ما يمكن أن يعمله العبد المطيع لخالقه العظيم هو أن يصفه بما وصف به نفسه في القرآن الكريم ، وأن يشكره على تدبيره ، وأن يعبده عبادةً خالصةً تامةً . وهكذا كان الإمام الحسن (ع) في وصفه وعبادته للخالق المدبر عز وجل .

فقد بيّنَ (ع) أن الخالق يصفُ نفسه ولا يصفهُ غيرُهُ . فلا يستطيع الإنسان العاجز وصف الخالق الذي تعجز عن تصوره الأفكار ، وتقصرُ عن الإحاطة به الأبصار . فكل من وصفه عجزَ عن وصف حقيقته ، فهو تعالى بعيدٌ في قربه ، وقريبٌ في بعده .

وسلطانه الذي لا يُقهر هو الأمل الذي يراود المظلوم ، وهو المعتصَم الذي يَعتصمُ به المكلوم فينتصرُ به . وهو الخبيرُ بما وقع ، والعالِمُ بما سيقع ، وهو العارفُ بالأسرار ، والحاضرُ في الغيب والشهادة ، وإليه ترجعُ أمور الخلق من حياةٍ ، ومماتٍ ، وهلاكٍ ، وفناءٍ ، وإسرارٍ ، وإعلانٍ .

وهو الجوادُ إنْ منعَ ، والجواد إنْ أعطى ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاهُ ما ليسَ له ، وإن منعَ منعَ ما ليسَ للعبد . والجود من الصفات الثبوتية للخالق ، عطاؤه كان كرماً ورحمةً ، ومنعه كان تدبيراً وتقديراً . فهو الجواد الكريم المنعِم على عباده .

والإحتراس من غضب الله تعالى لا يتم إلا بالتعود على كثرة ذكره، وجارُ اللهِ آمنٌ محفوظٌ ، بمعنى أن التقرب إليه تعالى بالعمل الصالح ،

والعبادة المقبولة يعدُّ وكأنه مجاورة الله تعالى . وأفضلُ طريقةٍ في التقرب إليه هي بطاعته . فالمطيعُ هو جارُ إليه بالمعنى المجازي، أي أنه لا يمكن كسب رضاه تعالى إلا بطاعته طاعةً صادقةً لا يشوبها غشٌ أو نفاقٌ.

ومن صفاته أنه هو الأول قبل كل شيء أي الأول بلا إبتداء ، والآخر بلا نهاية ، وهو بكل شيء عليم . وبتعبير فلسفي : أن قدرة الله تفهم عن طريق أمرين : عدم افتتاح الوجود ، وعدم اختتام الوجود . أي عدم تناهي الأزل والأبد . وقوة إدراك المخلوقات تعجز عن إدراك كنهه عز وجل .

وهو عالمُ الشيء الذي لم يكن ، ويعلم ما كان في الماضي ، وما يكون في الحاضر ، وما سيكون في المستقبل . ولا يحجب علمه سماء بعيدة ، ولا أرض مقفرة ، ولا بحر عميق .

وهو تعالى الذي يقدِّر الخلق والرزق والأجل ، وقضاؤه حتمٌ على جميع المخلوقات والأشياء . لا يُكرَه ولا يُغلَب سبحانه ، وإذا أراد أمراً فإرادته تخلق الشيء وتكوِّنه .

حكمة الإمام (ع) في النبوة :

كان رسول الله محمد (ص) الأفضل والأطهر والأعلى رتبةً بين الرسل والأنبياء (ع) ، فلم يُنبِئ أحدٌ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه رسول الله (ص) . فهو الصادق الأمين ، خاتم الرسل والأنبياء (ع) .

كانت رسالته (ص) رحمةً للعالمين لا تعادلها رحمةٌ أخرى ، فعن طريقها إكتمل الفهم الإنساني لطبيعة الخلق والخالق ، وطبيعة الحساب والجزاء ، وطبيعة الثواب والعقاب ، وطبيعة الرحمة الآلهية بالإنسان من حيث قبول التوبة والمغفرة ، وتنظيم الحسنات والسيئات ، وقبول الدعاء وتحقيق الإجابة .

يصفُ الحسن (ع) جده رسول الله (ص) بأن الله تعالى اصطفاه أي فضّلَهُ واختاره على بقية البشر ، وانتجبه أي اختاره لفضلٍ وسابقةٍ لا يعلمها إلا الله ، والرجل النجيب هو الفاضلُ النبيلُ الكريمُ . وارتضاه أي قبَلَهُ عندما رآه أهلاً لتبليغ الرسالة . أي أن الله تعالى رأى فيه المؤهلات من الصدق ، والطهارة ، والإيمان ، وصفاء النفس ، والتضحية في سبيل الله ، ونكران الذات ، فكان أهلاً لأداء تلك المهمة العظيمة ، ولذلك اختاره تعالى للنبوة الخاتمة .

وصفاتُ رسول الله (ص) هي صفات الكمال ، فهو صاحب الأخلاق العليا في الصدق والإخلاص والرحمة والتواضع . أثنى عليه الله تعالى في الملأ الأعلى ، وأمرَ العالَم الأدنى بالصلاة عليه .

وقام (ص) بوظيفته على أتم الوجوه ، فقد بلّغ القرآن كاملاً كما نزل ، وشرح العبادات والمعاملات ، والسنن والأخلاق ، والفضائل والآداب. فأصبح المؤمن بالإسلام مكتمل الفضائل والآداب مع خالقه ، ومكتمل السلوك مع أقرانه من البشر .

حكمة الإمام (ع) في الإمامة :

اتفقت كلمة المسلمين على التوحيد والنبوة ، لكنها اختلفت في الإمامة . ذلك لأن الإمامة هي موطن طموح من تمنى الرئاسة والزعامة ، والناس تطمح دائماً للزعامة والسلطة . فالزعامة الدنيوية هي أقصى ما يحلم به من يحب الحياة الدنيا وزخارفها ، فعن طريق الولاية الدنيوية التي يلتحفون بعبائتها يكسب هؤلاء العصاة الطاعة من قبل الرعية ، وعن طريقها يقترفوا الظلم والقسوة بالمضطَهدين .

وطالما تقاتلوا على الفوز بها ، وتبرأ بعضهم من بعض أملاً في نيلها ، تركوا ما أوصاهم به رسول الله (ص) من الإلتزام بولاة الأمر من أهل البيت (ع) الذين طهرهم الله تعالى من الأوهام والشكوك ، وأذهب عنهم رجس حب الدنيا وزينتها .

إلا أن الفائز الحقيقي من إتباع الولاية الحقة هو من منَّ الله تعالى عليه بمعرفة ولاة أمره من أهل البيت (ع) من الذين أوصى بهم رسول الله (ص) ، فهم معدن العلم ، وولاة أمر الأمة ، وهم سببُ النجاة من النار ، والدخول في الجنة .

لقد جعلَ الله للمؤمنين مفتاحاً تُفتحُ به المغاليق ، ذلك المفتاحُ هو ولاية الأوصياء من ذرية رسول الله (ص) ، فبذلك المفتاح تفتحُ أبواب العلم والمعرفة ، وتفتح أبواب الرحمة والمغفرة ، وتفتح مغاليق العبادات والطاعات ، وتفتح أسرار الفرائض والسنن . ومن أعظم ألوان الرحمة هي شفاعة محمد (ص) وآل محمد (ع) في المؤمنين من أهل الذنوب ، فهي بابُ رحمةٍ يعطي الأمل لأهل الذنوب بالتوبة ، وعدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى.

وأهل البيت (ع) هم أهل الطاعة والإخلاص ، الذين يؤدون حق الله ، وقد مُلئِتْ قلوبهم معرفةً لله ومحبةً له تعالى ، وهم أهلُ الصدقِ والطاعةِ في نعيم دائم لا يحول ولا يزول ، وهم القائمون بحق الله وحقوق عباده ، الملازمون للبر في العقل والقلب والجوارح .

الفصل الخامس

أهتم الإمام الحسن (ع) ببناء الإنسان ، فحاول أن يجعل منه أداةً محرِّكةً للخير ، يكون همها العبادة والتفكر ، وتكون من أساليبها تثبيت أسس الأخوة بين الناس . ولم تكن نظرته للإنسان منفصلة عن نظرته إلى طبيعة الحياة الدنيا وصفاتها ، من كونها بريق خادع تلقي بشباكها ، لإصطياد من تعلق بها ، وتمسك بنعيمها المؤقت .

في بناء الإنسان : النفسُ ملكٌ لله تعالى يتصرف سبحانه فيها بما شاء . فإذا عرِفَ الإنسانُ أن الدنيا هي دار إرتحال ، وإن الآخرة هي دارُ بقاء ومُقامة ، عرفَ موقعه في الحياة . فما أن يُغلَق بابُ هذا العالَم حتى يُفتح بابٌ إلى عالم آخر وهو عالم الخلود ، بثوابه أو عقابه ، بجنته أو ناره .

ولا يمكن للإنسان أن يبني شخصيه الدينية ما لم يهتم بعقله ، فعليه أن يختار الأفضل والأجود من المعقول في الفكر والأدب والأخلاق والدين . فالعقل السليم يؤدي بالإنسان إلى إختيار طريق الخير ، وتجنب طريق الشر . والإنسان ذو العقل التام ، والقلبُ الواعي ينزجر بالموعظة الحسنة ، وبالكلمة البليغة ، وبالإنذار والوعيد .

وإذا تركَ الإنسانُ المعاصي وانشغل بالعبادة والتفكر ، أصبح يخاف الله تعالى ويرجو رحمته ، وإذا خاف الله تعالى أصبح متقياً . ومن أصبح متقياً إدرك قوة الخالق سبحانه في الحساب والثواب ، وإدرك أن الإنسان لم يخلق سدىً ، دون رقابة أو مسؤولية . فقد خلق الله تعالى الإنسان بقصدٍ وتصميمٍ ، فجعل له أمداً في الحياة ، وموردًا للرزق ، ووضع لكل إنسان قدراً ، ومنزلةً ، وفكراً . فما قُدِّرَ للإنسان من رزق ، أو عيال ، أو منفعة أصابه حتماً ، وما صُرِفَ عنه فلن يصيبه .

والعبودية الحقيقية لله تعالى ترتبطُ بحسن السلوك مع الله ومع الناس ، فلابد من الإعتدال في معاملة الناس ، والتأمل في حقيقة الحياة الدنيا . ذلك أن من صفات العبودية لله : العفّ عن محارم الله ، والرضا بما قسمه تعالى ، والمجاورة الحسنة ، ومصاحبة الناس بمثل ما يحب الإنسان أن يُصاحب ، والتذكير دائماً بأن الدنيا دارَ بوار وهلاك ، فلا يجمع فيها الإنسان إلا ما يحتاجه من أساسيات .

ومن العبودية لله أن يعيش الإنسان المؤمن في هذه الدنيا بمكارم الأخلاق ، وهي عشر خصال : صدق اللسان ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، وحُسن الخلق ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، وصلة الرحم ، وحماية الجار، ومعرفة حق الرفيق ، وإكرام الضيف والحياء . هذا ما كان يتمناه الإمام الحسن (ع) من خصالٍ يتحلّى بها كل شاب من اتباعه ومحبيه (ع) .

وفي صفات الأخوة الفاضلة يصوّر لنا الإمام (ع) إنساناً إفتراضياً ذو أخلاق مثالية ، يحيي قلبك بأخوة حقيقية فيها تمرد على أربعة قيود،

تحدّه عن الخروج عن مباني العقل والشريعة ، وهي : قيدٌ على بطنه ، وقيدٌ على فرجه ، وقيدٌ على جهله ، وقيدٌ على غضبه . وهو يسمعُ أكثر مما يتكلم ، ولا يدخل في مراءٍ أو شكٍ أو إرتيابٍ ، ويبدأ مشواره بالحق دائماً . فذاك جديرٌ بأن يكون لكَ أخاً فاضلاً ، تكرمه وتضعه في موضعه اللائق به .

وأهل العقل لهم صفات متميزة ، وجزاء العباد على قدر عقولهم ، فالعاقل يعبد الله عبادة صحيحة . والعقل أداة فعالة تصون الإنسان من عاديات الزمن ، فالعقل حرزٌ حصينٌ يصون صاحبه من الإنزلاق في الهاوية ، أو الهلاك . وصاحبُ العقل حليمٌ يتأنى ويسكن عند الغضب مع قدرته على إنزال الأذى ، لكنه يتصرف بحكمة وروية . وصاحبُ العقل وفيٌّ ، يحافظ على العهد ويلتزم به ، أي أنه رجلٌ مؤمنٌ ذو مروءة .

ومن صفات أهل العقل أنهم لا يخالطون أهل الفسوق ، ولا يجالسون أهل الدنيا الذين لا يدركون أعماق القضايا ، ولا يرون إلا سفائف الأشياء وقشورها . ذلك لأن إهتمام أهل الدنيا محصورٌ بجمع المال ، وجرح الناس بظلمهم ، وإظهار عيوبهم المستورة ، وعدم الخوف من الله تعالى ، وعدم أدائهم الفرائض والواجبات .

ومن صفات أهل العقل أيضاً : اليقين بالله تعالى ، وهو عدم الشك فيه ، وعدم الإرتياب في الآجال ، وعدم الشك في الأرزاق ، فالرزق من الله تعالى ، يقدرّه تقديراً ، ويدبّره تدبيراً ، ناظِراً إلى احتياجات عباده .

في صفة الحياة الدنيا : الدنيا بريقٌ خادعٌ ، وما على الإنسان العاقل إلا التفكر في مواجهة المصير المحتوم ، وهو الموت الذي يهدم لذات الناس ، ويقطع رغباتهم وشهواتهم . فالدنيا حياة مؤقتة لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن نهايتها ، ولا يمكن التوقي من مساوئها .

فالإنسان العاقل يتعظ بالسنن والآثار. والدنيا كلها عبرٌ ، نعيشها ونرى كل يوم من يموتُ فيها ويغادرها تاركاً وراءه كل شيء . وما ينفع الإنسان فيها إلا أن يترك أثراً محموداً ، وعلماً نافعاً . ولو نظر الإنسان إلى الدنيا نظرة العالِم المتفحص ، لرأى أن كلَّ إنسانٍ يستوفي فيها ما قدّر الله له . وما صممه تعالى له من رزقٍ لا يذهب لغيره ، فالرزق مكتوبٌ له، سواءً جهدَ في كسب ماله ، أو زهد فيه .

وأصالة المطلب هو أن يظفر الإنسان بالآخرة ، وأن لا يحرص على الدنيا ، فلابد من التهيؤ في طلب الآخرة من البداية ، ولو فاتته أمور الدنيا من رزقٍ أو منفعةٍ فلا يحزن ، لأن الهدف الأسمى في الدنيا هو كسب مرضاة الله في الآخرة .

ولو بسط الإنسان ذراعيه أفقياً على سبيل الإفتراض لرأى أن طرفاً يمسكه إلى الحياة وما تمثله من متع مؤقتة ، وطرفاً آخر يمسكه إلى الموت ، وكلٌ منهما يشده إلى طرفه . فالدنيا تخدع الإنسان وتصوّر له حلاوة الجمع والبخل والتمتع بالملذات. والموت يطلبه حثيثاً في كل لحظة ، ويفاجئه وهو غير مستعدٌ له .

وحقيقة الدنيا أن ما زاد عن حاجتك فإنك إنما تخزنه لغيرك . ولكنك تتحمل حساب جمعه وخزنه . وفي حلال الدنيا حسابٌ وفي حرامها عقابٌ . فاعمل لدنياك وآخرتك بميزان دقيق يوافقه العقل والشرع معاً.

وإن شئتَ ، وأصررتَ على الدنيا ، فلابد لك من صديق حقيقي يخلص لك أشد الإخلاص . فقد نادى الإسلام بالصداقة الحقيقية بين المؤمنين . فليكن لك صديقٌ مخلصٌ ، كما أوصى الإمام الحسن (ع)، حسنٌ في الأخلاق ، صائنٌ للسر ، معينٌ لك في المحن والمصاعب ، يثقُ بكلامك ويصدقّك ، يشدُّ صولتك ، ويبارك شجاعتك ، يُبادلُكَ فضلاً بفضل، يسدُّ ثلماتك وعوزك في الحياة ، ويعدُّ حسناتك ويذكرها ، إن سألته أعطاك ، يبتدأكَ تلطفاً ، ويواسيك في المصائب ، تأمنُ منهُ الشرور والدواهي ، لا يتقلب عليك ولا ينقلب ضدك ، ويؤثرك وقت التنازع .

تلك هي الوسيلة التي تساعدك على إجتياز الإمتحان الصعب في حياتك الدنيوية ، حتى تعبر الجسر الموصِل إلى الآخرة .

ميزان الحكمة بين الإمامة والخلافة :

من أجل فهم الصورة الكاملة لحكمة الإمام الحسن (ع) لابد من إدراك الفرق بين الخلافة وما يتبعها من بيعة ، وبين الإمامة وما يتعلق بها من علم ونص ووصية .

الخلافة : هي استخلاف من قبل الله تعالى للإنسان على الأرض ، بمعنى أن يكون المستخلَف خليفة الله على الأرض ، قال تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ...)[393]، وقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...) [394].

وتلك الخلافة لها طرفين : الأول : التخويل من قبل الله تعالى لمن اكتملت لديه شروط الخلافة . والثاني : البيعة من قبل الناس . والبيعة هي عقدٌ بين المبايِع والمبايَع له ، يتم بموجبه إلتزام الطرف الأول بطاعة المبايَع له في قوانين الحرب والسلم ، وإدارة الحياة المدنية والإجتماعية .

البيعة : البيعة هي أصلٌ في الخلافة مع شروطها من حيث العدالة، والتقوى ، والوصية من النبي (ص) ، ونحوها . ولكن إذا نُقضت البيعة من قبل الناس ، أُنتهكت عندئذٍ شروط الخلافة ومبادئها ، لأن الخلافة تقتضي الطاعة من قبل المبايِع .

فيما يخص الإمام الحسن (ع) فقد نُقضت البيعة عندما تقاعس أهل الكوفة عن الإلتزام بأوامره (ع) في القتال ، وعندها تبينت خيانتهم الصريحة الواضحة . عند ذلك توقف مبدأ الخلافة الذي سار عليه مدة ستة أشهر ، بعد أن أكمل الإمام (ع) وظيفته الشاقة في النصح لهم ، وإلقاء الحجة الشرعية عليهم .

---

[393] سورة النور : الآية 55 .

[394] سورة البقرة : الآية 30 .

كان من شروط المبايعة : طاعته (ع) في السلم والحرب ، حيث قال (ع) : (إني أبايعكم على أن تسالموا من سالمتُ ، وتحاربوا من حاربتُ) . أي أن أمر السلم بيدي لا بيدكم ، لأنني وبوصية جدي رسول الله (ص) إمامٌ مفترض الطاعة ، أوصلكم إلى مرضاة الله إن اطعتموني في أمري .

الإمامة : هي نص شرعي لا يتسنى لأي شخص تقمصها ، إلا أن يتم تعيينه من قبل رسول الله (ص) والوحي ، لأن الإمام (ع) مطهرٌ من الرجس والشك . فالإمامة مستمرة مع الإمام الحسن (ع) وبقية أئمة أهل البيت (ع) ، للأدلة القرآنية والنبوية ، ومنها : (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) [395] ، (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)[396] ، (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [397] ، وقول رسول الله (ص) : (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[398] ، و(إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي) [399] .

---

[395] سورة الأحزاب : الآية 33 .

[396] سورة الأنبياء : الآية 73 .

[397] سورة البقرة : الآية 124 .

[398] الإرشاد ص 204.

[399] بحار الأنوار ج 23 ص 133 .

لابد أن نلتفت إلى نقطة مهمة وهي أن وصية أبيه الإمام علي (ع) القائلة بالكفّ عن ركوب الأهوال وقت ضلال الناس ، لا يعني بالضرورة التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإرشاد الناس إلى طريق الحق ، وهو أصل فكرة الإمامة الشرعية . هذا هو جوهر الاختلاف بين الخلافة والإمامة .

وأدلة الإمامة وثبوتها لهم (ع) واضحة بالتواتر ، لأنها تستند على العلم والوصية من رسول الله (ص) والإختيار الآلهي ، ولا تصلح إلا فيهم (ع) ، ذكرها الله تعالى في كتابه فقال : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) [400] ، وذكرها رسول الله (ص) في سنته فقال (ص) : (اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي)[401] ، و(الأئمة بعدي اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب (ع) وآخرهم القائم المهدي (ع) ، فهم خلفائي وأوليائي وحجج الله على أمتي بعدي)[402]. ولا يمكننا الإستغناء عن أئمة أهل البيت (ع) في أي زمان وفي أي مكان ، لأنهم عيشُ العلمِ ، وموتُ الجهلِ ، وترجمان القرآن .

والحمد لله رب العالمين .

---

[400] المائدة : الآية 55 .

[401] مسند أحمد بن حنبل ج 6 ص 292 .

[402] من لا يحضره الفقيه ج 4 ص 179 .

المصطلحات الواردة في الكتاب

(رُتبت حسب ورودها في الكتاب)

حِيرةُ الضلال : تحيرُ الإنسان عندما لا تساعده الأسباب في طريقٍ كُلِّفَ بسلوكه. يبقى عليه أن يسلك طريقاً مغايراً ، وهو في خضم حيرة وضبابية ، يمكن أن يضلّه عن سلوك جادة الشرع . بمعنى آخر عليه التوقف فوراً عن سلوكِ طريقٍ يمكن أن يؤدي به وبأصحابه إلى الميلان قليلاً عن الجادة التي أمرنا اللهُ بسلوكها.

ركوب الأهوال : هو الدخول في مدخل يمكن أن يؤدي إلى تدمير كل ما بناه الإنسان من قيم وعقيدة ومبدأ ، نهى الإمام علي (ع) ابنه الحسن (ع) عن ركوب الأهوال في حالة اختلال ميزان الولاء عند جنوده لصالح العدو.

طلب النصرة : يطلب أهل البيت (ع) النصرة من الله تعالى ويشكون إليه جحود الناس لهم . ويطلبون النصرة من الناس بسبب نظام البيعة الذي هو عقدٌ ملزِمٌ من الطرفين : المُبايَع له وهو الإمام (ع) والمُبايِع وهم الناس . فنظام الإمامة يوصي الناس بالإيمان قلباً ، وبالنصرة عملاً. ذلك أن في نصرة الإمام (ع) من قبل الناس امتحانٌ واقعيٌ لعمق الإيمان في قلوبهم .

بايعَ الناسُ علياً (ع)، وبايعوا الحسن (ع) ، وبايع أهل الكوفة الحسين (ع) قبل تحركه إليهم. فكانوا (ع) يطلبون النصرة من هؤلاء الذين بايعوهم لأنها جزء لا يتجزأ من عقد البيعة المبرم بين الإمام (ع) وبين

المبايِعين .

إلقاء الحجة : هي إثبات ما يدل على صحة الدعوى ، وإذا قامت الحجة وبلغت المكلَّف على وجهٍ يفهمها ، كان عليه أن يرتب آثارها. قامت حجة الله على الناس بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب السماوية . والقاعدة أن الناس لا يحاسبون على أفعالهم إلا بعد قيام الحجة .

أهل البيت (ع) كانوا قبل أن يقدموا على أي عمل يخص الناس، إرشادهم إلى طريق الصواب بإلقاء الحجة عليهم ، وذلك بدعوتهم بلغةٍ صريحةٍ واضحةٍ يفهمونها ، إلى طلب النصرة ، أو القتال ، أو التصدي للظالم .

ألقى الإمام الحسن (ع) الحجة على معاوية أولاً عبر تحذيره من تجدد الحرب ، ودعاه إلى إلقاء السلاح ، ثم ألقى الحجة على الناس ثانياً عبر خطبه المتعددة في حثهم على الجهاد ضد الظالم .

عاش عليٌّ (ع) بقدرٍ وماتَ بأجلٍ : أي عاش بقدرٍ قدّره الله تعالى له ، وهو أن يصاحب رسول الله (ص) ، وأن يقاتل من أجل دين الله ، وأن يجاهد وينشر دين الله بالكلمة البليغة والسلوك الفاضل . وماتَ بأجلٍ صممه الله له وهو الإستشهاد في محراب الصلاة ، في مسجد عظيم كمسجد الكوفة ، في وقت صلاة الفجر من ليالي القدر من شهر رمضان المعظَّم . وذلك أفضل ما يتمناه إنسان من قدرٍ عظيم وأجلٍ محكم .

ترك مقدمة الشبهات : الشبهة هو ما اشتبه به بين الحق والباطل . وتنتج عندما يختلط الفكر الغريب بغيره ، فتصبح شبهة . وترك مقدمة الشبهات تعني عدم خلط العمل الغريب المجهول المصدر بالعمل الصحيح الذي

أوصى به رسول الله (ص) . فإذا اختلط العرف الجاهلي مثلاً (وهو فكر غريب عن الإسلام) مع الدين ولّدَ إنحرافاً وشبهة . وتلك الشبهة يمكن أن تؤدي إلى ضلالة .

وأفضل طريق لتفادي الشبهات هو الإمساك أو التوقف عن عمل لم يُكلَّف به الإنسان من قبل الدين .

الكيفية : هي حالة الشيء وصفته . وفي اللغة : الكيف اسمٌ مبهمٌ غير متمكن . والكيف هو من صفات المخلوق كالتغير والحاجة . فالمخلوق يتغير جسمه وفكره بالحركة والسكون والشكل والهيئة ، وكذلك تتغير حاجته من زمن إلى زمن . والله تعالى لا يشبهه شيءٌ من خلقه ، ولا يوصف بأوصافهم ، بل هو سبحانه متنزهٌ عن تلك الصفات ، كما ورد في قوله تعالى : (... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[403] .

الإنية : اصطلاح فلسفي يطلق على واجب الوجود لذاته ، لكونه أكمل الموجودات في الوجود قوة . والله سبحانه خلق المكان أو الأين ، لكنه لا يتحيز بمكان . والأين في اللغة اسمٌ يتضمن معنى الشرط للمكان . والله سبحانه منزّهٌ عن المكان . والقاعدة أن العلّة لا تحتاج إلى المعلول ، ولا ترقى إلى مرتبته ، فالمكان المخلوق له متأخر عنه في الوجود، فلا يمكن تصور إحتياجه إلى المكان . ولذلك – كقانون عام – هو تعالى منزهٌ عن الأشياء التي خلقها وأوجدها .

إرادة الحتم : هي الإرادة التكوينية ، وهي ما تعلقت بأفعال العباد بإختيارهم

---

[403] سورة الشورى : الآية 11 .

وإرادتهم . وتلك الإرادة مرتبطة بفكرة أن فعل العبد لا يقع إلا بإرادته تعالى. أي أن الله يريد فعل ، وإذا لم يرد أبطله بمقدمة من المقدمات . مثالُ ذلك: نهى الله تعالى آدم وحواء من أن يأكلا من الشجرة ، لكن مشيئته كانت أن يأكلا منها . فأكلا منها ، فتحققت مشيئته تعالى . ولو لم يشأ لم يأكلا أبداً، لأن مشيئته تعالى هي الغالبة .

إرادة العزم : هي الإرادة التشريعية من أوامر ونواهي . وأثر تلك الإرادة هو إفهام العباد بما يريده الله تعالى منهم ، وقد توضحت تلك الإرادة عبر القرآن الكريم ، وسنّة رسول الله (ص) ، وأهل بيته (ع) . مثالُ ذلك : أمرَ اللهُ إبراهيمَ (ع) بذبح ابنه إسماعيل (ع) ، وكانت مشيئته تعالى أن لا يذبح ابنه . ولو لم يشأ لذبح إبراهيم (ع) ابنه ، ولكن مشيئة الله تعالى هي الغالبة ، فتحققت مشيئته تعالى .

القِدم الذاتي : وهو عدم افتتاح الوجود . فليس لله عز وجل إبتداء ، ولم يأت أحدٌ قبله في الوقت أو الترتيب سبحانه . قال تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [404] . فهو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء ، كان هو ولم يكن شيءٌ موجوداً ، والآخر بعد فناء كل شيء بلا انتهاء ، تفنى الأشياء ويبقى هو سبحانه .

البقاء : وهو عدم اختتام الوجود . قال تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [405] . فهو الآخر لا شيء بعده ، أي هو

---

[404] سورة الحديد : الآية 3 .

[405] سورة الحديد : الآية 3 .

الآخر مطلقاً .

دليل التمانع : هو أحد البراهين العقلية في إثبات وحدانية الله تعالى ، ونفي تعدد الخالق . وهذا البرهان مؤلفٌ من مقدمتين : الأولى : وجود الإنسجام والتناسق والوحدة في عالم المخلوقات . والثانية : لو كان أكثر من إله يحكم هذا الكون لما انتظم ولدخل في دوامة الفساد والخلل . إذن ندرك بالبداهة أن منشِأ هذا الكون هو إلهٌ واحدٌ حكيمٌ قادرٌ . فلا خالق ولا مدبر إلا الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[406].

الحقيقة : لغةً هي الشيء الثابت الصحيح . وفي الفلسفة معناها مطابقة التصور مع الواقع ، أو تطابق المعرفة مع موضوعها . أشار الإمام الحسن (ع) إلى الصديق الذي لا يخذلك عند الحقائق ، ومدحه بأوصاف جميلة، والمعنى أن الصديق الحقيقي هو الصديق الذي لا يختلف معك حول الأشياء ، ولا يختلف معك حول الأفكار الثابتة الصحيحة التي تتطابق فيها المعرفة مع موضوعها .

---

[406] سورة الأنبياء : الآية 22 .

المصادر

1 – القرآن الكريم .

2 – إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات . محمد بن الحسن العاملي (ت 1104 هـ) . تعليق : أبو طالب تجليل التبريزي . قم المشرفة : المطبعة العلمية .

3 – الإحتجاج على أهل اللجاج . أحمد بن علي بن منصور الطبرسي (ت 620 هـ). تحقيق : محمد باقر الخرسان . مشهد المشرفة : المرتضى ، 1403 هـ .

4 – إحياء علوم الدين . محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ) . بيروت : دار المعرفة .

5 – الإرشاد . محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). بيروت : الأعلمي ، 1399 هـ .

6 – إرشاد القلوب . الحسن بن محمد الديلمي (من أعلام القرن الثامن الهجري). قم المشرفة : الشريف الرضي .

7 – أسد الغابة في معرفة الصحابة . علي بن أحمد بن الأثير (ت 630 هـ). بيروت : سنة 1970 م .

8 – إعلام الورى . أبو الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). النجف الأشرف : مطبعة الآداب، 1390 هـ .

9 – إقبال الأعمال . علي بن موسى بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت: الأعلمي ، 1996 م .
10 – أمالي الشيخ الصدوق . محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق (ت 381 هـ). بيروت : الأعلمي ، 1400 هـ .
11 – أمالي الشيخ الطوسي . محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). طهران : طبعة حجرية قديمة ، 1300 هـ .
12 – أمالي الشيخ المفيد . محمد بن محمد النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ) . قم المشرفة : جامعة المدرسين ، 1403 هـ .
13 – الإمامة والسياسة (المعروف بتاريخ الخلفاء) . محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ). مصر: البابي الحلبي ، 1378 هـ .
14 – أنساب الأشراف . أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279 هـ). تحقيق : محمد باقر المحمودي . الطبعة الثالثة . بيروت : دار المعارف ، بدون تاريخ .
15 – بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (ع) . محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ) . بيروت : دار الوفاء .
16 – البداية والنهاية . إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ) . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ .
17 – تاريخ بغداد (أو مدينة السلام) . أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463 هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا . بيروت : دار الكتب العلمية ، 1977 م .

18 – تاريخ الخلفاء . عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 هـ). بيروت : دار ابن حزم ، 2003 م .
19 – تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك). محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار التعارف .
20 – التاريخ الكبير . محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ). تحقيق: هاشم الندوي . بيروت : دار الفكر .
21 – تاريخ اليعقوبي . أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (ت 284 هـ) . بيروت : دار صادر ، 1379 هـ .
22 – تحف العقول عن آل الرسول (ص). الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (ت 381 هـ). تصحيح : علي أكبر الغفاري. قم المشرفة: جماعة المدرسين ، 1404 هـ .
23 – التحف والهدايا . محمد بن هاشم الخالدي (ت 380 هـ) ، وسعيد بن هاشم الخالدي (ت 371 هـ). القاهرة : دار الكتب المصرية ، 1929م.
24 – تفسير القرآن الكريم (تفسير ابن كثير). إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت 774 هـ). تحقيق : محمد حسين شمس الدين. بيروت : دار الكتب العلمية ، 1419 هـ .
25 – تفسير الجلالين . جلال الدين المحلي (ت 864 هـ) ، وجلال الدين السيوطي (ت 913 هـ) . بيروت : مكتبة ناشرون لبنان ، 2003 م .
26 – تفسير الميزان (أو الميزان في تفسير القرآن). السيد محمد حسين الطباطبائي (ت 1402 هـ) . قم المشرفة : إسماعيليان . الطبعة الثالثة نقلاً عن طبعة 1973 م .

27 – تنبيه الخواطر ونزهة المناظر (مجموعة ورّام). ورّام بن أبي فراس الحلي (ت 605 هـ). طبعة طهران ، 1309 هـ .
28 – التوحيد . محمد بن علي بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). تصحيح: هاشم الرسولي الطهراني . طهران : مكتبة الصدوق، 1398 هـ .
29 – الجمل (أو النصرة في حرب البصرة). محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). النجف الأشرف : المطبعة الحيدرية .
30 – جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة . أحمد زكي صفوت. بيروت : دار الكتب العلمية .
31 – جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ع). شمس الدين محمد بن أحمد الدمشقي (ت 871 هـ). تحقيق : الشيخ محمد باقر المحمودي . قم المشرفة : إحياء الثقافة الإسلامية ، 1416 هـ .
32 – الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة . الشيخ يوسف البحراني (ت 1186 هـ) . تحقيق: محمد تقي الإيرواني. قم المشرفة : جماعة المدرسين .
33 – ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى . أحمد بن عبد الله الطبري (ت 694 هـ). القاهرة : دار الكتب المصرية ، 1356 هـ .
34 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . محمود الآلوسي البغدادي (ت 1270 هـ). بيروت : دار إحياء التراث العربي .
35 – السبط المجتبى : الإمام الحسنُ بن علي (ع). زهير طالب

الأعرجي. كربلاء المشرفة : العتبة العباسية – شعبة الدراسات ، 2015م.
36 – سنن البيهقي (السنن الكبير). أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت 458 هـ). تحقيق: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية . القاهرة : مركز هجر ، 2011 م .
37 – سنن الترمذي (الجامع الصحيح). محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت 297 هـ). تحقيق : أحمد محمد شاكر . بيروت : دار إحياء التراث ، بدون تاريخ .
38 – شرح أصول الكافي . مولى محمد صالح المازندراني (ت 1081 هـ). تحقيق : أبو الحسن الشعراني . تصحيح : علي عاشور . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، 1421 هـ .
39 – شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين (ع) علي بن أبي طالب (ع). ابن ميثم البحراني (ت 681 هـ). تصحيح : مير جلال الحسيني الأموري. قم المشرفة : جماعة المدرسين .
40 – شرح نهج البلاغة . عز الدين بن هبة المعروف بابن أبي الحديد المعتزلي (ت 655 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة: البابي الحلبي ، 1959 م .
41 – شرح نهج البلاغة . شرح الشيخ محمد عبده (ت 1323 هـ). بيروت: دار المعرفة .
42 – صحيح البخاري . محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ). بيروت: دار الفكر ، 1981 م .
43 – الصدّيق الأكبر (السيرة الذاتية للإمام علي بن أبي طالب عليه

السلام). السيد زهير طالب الأعرجي. قم المشرفة: 1420 هـ .
44 – الطبقات الكبرى . ابن سعد كاتب الواقدي (ت 230 هـ). بيروت : دار بيروت للطباعة، 1405 هـ .
45 – علل الشرائع . محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). النجف الأشرف: النعمان ، 1385هـ .
46 – عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب . أحمد بن علي بن الحسين بن مهنا بن عتبة (ت 828 هـ). طبعة لكنو بالهند .
47 – الغارات . إبراهيم بن محمد الثقفي (ت 283 هـ). تحقيق: جلال الدين المحدث . طهران : المكتبة الوطنية .
48 – فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر (ت 852 هـ). بيروت : دار المعرفة. الطبعة الثانية.
49 – الفتوح . أبو محمد بن أعثم الكوفي (ت 314 هـ). بيروت : دار الكتب الإسلامية ، 1406 هـ .
50 – قرب الإسناد . عبد الله بن جعفر الحميري القمي (من أعلام القرن الثالث الهجري). تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث . قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) ، 1413 هـ .
51 – الكافي (الأصول، الفروع، الروضة). محمد بن يعقوب الكليني (ت 329 هـ). تصحيح: علي أكبر غفاري. طهران: دار الكتب الإسلامية، 1365 هـ .
52 – لسان العرب. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ). قم المشرفة : نشر أدب الحوزة ، 1405 هـ .

53 – مجمع البحرين . فخر الدين الطريحي (ت 1087 هـ). قم المشرفة: مصطفوي ، 1399 هـ .
54 – مجمع البيان في تفسير القرآن. الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). تحقيق: هاشم المحلاتي، وفضل الله اليزدي. بيروت: دار المعرفة ، 1408 هـ .
55 – مجمع الزوائد . نور الدين الهيثمي المعروف بابن حجر (ت 807 هـ). بيروت : دار الكتب العلمية ، 1408 هـ .
56 – مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول (ص). محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، 1370 هـ .
57 – مروج الذهب ومعادن الجوهر. علي بن الحسين المسعودي الهذلي (ت 346 هـ) . تحقيق : محمد محيي الدين. مصر: مطبعة السعادة، 1384 هـ .
58 – المستدرك على الصحيحين . الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ). تحقيق: يوسف المرعشلي. بيروت: دار المعرفة ، 1406 هـ .
59 – مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل . الميرزا حسين النوري (ت 1320 هـ). تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث. بيروت: مؤسسة آل البيت (ع)، 1987 م.
60 – مسند أحمد . أحمد بن حنبل (ت 241 هـ). بيروت: المكتب الإسلامي ، 1398 هـ .
61 – مصباح المتهجد . الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). تحقيق: علي أصغر مرواريد. بيروت: فقه الشيعة ، 1411 هـ .

62 – معدن الجواهر ورياضة الخواطر. محمد بن علي الكراجكي (ت 449 هـ). تحقيق: أحمد الحسيني. قم المشرفة: مطبعة مهر، 1394 هـ .
63 – مقاتل الطالبيين. علي بن الحسين بن محمد المعروف بأبي فرج الأصفهاني (ت 356 هـ). تقديم: كاظم المظفر . قم المشرفة : دار الكتاب، 1965م .
64 – المناقب (مناقب آل أبي طالب). محمد بن علي بن شهر آشوب (ت 588 هـ). النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية ، 1956 م .
65 – منتخب الطريحي (المنتخب في جميع المراثي والخطب المشتهر بالفخري). فخر الدين الطريحي (ت 1085 هـ). النجف الأشرف: مطبعة الآداب، 1385 هـ .
66 – من لا يحضره الفقيه . محمد بن علي بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 329 هـ). بيروت: الأعلمي، 1986 م.
67 – مهج الدعوات. علي بن موسى بن جعفر الحلي بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت : الأعلمي .
68 – النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير مبارك بن مبارك الجرزي الشافعي (ت 606 هـ). تحقيق: طاهر أحمد الزاوي. قم المشرفة: أسماعيليان، 1367 هـ . ش.
69 – نهج البلاغة. مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). بيروت : دار المعرفة .
70 – واقعة صفين. نصر بن مزاحم المنقري (ت 212 هـ). تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت : المؤسسة العربية الحديثة للنشر ، 1382 هـ .

71 – وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). بيروت : دار إحياء التراث العربي، 1983 م .
72 – ينابيع المودة لذوي القربى. سليمان إبراهيم الحنفي المعروف بالقندوزي (ت 1294 هـ). تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني. طهران: دار الأسوة ، 1416 هـ .

ملحوظة : (أشرنا إلى كتاب : شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد برمز : شرح نهج البلاغة – ح . وكتاب شرح نهج البلاغة – محمد عبده برمز : شرح نهج البلاغة – م).

الفهرست

مقدمة الكتاب 5
الفصل الأول: أصول المنهج العقلي عن الإمام الحسن (ع) 9
بناء شخصية الإنسان 11
الإنسان وقيود الدنيا 11
الإنسان في مراحل الدنيا 14
منهج العقل في الحياة الدنيوية 22
مبادئ الحياة الدنيوية : 23
1 – طبيعة الإنسان في الدنيا : 23
حياة الإنسان على هذه الأرض 24
الإستنتاج 30
2 – طبيعة الدنيا مع الإنسان 31
مراحل الدنيا : 33
المرحلة الأولى : مرحلة التكوين : 33
1 – طلب العلم من الصغر 34
2 – البداية بالقرآن وتعلمه 35
3 – الإيمان بالله تعالى وتعلم طاعته 37
4 – الإيمان بمحمد (ص) ورسالته 38

المرحلة الثانية : مرحلة التكوين : 39
1 – التفقه في الدين واللجوء إليه تعالى 40
2 – إختيار العلم النافع 42
3 – قراءة التاريخ واستخلاص العبر 44
4 – تعمير القلب والعقل بذكر الله تعالى 46
المرحلة الثالثة : مرحلة مواجهة الحياة 48
الأول : على الصعيد الشخصي : 48
1 – عدم ركوب الأهوال 49
2 – عدم التورط في الشبهات 52
3 – ترك مقدمة الشبهات 54
4 – الإعتصام بالله تعالى والتبصر بعد الجهل 56
5 – ما بين حال الدنيا وحال الآخرة 58
6 – الطريق بينك وبين الله تعالى 60
7 – الدعاء مفتاح خزائن الله تعالى 63
8 – إنما خُلِقتَ للآخرة لا للدنيا 64
9 – أكثر ما يكره الناس : فكرة الموت 66
10 – الترفق في الطلب وتقليل الطموح 68
11 – التفكرُ السليم بوابةُ البصيرة 70
12 – التوازن في طبيعة الأشياء 73
13 – تقلبات الدنيا والإتعاظ بالأدب 75
14 – بين النفس والناس 76

15 – أصول التعامل مع الناس والزمان 80
الثاني : على الصعيد الإجتماعي: 83
1 – حملُ أهلِ الفاقةِ على عاتقك 83
2 – حرية الحياة 86
3 – مرارة اليأس خيرٌ من الطلب من الناس 89
4 – في التعامل مع الناس 91

الفصل الثاني : مصاديق المنهج العقلي في حياة الإمام الحسن (ع) 99
مقدمة 101
الحسن (ع) في زمن رسول الله (ص) 101
عَقُولُ الصبا 102
تجارب الصبا 109
حكمةُ الحسن (ع) في زمن أبيه (ع): 110
خلافةُ الإمام أمير المؤمنين (ع) 111
الإنابة لصلاة الجماعة 112
في صفات الله عز وجل 116
في طلب الإستسقاء 120
صبراً على مصائب الدنيا 125
في حروب الحق زمن أبيه : 128
أولاً : حرب الجمل: 128
أ – محطات الحسن (ع) في الكوفة: 130

المحطة الأولى : الدعوة لأهل العقل 130
المحطة الثانية : شرحٌ لفضائل الإمام علي (ع) 132
المحطة الثالثة: لئن لم تنصروه لينصرنه الله 139
المحطة الرابعة : الجهاد مع علي (ع) كالجهاد مع النبي (ص) 140
ب – محطات الحسن (ع) في البصرة : 141
المحطة الأولى: رد مغالطات عبد الله بن الزبير 144
المحطة الثانية: الطلب من الإمام (ع) بالعفو 154
ثانياً: محطات معركة صفين 154
المحطة الأولى: خطبة الحسن (ع) في صفين 155
المحطة الثانية: خطبة الحسن (ع) بعد فشل التحكيم ... 158
ثالثاً: معركة النهروان 161
استشهاد الإمام علي (ع) 161
محطات الحسن (ع) زمن إمامته 162
المحطة الأولى: في عزاء الإمام علي (ع) 163
المحطة الثانية: البيعة للإمام الحسن (ع) 168
المحطة الثالثة: خطاب ما بعد البيعة 171

الفصل الثالث: النهي عن ركوب الأهوال 177
مقدمة 179
نظرية الإمساك عن ركوب الأهوال: 179
المرحلة الأولى: إلقاء الحجة 180

أولاً: إلقاء الحجة على معاوية 181
مغزى رسالة الإمام الحسن (ع) 183
ثانياً: إلقاء الحجة على الناس في الكوفة 187
صفات القلّة من المخلصين 190
المرحلة الثانية: بوادرُ ما خافَ ضلالته: 193
1 – التثاقل عن الجهاد 194
2 – شراء الولاء بالمال 197
الإنذار الأخير 199
قشة (عبيد الله بن العباس) القاصمة 201
الإعلان المرتقب 204
مرارة الحسن (ع) منهم 206
أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم 208
3 – خيانة النخبة 211
المرحلة الثالثة: الأمر بعدم ركوب الأهوال: 214
1 – الهدنة مع معاوية 215
وثيقة الهدنة 217
تحليل أفكار الوثيقة 220
2 – الخطبة التفصيلية للإمام (ع) بعد الهدنة 225
مفتاح الخطبة 226
علي (ع) من محمد (ص) ومحمد (ص) من علي (ع) ... 227
تقديمُ علي (ع) في جميع المواطن 230

جُمعتْ لعلي (ع) كل الفضائل 232
مكانةُ رسول الله (ص) من ربه تعالى 235
إدخال أهل البيت (ع) في فضائل محمد (ص) 237
مكانة أهل البيت (ع) في الكتاب والسنّة 240
صفاتُ الحسن بن علي (ع) 242
خذلان الأمة مرة بعد أخرى 247
نحن بقيةُ النبوة 248
لقد خامركم الطغيان والجحود 249

الفصل الرابع: حكمة الإمام الحسن (ع) : في أصول الدين 253
مقدمة 255
خصائص الإمام (ع) 255
في صفات الله تعالى 258
بين جواد الخالق وجواد المخلوق 258
لا يوصف الخالق إلا بما وصف به نفسه 261
أنتَ الحيُّ القيّوم 265
التقرب إلى الله بالطاعات 268
صفات أخرى للآلوهية 271
في الرد على من شبّه اللهَ بخلقه 276
في الجبر والتفويض والقدر 286
صفات الله تعالى: في القنوت 290

في نبوة محمد (ص) 291
صفات رسول الله (ص) 292
محمد (ص) أصدق الرسل 294
محمد (ص) بلّغ رسالة ربه تعالى 296
شهادةٌ للبشير النذير (ص) 298
في ولاية أهل البيت (ع) 300
الولاية أهم موارد الإختلاف 301
واجباتكم نحو الدين والولاية 304
في وصف الأبرار (ع) 308
أهل البيت (ع) عيشُ العلمِ وموتُ الجهلِ 309

الفصل الخامس: حكمة الإمام الحسن (ع): في صفة
الإنسان والحياة الدنيا 313
مقدمة 315
في صفة الإنسان 315
الإهتمام بروحية الإنسان 315
غريزة الحيوان أحياناً أعقل من شهوة الإنسان 317
العبرة في موعظة النفس 318
اطلب الآخرة فربما أصبت الدنيا مع الآخرة 320
التقوى بابُ التوبة والحكمة 321
العبودية الحقيقية لخالق الوجود 323

مكارم الأخلاق 326
في صفات الأخوة الفاضلة 332
الجزاء على قدر العقول 335
في صفة الحياة الدنيا 341
صفاتُ دنيا لا يدوم نعيمها 342
الدنيا وإستيفاء المطالب فيها 344
جوهر المواعظ في الدنيا وأحوالها 347

الفصل السادس : النتائج المستخلصة من بحوث الكتاب .. 357

المصطلحات الواردة في الكتاب 387
المصادر 393
الفهرست 403